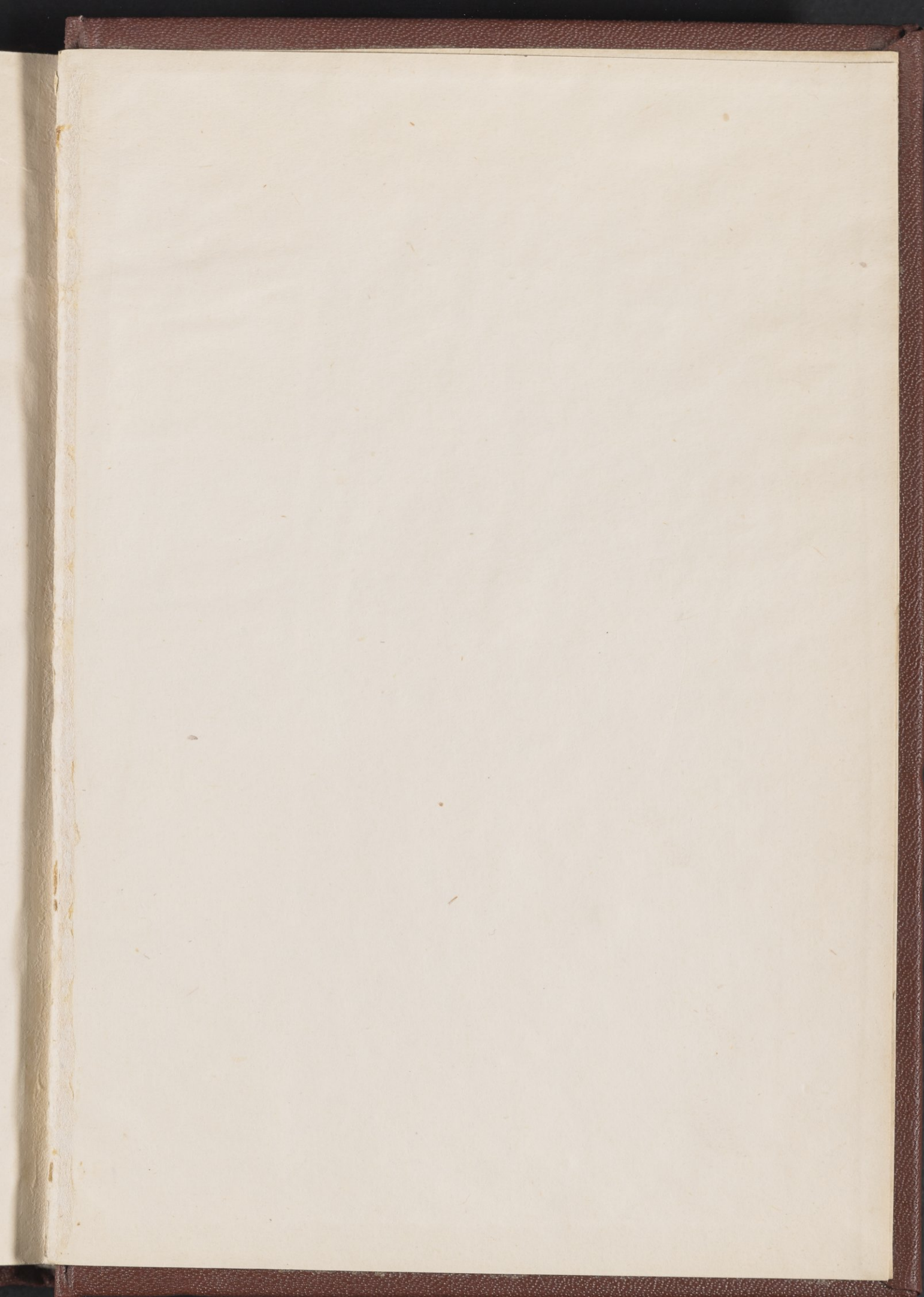


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01022 3257



Sarrūf, Fu'ād

Rūz fīl

E

807

S27

1943

روزفلت

بفتم

فؤاد صروف



مكتبة المطبعة وشركة
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

923.273

R 677

923, 273

اوزفلیت. ص

۱۷

23067

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

مارس ۱۹۴۳

إهداء الكتاب

إلى

سعادة المستر الكسندر كيرك

الوزير المفوض للولايات المتحدة الأمريكية في المملكة المصرية

وهو مَنْ يمثل سياسته وأعماله سياسة الرئيس

فرنكلن ديلانو روزفلت

والمبادئ التي يجاهد في سبيلها

923.273
R677

23067

محتويات الكتاب

مقدمة

الفصل الأول أصله ونشأته

صفحة	
١٠	١ — سلالة وتحدده
١٥	٢ — صفة آل روزفلت
٢٢	٣ — البحر أستاذ
٢٨	٤ — نزعتة السياسية
٣٢	٥ — زوجه وزواجه

الفصل الثاني من آلبني إلى وشنطن

٤٠	١ — سياسى مطبوع
٤٦	٢ — النضال السياسى الأول
٥٦	٣ — مع ولسن إلى وشنطن
٦١	٤ — الحرب والأسطول
٧٠	٥ — المدار : عصبة الأمم



الرئيس فرنكلن دالانو روزقلت
الرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية

مقدمة (١)

بينما كان الحاكمان بأمرهما ، أو الحاكمان بأمر أحدهما ، يتأهبان للاجتماع في مكان ما ، في أوروبيا يوم الاثنين في ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ ، كان الرئيس فرنكلن روزفلت ، يتأهب لحفلة تنصيبه الثالثة ، وإلقاء خطبة الرأسة الثالثة ، أمام دار الكابيتول ، مقر المجلسين النيابيين في الحاضرة الأميركية ، وفي ظلّ مسألة وشنطن منشئ الوحدة ، وعلى مقربة من تذكّار لنكن الذي صانها من الانفصام .

ولو أن قدرة علوية ، أرادت قصداً أن تجمع في إطار عالمي ، صورة الضدين ، لتفرض على العالم قاطبة المقابلة بينهما ، واستخراج العبرة من المقابلة ، لما هيأت إلاّ حادثين ، كهذين الحادثين في يوم واحد ، أو لعلّ قدرة علوية ، أرادت ذلك قصداً ، وليس عليها شيء عسير .

في الجانب الواحد من الصورة ، رجلان يجتمعان خفية في معزل عن أعين الرقباء وفي حماية نفر من العيون والأرصاد ، ويدبران سرّاً ما يريانه كفيلاً بإخضاع العباد ، وتقييد العقل ، وفرض السلطان بالقوة الغاشمة .

وفي الجانب الآخر رجل يقف حاسر الرأس أمام الجماهير يعلن ثقته : « برضى المحكومين » واحترامه لعقل الشعب وروحه ، وإيمانه بالرجل المنسي ، وعزمه الذي لا يثنى ، على أن ينهض بالولايات المتحدة الاميركية ومعها ، إلى مستوى تاريخها المجيد . إن في كلماته رنة من كلمات وشنطن وهو يناشد شعبه أن « احتفظ بمجدوة الحرية المقدسة » وعلى سماته الخلقية والخلقية مسحة من إنسانية لنكن وهو يقول :

(١) حديث أذعته من القاهرة يوم ٢٣ يناير ١٩٤١ بعد انقضاء ثلاثة أيام على تنصيب روزفلت الثالث ، واجتماع هتلر وموسوليني في مضيق برنر .

« هذه الأمة لا كيان لها ، نصفها عبد ونصفها حر » . هنا ضدان جمعتهما القدرة

العلوية في إطار وهما لا يجتمعان .

إن الحاكم بأمره يسعى إلى التغلب على توزعه النفسى بالالتجاء إلى الأبهة الخارجية الصاخبة ، وروزقلت يستطيع ، لثقتة بسلامه النفسى ، أن يعرض عن مظاهر الوقار التى تلزم منصبه بغير أن يفقد وقاره . الحاكم بأمره يبدأ بالحق والاضطهاد ، ورغبة روزقلت الأولى متجهة ، منذ ما خاض غمار السياسة ، إلى حماية المضطهدين . الحاكم بأمره لا يتكلم إلا عن مصلحة القوم كما يفسرها ويصورها مطمحه الضيق أو شعوره الموتور ، وروزقلت لا يتكلم إلا عن مصلحة الفرد وكرامته وهناءته كما يفهمها الرسل والمصلحون . الحاكم بأمره يعيش فى حزبه وله ويلغى سائر الأحزاب ، وروزقلت يعيش فى نضال الأحزاب . الحاكم بأمره يغتصب السلطان بالسيف والنار ، ويحافظ عليه بالاضطهاد والاعتقال ، وروزقلت تلقى السلطان فى ثلاثة انتخابات متوالية نتيجة « لإعراب الأكرثية الحرة من الأمة عن رأيها الحر » . الحاكم بأمره يخلق الأزمات لى يحرز فى حلها نصراً جديداً يضيف ألقاً لمعة جديدة إلى الهالة التى ينسجها له أنصاره ، وروزقلت وجد نفسه فى مستهل رآسته الأولى أمام أقم أزمة اقتصادية منيت بها أميركا ، وفى مستهل رآسته الثالثة أمام أزمة عالمية ، فاتجه إليه الشعب فى الحالين يطلب القيادة الرشيدة والضوء . رغبة الحاكم بأمره وشهوته تدفعانه إلى دك أركان المجتمع ، ورغبة روزقلت تتجه إلى حفظها وتدعيمها . الحاكم بأمره يرتاب فى الناس ، وروزقلت يسعى إليهم ، الأول همه أن يُرْهَب ، والثانى همه أن يُحَب .

وليس الغرض أن أقول إن روزقلت رجل كامل . كلاً ، ولكن الصفات التى تقدم ذكرها بارزة فيه : فى خلقه كرجل فى داره ، وفى خلقه كسياسى فى الحلبة العامة . وما هذه الصفات سوى ، إعراب ، مستوياً رجلاً ، عن لون من الحياة ، وصورة من

المجتمع ، بينما الصفات التي يتصف بها الحاكم بأمره ، منذ ما عرف باسم الطاغية في عصر الاغريق القدماء ، إلى أن عرفناه في عصرنا باسم الدكتاتور ، واحدة على مرّ العصور قلماً تتغير ، وهي كذلك إعراب مجسم في رجل ، عن لون من الحياة ، وصورة سقيمة من المجتمع البشري .

كتب الدكتور جون فنلي ، وقد كان مديراً لمعارف ولاية نيويورك ومحرراً لجريدة نيويورك تيمس وأحد المقرّبين إلى الرئيس ولسن ، أنه وصل في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٨ إلى روما فكان أول ما استوقف نظره عند نزوله من القطار عنوان عريض بحروف ضخمة في إحدى الصحف الإيطالية مؤداه « الجنود الأميركية في الميدان الإيطالي » فعقب في مذكراته على ذلك بقوله : « إن صيحة الحرية من العالم الجديد ترن أصدائها في أرض مكتشفه » .

وقد مضى ولسن وفنلي وغيرهما إلى لقاء ربّهم ، ووضعت إيطاليا الرسمية أصابعها في آذانها فلا تسمع صيحة الحرية الآن ، ولكن الصيحة ما تزال منبعثة من العالم الجديد ، وفي أوروبا بل في إيطاليا نفسها ، ملايين من الآذان تتوق إلى سماعها ، ومن القلوب تتهيا لها ، على الرغم من أن الأوامر العسكرية قد حالت بين آذان هؤلاء وبين أمواج الأثير الحافلة بأصدائها .

وقد ألقى وشاح الرئيس ولسن على كتفي فرنكلن روزفلت العريضتين . فهو مطبوع بطابعه المثالي ، مؤمن بإيمانه بالديمقراطية ومستقبلها من حيث هي نظام للحكم وصورة للاجتماع ، ولكنه يفوقه في صدق نظرته إلى حقائق الحال ، وحسن تصريفه للأمور . إن صوته يجمع بين النزعتين وهو يقول : « الديمقراطية لم تمت ، ولا هي سائرة في طريق الموت . إننا نعلم ذلك لأننا رأيناها تبعث بعثاً جديداً وتمضي في طريق النمو . إننا نعلم ذلك لأنها السعي المطلق من القيود ، يبذله أفراد من رجال

ونساء في عمل مشترك ، في عمل يعمل وينجز من طريق الإعراب الحرّ عن رأى أكثرية حرّة » . وإني لأتصور الرئيس روزقلت وهو واقف على سلام الكايتول يقول هذا القول في خطبة رأسه الثالثة ، فتعود بي الذاكرة ثمانى سنوات إلى الوراء فأتخيله في اليوم الرابع من مارس سنة ١٩٣٣ ، وهو يوم تنصيبه الأول ، واقفاً الوقفة نفسها وقد دُعى إلى تقلد أعلى منصب في الدولة ، فواجه في ذلك اليوم الذى يجب أن يكون يوم فرح واغتباط ، أزمة مالية اقتصادية عصفت بمنشآت الأمة من الساحل إلى الساحل ، فالمصارف مفلسة أو على شفا الإفلاس ، ومجالات الصناعة تسير في ببطء وتثاقل نحو الوقوف ، وعشرة ملايين أوزيدون من العمال معطلون عن العمل ، والناس حائرون لا يعلمون ما يكون مصير كل ما بذلوه من جهد أو نشاط ، ولا ما يكون مصير أولادهم من بعدهم .

وقف فرنكلن روزقلت هناك شاحب الوجه ، يده اليسرى على التوراة التى جاء بها جده الأعلى من أوربا قبل ثلاثة قرون ، عند ما هجرها طلباً للحرية ، ويده اليمنى مرفوعة أمام رئيس المحكمة العليا ، فأقسم يمين الولاء للدستور ثم اشترأت إليه الأعناق ، لتلتقط كل كلمة تخرج من فيه . وبدأ خطبة الرئاسة فقال : « هذا وقت يتعين علينا فيه أن نقول الحقيقة في صراحة وجراحة . . . إن الشيء الوحيد الذى يجب أن نخافه هو الخوف . . . بهذه الروح فيّ وفيكم نواجه معاً متاعبنا المشتركة . . . وهى متاعب ليس مردّها بحمد الله إلى الأشياء المادية . . . إن مصيبتكم ليست ناشئة عن إمساك الأرض . والجراد لم يكتسح زرعنا . . . فإذا قيست متاعبنا من هذا القبيل بما عاناه آباؤنا وأجدادنا فليس لنا إلا أن نحمد الله . . . » ثم انتقل إلى الهجوم فقال : « إن الصيارفة قد فرّوا من مقاعدهم في هيكل الحضارة . . . ففي وسعنا الآن أن نعيد وقف ذلك الهيكل على الحقائق الخالدة . . . إن الأمة تطلب العمل وستأخذ مني ما تريد » .

كان العدو الذي واجهه روزفلت حينئذٍ والأمة من ورائه ، عدوًّا داخليًّا ،
فقابله بذلك المزيج المتزن في نفسه ، من النزعتين السكالية والعملية في آن واحد .
ولم يكن في حلبة السياسة الدولية حينئذٍ ما يبعث على القلق . ومع ذلك نجد في بضعة
السطور القليلة التي خصصها للسياسة الخارجية في خطبته ، نواة للخطة التي يجهر في
الدعوة إليها اليوم ، قال : « وفي ميدان السياسة العالمية ، أقف سياسة هذه الأمة على
مبدأ الجار الطيب ، الجار الذي يحترم نفسه احتراماً صادقاً ، فيحترم لذلك حقوق غيره .
الجار الذي يحترم ما يجب عليه ويحافظ على عهوده وحرمتها » . إن كل ما يعلنه الطغاة
ويطلبونه ويطمعون فيه ويتوسلون به مردود في هذه العبارة البسيطة لأن روزفلت
أفرغ فيها إحدى الحقائق الخالدة في تاريخ الاجتماع البشري .

وقد انقضت عليه ثماني سنوات ، اشتد فيها الخلاف على بعض الخطط التي
اقترحها ، وكانت المقاومة على أشدها من الطبقة التي وصفها في خطبته الأولى بعبارة
« الصيارفة الذين فروا من مقاعدكم في هيكل الحضارة » وهي الطبقة التي ينتمى إليها
هو بحكم نشأته . ولكن كتلة الشعب أسلمته زمامها مرة أخرى في سنة ١٩٣٦ عند
ما جددت انتخابه بأكثرية لا مثيل لها في تاريخ الولايات المتحدة . وأخيراً
خرجت على كل تقليد سابق في حياة أميركا السياسية ، فانتخبته مرة ثالثة للرئاسة ، وهو
أول من انتخب لها ، فكانها نادته في ١٩٤٠ كما نادته سنة ١٩٣٢ لقيادتها في
أزمة أخرى عصبية .

فعند ما وقف من أيام (٢٠ يناير ١٩٤٠) للإلقاء خطبة رأسته الثالثة ، كان
العدوُّ الداخلي الذي واجهه قبل ثماني سنوات قد تراجع قليلاً ، ولكن العدوُّ
الخارجي بدا في الأفق الدولي القريب . إن مصير صورة الحياة الديمقراطية التي
ارتضاها شعبه وآثرها على غيرها مهددة بالزوال ، فلتكن هذه الحفلة ، كما كانت
الحفلة التي سبقتها من ثماني سنوات ، لوقف الأمة وقفاً جديداً على الحقائق الخالدة !

ونقلت أمواج الأثير كلماته إلى أربعة أقطار الأرض وكأنها بوق ينادى إلى الكفاح .

ولكن النزعة المثالية في تركيب روزفلت العقلي لا تحجب عن ناظره حقائق الأحوال . وليس إدراك الحقائق بالشئ الذي طرأ عليه أخيراً ، بل هو أصيل فيه . فقد كان وكيلاً لوزارة البحرية الأميركية في أثناء الحرب العالمية الأولى ، وكان في الثلاثين من عمره ، فوجه همه من البدء إلى إقناع الشعب الأميركي بوجوب تعزيز الأسطول ، ونشرت عشرات من المقالات منه بوحى ، وفيها الدليل على أن مائتي ميل لا غير من سواحل الولايات المتحدة — وطولها ألفا ميل — محصنة والباقي غير محصن . ثم سعى بعد ذلك إلى إعداد الأسطول ليكون متأهباً إذا اضطرت البلاد إلى خوض الحرب . ولكن الرئيس ولسن كان أقوى معارض في هذه الخطة . وفي خريف سنة ١٩١٦ — أى نحو ستة أشهر أو سبعة قبل دخول أميركا الحرب — قابل روزفلت الرئيس ولسن فقال له : إن الحوادث تسير سراعاً ونحن على وشك الانغمار بها على ما يلوح فيجب أن نكون متأهبين . فنهز الرئيس ولسن رأسه معارضاً . ثم حوّل الموضوع إلى مسائل أخرى حكومية . فلما همّ روزفلت بالانصراف استبقاه ولسن وقال : إن عيون التاريخ تحديقاً فينا ، نعم إن من المرجح أننا سندخل الحرب مضطرين ، ولكن في سنة ١٩٨٠ سيكتب مؤرخ تاريخ هذه الحرب . وقد يكون ألمانياً أو روسياً ، فيجب أن يكون في قدرة ذلك المؤرخ أن يقول صادقاً « إن أميركا لم تتأهب للحرب إلا بعد ما اضطرت إلى خوض غمارها » . وبعد ما أعلنت أميركا الحرب في شهر أبريل سنة ١٩١٧ ظهر أن ثلث سفن الأسطول الأميركي فقط ، على جانب وافي من التأهب الحربي ، وأن عُشرها فقط ، كان عامراً بجميع ما يلزم لها من الضباط والبحارة ، وأن الأسطول الأميركي يحتاج إلى تسعة أشهر من التأهب على الأقل قبل أن يبلغ أقصى قوّته .

وعرفت هذه الحقائق ، فكان خصوم روزفلت يقذفونها في وجهه فيما بعد ، متهمينه بأنه خاب في أهم ما يجب عليه نحو قومه ، إذ قصر ، عن قصد أو عن جهل ، في إعداد الأسطول الأميركي ، ولكن ولاءه للرئيس ولسن وذكراه ، حال دون إذاعة الحقائق على وجهها الصحيح ، إلى قبل سنتين من الزمان .

وفرناكلن روزفلت نفسه جالس الآن في مقعد ولسن . وفي يده زمام قوات أميركا المسلحة ومقدراتها السياسية . ولا ريب في أن ذكرى تلك الأيام من نحو ربع قرن من الزمان مطبوعة على لوحة نفسه ، وهو يرى أن الخطر الذي تتعرض له الولايات المتحدة الأميركية في سنة ١٩٤١ أو ما يليها ، أعظم جدًّا وأشدُّ تهديدًا لقواعد الحياة الأميركية من الخطر الذي كانت معرضة له في سنة ١٩١٧ ، وهو لذلك يريد بلاده متأهبة للدفاع ، ويرى أن تأهبها للدفاع الكلى ، لا يتم على أوفى وجهه ، إلا إذا بذلت الولايات المتحدة أقصى العون لبريطانيا ، لأن الدفاع عن بريطانيا دفاع عن أميركا . إنه لا ينظر إلى ما يحتمل أن يقوله مؤرخ ألماني أو غير ألماني بعد خمسين سنة من الزمان ما دام مقتنعًا بأن الخطة التي اختارها فيها ضمان لمصالح قومه العليا ، وهذه المصالح تندمج في طبقتها العليا في مصالح الحضارة نفسها .

إن النزعة المثالية في طبيعة الرئيس روزفلت التي يعبر عنها في أقوال تهز أوتار النفوس ، وإدراكه الواقعي لحقائق هذه الحرب ومسائلها الأساسية ، وتأييد كتلة الشعب الأميركية وكثرة النواب والشيوخ له ، وقدرة أميركا التي لا تجارى على الإنتاج الصناعى الحربى ، هى مصادر القوة التي يحسها كل من يقرأ في خطبته الأخيرة^(١) قوله « فلنعبئ روح أميركا وإيمان أميركا . إننا لن ننثنى . ولن نقف جامدين » .

ويطيب لى أن أتصور شيخاً فلاحاً أميركياً ، عند مختتم هذا القرن ، وقد

(١) خطبة الرئاسة الثالثة في ٢٠ يناير ١٩٤١

جلس إلى حفيده يحدثه فيقول : عند ما كنت صبيًا يافعًا ، كان في وشنطن رئيس
يسمى روزقلت ، ولد في بيت ثروة وجاه ، ولكنه حارب الأثرياء . وأُصيب في
شبابه بالشلل في نخذه ، ولكنه تقدم الأمة إلى النضال ، السيف في يده وكلمة
الحرية النارية على شفتيه . كان روزقلت هذا يا بني ، صديقًا صدوقًا للشعب ،
ومؤمنًا عميق الإيمان بالإنسانية الحرّة .

الفضائل الأولى

أصله ونشأته

١ — سلالاته وتحدده.

٢ — صفة آل روزقلت.

٣ — البحر أستاذ.

٤ — نزعته السياسية.

٥ — زوجه وزواجه.

إن فرنكلن دلانو روزفلت ، هو رئيس الولايات المتحدة الأميركية ، وقائد قواتها المسلحة ، وسيبقى في هذا المنصب إلى اليوم العشرين من شهر يناير ١٩٤٥ إن لم يشأ ربك غير ذلك . فمن هو هذا الرجل الذي يقبض بيديه على أعنة المقدرات الأميركية وجانب كبير من مقدرات الدول المتحدة ؟ ما قوام تفكيره ، وعناصر خلقه ، وقواعد سياسته الداخلية والخارجية ؟

خاض روزفلت حتى الآن ثلاث معارك انتخاب لرئاسة الولايات المتحدة ، وفاز فيها جميعاً . وهو أول أميركي تقلد الرئاسة ثلاثاً . في هذه المعارك اطرّد عنف المقاومة لانتخابه ، ولكنه تغلب على جميع منافسيه : هووفر في سنة ١٩٣٢ ، ولا ندون في سنة ١٩٣٦ ، وولكي في سنة ١٩٤٠ . وكان طبعياً أن يعتمد خصومه أو أتباع خصومه في خلالها إلى تمثيله وتمثيل فلسفته الاجتماعية والسياسية في صورة منافية للتقاليد الأميركية . وكان طبعياً كذلك أن يقيسوا ، ومعارك الانتخاب بالغة أشدّها ، قيمة الأقوال فيه بمدى تأثيرها في أذهان الناخبين ونفوسهم ، أكثر من قياسها بقربها من الحقيقة والإنصاف . ففي هذه الحالة ، لا يستغرب أن تتجبه مساعي خصومه ، إلى إقامة الدليل على عمق الهوة ، بين الرجل وبين التقاليد الأميركية ، وعلى أن هذه الهوة لا تقتصر على آرائه ونظرته في الحياة والحكم ، بل تشمل نشأته وتربته الأولى . فشرّحوا حياته من المهد إلى البيت الأبيض تشريحاً دقيقاً ، ونقبوا في مراحلها مرحلةً مرحلة ، ليستخرجوا منها ما يصحّ تأويله في نظرهم ، أو اتخاذه دليلاً

على أن حياته ليس من شأنها أن تنشئ أميركيًا صادق الأميركية ، ممثلًا لصميم الحياة الأميركية وأسلوبها .

جميع هذه المساعي لا صلة لها بالواقع طبعًا . فمقياس الصلاح للخدمة العامة ، في الولايات المتحدة ليس أصل الرجل بل سيرته ، ولا تربيته الأولى بل ما صدر عنه وتمّ على يديه ، بعد ما استقام تكوينه العقلي والاجتماعي . ومع ذلك فإن هذه المساعي ، لم تذهب جميعاً أدراج الرياح . نعم إن كثرة الشعب الأميركي دلّت في ثلاثة انتخابات متوالية ، على أن شبهة ما لا تساورها في « أميركية » روزفلت الصادقة ، ولكن هناك أقلية ، ترى ، مع أن رأيها غامضٌ ولم ينهض عليه دليل ، أن أصل روزفلت غير أميركي ، ونشأته الأولى لم تكن وفقاً للتقاليد الأميركية ، وإذن فلا يحتمل — في نظرها — أن يكون رجلاً يستطيع أن يفهم المشكلات الأميركية فهمًا صحيحًا ، وحملاً لا يستطيع أن يفهم موقف الشعب الأميركي منها ورأيه الصحيح فيها .

فإذا كان المقصود بالأميركي « النمط » أي الأميركي الممثل للشعب ، هو الأميركي المتوسط ، فروزفلت ليس أميركيًا ممثلًا لصميم الحياة الأميركية . ولكن إذا قيس لنكن بهذا المقياس ، كان لنكن غير ممثل لصميم الحياة الأميركية كذلك . فقد نشأ لنكن في بيت هو دون مستوى البيت الأميركي المتوسط ، من حيث ما يليحه هذا البيت لأبنائه وبناته ، من مزايا اقتصادية وثقافية . ومع ذلك ، أجمعت الأمة الأميركية من عهد بعيد ، على أن لنكن أميركيٌ صميم ، بل هو في نظرها المثالُ الجسم لصميم الحياة الأميركية . ويقابل هذا أن وشنطن ، أبا الاستقلال ، انحدر من أسرة أعرق من الأسر الأميركية عامّة ، ونشأ في بيت يفوق البيت الأميركي المتوسط ، ومع ذلك فليس ثمة أميركيٌ ينكر عليه ، تغلغله في روح الأمة ، وتغلغل روحها فيه ، نتيجة لهذا الانحدار وتلك النشأة .

والواقع أن دراسة أعظم الرؤساء الأميركيين الستة^(١)، تسفر عن حقيقة مستغربة . فليس بينهم سوى رئيس واحد ، نشأ في بيت أميركي متوسط وهو وودرو ولسن . ومع ذلك فالبينة الثقافية التي تربى فيها ولسن — وهو ابن قسيس — كانت حتماً أعلى منزلة من البينة الثقافية في بيوت الأميركيين بوجه عام . أما الرئيسان لنكن وجاكسون ، فكانا من العامة العاملة . وأما شنطن وجفرسون وثيودور روزفلت فكانوا من الخاصة المميزة .

فالقول بأن رئيساً من رؤساء الولايات المتحدة نشأ في بيئة تنقاد له فيها أسباب الثروة والعيش الرضى ، وتواتيه عناصر الثقافة الرفيعة ، لا يقوم دليلاً على أنه لا يصلح لتمثيل حياة الأمة وفهم مشكلاتها . والقول بأنه نشأ في أحضان الفاقة ، وارتفع إلى أعلى المنازل ، يحرك الإعجاب ويذكر الخيال ، ولكنه لا يثبت أن كل رئيس نشأ هذه النشأة كان رئيساً عظيماً ، قدوة في خلقه وأثره . ففي الطبقتين الأولى والثانية رؤساء عظام ، وآخرون لا يعتد بهم .

وخلاصة القول أن تاريخ الرأسة الأميركية ، يثبت أن الرئيس العظيم قد ينشأ نشأة وضيعة ، وقد ينشأ نشأة كريمة مميزة . وإن نشأته في الحالين لا تحول وحدها دون كونه أميركياً صميمًا .

والواقع أن فرنكلن روزفلت ، نشأ نشأة كريمة مميزة بالمال والجاه والتربية في أرقى المعاهد ، نشأة أرستقراطية . ولكنها لم تكن نشأة منافية في أصولها ومبادئها ، للخلق الأميركي . فقد ولد في ٣٠ يناير سنة ١٨٨٢ في هيدبارك بأعلى ولاية نيويورك ، في دار ريفية قديمة ، ولكنها لم تكن قصراً ، ولا كانت عريقة في أسرته . فوالده ابتاعها ، خمس عشرة سنة ، قبل ولادة فرنكلن . وكان والده غنياً ، ولكنه لم يكن

(١) وشنطون وجفرسون وجاكسون ولنكن وثيودور روزفلت وولسن . ومنهم من يجعل ثيودور روزفلت في المرتبة السابعة ويضع مكانه كليفلند .

يُعَدُّ في طبقة كبار الأثرياء من أمثال قنדר بلت ودوپون وركفلر وعشرين أسرة أخرى من أغنياء ذلك العهد . ولا كان مليونيراً عادياً . ولكنه كان غنياً حقاً ، لأنه كان يحسُّ أنه حائز كلِّ ما يريد ، مما يوفره المال له . وقد أُتيحت له فرصٌ لتكديس ثروة ، كما أُتيحت لأبناء جيله ، فعزف عنها . ولم يكن هذا عن جهل أو إجحام ، فإدارتهُ مزرعتهُ في هيدبارك تشهد بأنه كان رجلاً ممرساً بالأعمال . ولعلَّه فضَّل أن يحتفظ بما ورثه من ثروة متوسطة ، وأن يضيف إليها إضافة معقولة . ومع أن والد فرنكلن ، كان له مكتب في مدينة نيويورك ، ومقعد بين مديري شركات مختلفة ، وأموال يستغلها في طائفة من الأوراق المالية ، فإنه كان يؤثر بطبعه ، مزرعته في هيدبارك وإدارة شؤونها على كل عمل آخر .

وقد ينعى بعضهم على والد فرنكلن أن احتقاره جمع المال ، ليس صفة أميركية . وهذا القول لا يصحُّ إلا إذا أنكرنا أن الفطنة صفة أميركية . والواقع أن الاكتفاء بما يملكه المرء مما يضمن العيش الرضى ، والامتناع عن التشوُّف الى جمع الثروة ، إنما هو صفة من صفات الناس الذين تمتَّعوا زمناً طويلاً بما يضمن أسباب المعيشة الكريمة . وهذه الصفة من صفات أسرة روزفلت ، فقد جمع أبناؤها الأول ما جمعه من ثروة ، في العهد الأوَّل من تاريخ الأمة الأميركية ، واحتفظوا به جيلاً بعد جيل ، وهدتهم فطنتهم إلى أن التمتع بما توفره الثروة المعتدلة ، من أسباب الرخاء والرضا والرحلة والثقافة ، خيرٌ من العناء في تكديس المال .

وأُسرة روزفلت إذا قيست بمئات الأسر الأميركية ، عُدَّت أسرة عريقة ، إذ نزل جدها الأعلى في أرض العالم الجديد قبل ثلاثة قرون . كانت مدينة نيويورك حينئذٍ مستعمرة هولندية . وكانت تعرف باسم أمستردام الجديدة (نيو أمستردام) . ولكنه لم يكن حين نزوحه ، سيِّداً من الأسياد . بل كان صاحب متجر متوسط . ولم يكن اسمه روزفلت بل كلايس مارتنزن . ولا يعلم الباعث الذي حمله على إضافة

اسمه إلى اسم مكان — روزقلت — . ولعلَّ أحد البواعث ، كان كثرة المعروفين باسم مارتزن في تلك المدينة . فرغب في أن يميّز عنهم دفعاً للالتباس . أو لعله أراد ، وقد أخذ النجاح الدنيوى ينقاد إليه ، أن يميّز عن الجمهور بلقب فيه رنة العراقة والأصل الكريم . وعلى كل حال كان يعرف عند موته باسم مارتزن قان روزقلت . « وقان » لفظ لا يقابل تماماً لفظى « فون » أو « ده » باللغتين الألمانية والفرنسية فهما مقتصران على الأشراف ، ولكنه يضاف على صاحبه منزلة خاصة . والغالب أن روزقلت هو اسم البلدة التى كانت مسقط رأسه . فلما تحولت « أمستردام الجديدة » إلى « يورك الجديدة » أو نيويورك ، كان إسحق حفيد كلايس قد عزم على النزوح من المدينة إلى مقاطعة « دتسش » فى شمالى الولاية . فكان إسحق فلاح الأسرة الأوّل ، وكان اسمه حينئذٍ إسحق روزقلت بعد ما حذف مارتزن ، والزائدة « قان » .

إن إسحق روزقلت لم يختلف عن أبيه وجده فى اسمه وحسب . بل فى الدم الذى يجرى فى عروقه . فوالدة إسحق كانت ألمانية . وتزوج هو فتاة سويدية . أما ابنه وحفيده فتزوجا فتاتين إنكليزيتين . لحفيده الأكبر جيمز — والد فرنكلن — كان من أصل هولندى ، ولكن كانت تجرى فى عروقه دماء هولندية وألمانية وانكليزية وسويدية . وكانت زوجه الثانية — والدته فرنكلن — من أصل فلمنكى ، وكان سلفها الأبعد الذى نزل فى أميركا سنة ١٦٤١ يدعى فيليب ده لانوى ، وهو الاسم الذى حُرّف بعدئذٍ « دلانو » ، وهو اسم أسرة والدته الرئيس ، واسمه الوسط . على أن الدم الفرنسى الفلمنكى فى أسرتها اختلط كذلك على تعاقب الأجيال بدماء شعوب أخرى . ففرنكلن دلانو روزقلت ، نتيجة هذا الاختلاط البيولوجى العجيب ، وفى دمه قطرات من أكثر شعوب القارة الأوربية وأعرقها .

وهذا الاختلاط صفةٌ أميركية لا شبهة فى ذلك . ومما يؤثر عن الرئيس ولسن ،

أنه حرّك في أحد الأيام ، سخطَ سكان ولاية كارولينا الشمالية ، حينما بيّن لهم أنهم ليسوا أميركيين أقحاحاً عند ما يفخرون بأنهم منحدرون من صلب المستعمرين الانكليز الأول ، وأنهم تجنبوا الاختلاط واحتفظوا بصفاء السلالة . فلما سئل في ذلك أجاب إن الأمة الأميركية مزيج من جميع السلالات الأوربية ، ولذلك يصحّ القول بأن من يمثل الأمة الأميركية تمثيلاً صحيحاً ، ليس من ينتسب إلى الانكليز أباً عن جد ، وأمّا عن جدّة ، بل هو من تختلط في عروقه دماء أمم أوربية كثيرة . ففرنكلن دLANORوزقلت ، ممثّل طراز للأمة الأميركية ، من هذه الناحية على الأقل .

اتصفت أسرة روزقلت ، خلال ثلاثة قرون ، بصفة الاعتدال . وهو قول قد يبدو غريباً ، لمن يذكر ثيودور روزقلت ، وانحرافه في أقواله وسياسته عن الاعتدال ، حتى لقد وصفه أحد كتّاب سيرته بلفظي « ثورة الحياة » . والاعتراض في محله ، إذا قصر على آراء ثيودور ، وحماسته المبالغ فيها ، للرياضة البدنية . ولكنه مع ذلك كان معتدلاً في معيشته ، منزهاً عن النهم والاستسلام إلى الهنم والسكر والفسق . وولعه بالرياضة البدنية ولعاً يفوق حدود الاعتدال ، قصر عمره على الغالب . ولكن الرياضة البدنية على أنواعها كانت تتيح له راحة فكرية ينعم بها من الكدّ الذهني .

وإذا استثنينا ثيودور روزقلت ، فسجلّ الأسرة لا يضمّ تهوراً أو تطرفاً ما في ناحية من نواحي الحياة . فاسحق روزقلت كان عضواً في المؤتمر الدستوري بولاية نيويورك سنة ١٧٧٦ . ولكننا لا نجد أحداً من هذه الأسرة خلال المائة السنة التالية في منصب عام . وقد أصاب آل روزقلت الرخاء المادى قرناً كاملاً قبل ظهور آل

« استور » وقرناً ونصف قرن قبل ظهور آل « قندر بلت » . ولا يعقل أن تكون
فُرَصُ الإثراء التي أُتيحت لاستور وقندر بلت ، لم تتح لهم كذلك . فقد كانوا
تجاراً وفلاحين ، وكانوا يعرفون البلاد معرفة دقيقة ، ولكنهم لم يكونوا مندفعين
في تيار الحياة ، فاكثفوا بدخل معين معتدل . والاندفاع إلى التملك ، هو الغريزة
التي تنشئ أصحاب الملايين .

فليس في أسرة روزقلت رجل واحد بلغ القمة بين رجال الفنون ، وليس فيها
رجل واحد كان مجنوناً أو شهيداً . ومع ذلك فليس فيها كذلك رجل أبي أن
ينهض بما كان يعدّه واجباً عليه ، وأن يتعدّى حدود هذا الواجب . وقد انتقضت
مائتان وخمسون سنة على الأسرة — إلى حين ظهور ثيودور روزقلت — وسجلها
خال من إكليل غار أو وصمة عار . كانت أسرة معتدلة ، فيها ذكاء لا يسمو إلى
العبقريّة ، وخيرٌ لا يتشوّف إلى القداسة ، وثقافة تزور عن التبجّح بالعلم ، ونشاط
في العمل لا يكفي لخلق جبابرة الصناعة والمال .

فماذا حدث في هذه الأسرة ، حتى أُنجبت في جيلين متعاقبين رجلين ملأت
أخبارها الدنيا وشغلت الناس ؟ إن العقل يأبى التسليم بتحوّل من هذا القبيل بغير
سبب . فما هو السبب ؟ أو ما هو التفسير المحتمل ؟

إنّ الذهن لينصرف طبعاً إلى الموازنة بين حياة ثيودور روزقلت وفرنكلن دلانو
روزقلت لعلها تكشف عنصراً مشتركاً بينهما ، لا تشاطرهما إياه بقيمة القبيلة . ولا
تطول الموازنة حتى تكشف أن هذا العنصر هو الضعف الصحي . فقد كان ثيودور
مصاباً بالربو في حداثته ، وفرنكلن أصيب بشلل الأطفال في كهولته . وليس ثمة
ريب في أن حياة كل منهما وخلقه وسيرته ، تأثرت بما أصيب به ، تأثراً عميقاً . ولو لم
يكن في دمه عنصر من الصلابة التي لا تلين لمصائب الدهر ، لقضت المصائب عليهما
معاً . فكأن الحديد في تركيبهما كان في حاجة إلى الصهر والسقي ليتحول فولاذاً .

وليس بين رجال القبيلة الروزقلمية ، من تعرض تعرضهما للنار ، ولا من بلغ مبلغهما من المنزلة وذيوع الصيت .

وقد يعترض على هذا الرأي ، بأن فرنكلن روزقلت ، كان قد بلغ منزلة عالية بين رجال السياسة الأميركية ، ودرج الى الكهولة قبل أن أصيب بالشلل . وهذا صحيح . فقد رُشح لوكالة الرئاسة قبل إصابته بالشلل ، ولكن ذلك كان بعد ما أصيب ابن عمه بالربو . وليس ثمة من ينكر أن سيرة ثيودور روزقلت وارتفاع منزلته ودوى اسمه ، كانت من أفعال العوامل في تحويل عناية فرنكلن إلى « الخدمة العامة » — السياسة — واختيارها ميداناً لنشاطه .

ثم هناك ما يدل على أن إعجاب الفتى فرنكلن بثيودور ، كان يشوبه شيء من الكدر ، لأن ثيودور على خلاف الأسرة ، كان من حزب الجمهوريين . أفليس في وسع فرنكلن أن يردّ الميزان ؟ إذن فليخض معمة السياسة في جانب الحزب الديمقراطي .

إن لنمو الشخصية أسراراً لا يحيط بها تفسير مبسط كهذا التفسير . وليس ثمة ريب في أن هناك مائة عامل وعاملاً تفاعلت جميعاً في خلق شخصية ثيودور روزقلت غير عامل المرض في صباه ، وليس ثمة ريب كذلك في أن هناك مائة عامل وعاملاً تفاعلت جميعاً في توجيه فرنكلن روزقلت الى السياسة غير تأثير ابن عمه . ولكن صبا ثيودور المعتل ، كان فعالاً في حياته بلاريب . وحياة ثيودور كانت فعالة في توجيه فرنكلن بلاريب كذلك .

كان جيمز روزقلت والد فرنكلن في الخمسين من عمره عندما تزوج زوجته الثانية « ساره دLANO » والدة فرنكلن . أى أنه كان يدلف الى الشيخوخة ، بينما كان ابنه يدلف الى الشباب . ولكن الدلائل تدل على إدراك الوالد إدراكاً دقيقاً مشكلات الفتى الناشئ ، فاتصفت الصلة بينهما بتفاهم متبادل ورضى شامل . فالوالد هو الذى

فتق لابنه أسرار الطبيعة في الريف ، فتعلم أساليب إدارة المزارع ، واختلاف الفصول ، وظواهر الجو ، ومعجائب النمو . ووالده هو الذي علمه امتطاء الجياد ، وصيد العصافير ، وركوب متن الماء في زورق شراعى . وكان من أثر هذا في نفسه أن شرع وهو في الحادية عشرة من عمره يجمع العصافير بعد تصبيرها بيديه فبلغ عدد أنواعها ثلاثمائة أو تزيد ، وغدا قادراً على التمييز بين جميع أصناف الدواجن على ضفاف نهر الهدسن . فكانت النتيجة المنطقية التي لا مفر منها ، أن الفتى أحب والده واحترمه ، وأجلّ ذكراه ، فتنزّهت حياته عن تلك العقد النفسية التي تلتوى في داخل العقل الباطن كالأفعى ، وتقسم الشخصية بعضها على بعض . فنشأ فرنكلن متزن الخلق كما كان سوى القسمات .

وكانت والدته سيدة قوية الشخصية ولكنها متحلية بالاتزان والفظنة ، فلم يمل تأثيرها العظيم في ابنها إلى التحكم . ومرد اسمه إليها . فقد كانت التقاليد تقضى أن يسمى الفتى « اسحق » (اسم الجد) لأن أخاه من أبيه كان يدعى جيمس (اسم الوالد) .

ولكن ساره دلانو روزقلت كان لها عم تجل ذكراه ، ومات بغير عقب ، فأُسبغت اسمه على وليدها . كان اسم العم ، فرنكلن هيوز دلانو ، وكان مشهوراً بوسامته وكياسته فلم تطق ابنة أخيه أن يزول اسمه ، فدعت ابنها فرنكلن دلانو — روزقلت — لتخليد ذكراه .

كان من حظ الفتى فرنكلن أنه لم يكن ولداً مدللاً . فقد كان والداه يرغبان في أن يتيحاً له كل ما يرغب فيه ، على أن يرعيا في ذلك الفطنة وخير الفتى . فلم يسمحا له بتبذير المال ، ولكنهما كانا يبتاعان له ما يعدانه لازماً لتربيته ورياضته الجسمية والخلقية — جواد صغير ، ودراجة ، وقوس ونبال ، وكرات ومضارب . فلم يكن في حاجة إلى المال . وكانا يسهران على تدريبه على استعمال ما يعطى ، بغير أن يؤذى

أحداً أو يزعج أحداً . وقد وضع له والداه ثلاث قواعد يجرى عليها في حياته : أما الأولى فالرأفة بمن لم تغدق عليهم الطبيعة ولا المجتمع . وأما الثانية فطاب الصحة والعافية في الهواء الطلق . وأما الثالثة فاستيحاء تاريخ وطنه بدلاً من استيحاء الحضارات القديمة وكان لوالد فرنكلن رأى خاص في التربية . فلم يكن مؤمناً بحشو دماغ الفتى بحقائق لا تجديه نفعاً في مستقبل حياته . وكان يذهب إلى أن خير الدروس ما استخرج من التحدث مع الذين اتصفوا بالذكاء والتجريب ، ومن دراسة الحيوانات وأساليب الطبيعة ، لا ما يستخرج من الكتب . وكان والده واسع العلم بالطبيعة والحيوان والنبات ، فلحق الفتى بعض ما يعلم في خلال التجوال في الحقول . وفي أحد الأيام أعطى الوالد ابنه خمسة قروش فهرول الفتى إلى الدكان القريب وأنفقها فيما يطيب له . فلم يعنفه والده . ولكنه أخذه بيده وسار معه إلى الحقل . وأشار إلى السنجاب وكيف يخزن في صيفه ويدخر لشتائه .

أما والدته فلها في تربيته أثران : الوضوح في الإعراب عما يريد . والامتناع عن قبول رأى ما ، مهما يكن صاحب الرأى عظيماً على المنزلة ، إلا إذا فهم كيف بلغ ذلك العظيم هذا الرأى والأركان التي أقامه عليها . وكانت تقول له : « توخ البساطة في الأعراب عما تريد » . « وإذا لم تفهم شيئاً ما فاطلب تفسيره » . « ولا تقل قولاً إلا إذا كنت قادراً على إقامة الدليل عليه » . « وناقش نفسك ولا تحاول أن تقنع أحداً قبل أن تقنع أنت » .

وكما تعمق الباحث في دراسة حداثة فرنكلن ، يتبين خلوها من كل تأثير ، من شأنه أن ينحرف بها عن الميزان السوى . فقد كانت البيئة التي نشأ فيها بيئة رحية رضية . ولكنه لم يؤذن له يوماً ما في أن يظن أنه ملك قادر مستبد بها وأمره لا يرد . فقد كان والداه يلبيان كل طلب معقول يطلبه . فاذا تعدى طلبه حدود المعقول ، قامت سلطة الوالدين حائلاً بينه وبين ما يطلب . ولكن فرض السلطة من ناحيتهما كان

في لين وعطف . فما لبث حتى أدرك أنه عندما يقول والده « لا » فإنه يعنى مايقول .
وتعلم في الوقت نفسه كذلك ، أن وراء قول أبيه سبباً معقولاً . فالرفض لم يكن تحكماً .
فالصلة بين الفتى والوالدين ، كانت صلة احترام ، لاصلة تنكر مكبوت لا يلبث حتى
ينفجر في ثورة تعصف بالجسم أو بالعقل أو بكليهما .

وقد يميل بعض الكتاب إلى القول ، بأن هذا اللون من التربية ، لا ينشئ خلقاً
قوياً . ويشيرون إلى أن العلوم الأولى التي تلقاها الفتى إنما تلقاها على أيدي أساتذة
خصوصيين . وأنه لم ينتظم في فصول المدارس العامة إلا بعدما طبع خلقه بطابع الدلال .
إن فساد هذا القول ليتجلى بمجرد التسليم به . فلنسلم بأن البيئة التي نشأ في أحضانها
تنشئ رجلاً ضعاف العزم . فإذا كان فرنكلن ضعيف العزم ، فماذا نقول في هوثر
ولا ندون وولكي ؟ إن هؤلاء الرجال اصطدموا بفرنكلن روزقلت في ثلاثة
انتخابات عامة ، وفي كل انتخاب كان روزقلت يمسح الأرض بمنافسيه . فإذا كان
روزقلت ضعيف العزم ، فإن الأمة الأميركية مخدوعة في صلابة زعمائها السياسيين .
وإذا كان روزقلت ليناً فإن المقاومة هباء . وهذا لا يعقل . حتى من وجهة نظر التربية
وفلسفتها ليس في وسع أحد أن يقول ، إن فتى يعطى مايصلح له في سخاء وفطنة ،
وتثقف ملكاته العقلية بالدراسة الخاصة والرحلة في حكمة وحزم ، لا بد أن ينشأ مدلاً
خائراً العزم . بل على الضد من ذلك . إن هذا الأسلوب من التربية سيفضي على
الأرجح إلى الاتزان الفكري والعاطفي ، وهي صفة تمكن الزعماء من الاحتفاظ برابطة
الجأش وصدق النظر ، في الشدائد ، وهذه هي الصفة المميزة التي خرج بها فرنكلن دلانو
روزقلت من تربيته الأولى

والرئيس نفسه ، يضيف الى جميع هذه المزايا التي أتاحها له والداه ، نعمة الاجتماع
بأصدقائهما . فجيئز روزقلت وزوجه ساره ، لم يكونا من أرباب رجال الفكر ونسائه ،
ولا من « البوهيميين » في عنايتهم بالفنون وأصحابها ، ولكنهما كانا يعدان بين

أصدقائهما ، رجالاً ونساء من المثقفين المهتمين بشؤون الفكر والفن ، وتطيب لهما دعوتهم والاجتماع بهم والتحدث معهم . وكذلك ألف الفتى منذ حداثة الأولى معارك الرأي والفكر ، لأنه منذ ما استيقظ وعيه الاجتماعى ، كان يشاهد فى دار والديه رجالاً ونساء ، عندهم ما يقولونه فى شتى شؤون الحياة ، ويؤيدونه ببراعة وسعة اطلاع نادرتين . ثم إن والديه ، كانا يرحلان كل سنة الى أوربا ، وفى خلال سنتين منها ألحق بمدرسة فى ألمانيا ، وفى سنتين أخريين صحب أستاذه فى رحلة على الدراجة فى بلدان القارة . فأتاح له هذا كله ، إلماماً واسعاً باللغتين الألمانية والفرنسية ، وتعلم طرائق الأوربيين ومناحي حياتهم وتفكيرهم . فالسنوات التى تنطبع فيها نفس الفتى بما يرى ويسمع فلا يمحو بعد ذلك من صفحاتها ، عرف فيها الفتى روزقلت انجلترا وفرنسا وألمانيا ولغاتها وشعوبها ، فاتسع أفقه ، وعززت فيه ملكة التمييز بين طبائع الشعوب واختلافها . فهو يعلم ، وهو لا يزال فى سن المراهقة ، كيف يميز بين حرية الانكليزى وانتقياد الألمانى الى الواجب أو ما هو فى منزلة الواجب عنده ، انقياداً عسكرياً . وهو لن ينسى ، فيما يلى من مراحل حياته ، أنه قبض عليه مع معلمه إذ كانا يطوفان فى ألمانيا على دراجتين ، لأن الفتى شوهد وهو يقطف كرزاً من شجر متدل على طريق ريفى ، أو لأنه داس أوزة بدراجته ، أو لأنهما أدخلتا دراجتهما الى فناء الحطة أو ما أشبه . وهو لن ينسى كذلك أنه ذهب ، إذ كان فى لندن ، إلى متحف كنسنجتون ، فحبل بينه وبين الدخول لأن البرنس أوف ويلز فى الداخل يزور حبرها ومعرضاتها ، فأخرج الفتى بطاقة تدل على أنه عضو فى « جمعية طيور » بالولايات المتحدة — وكان ثيودور المولع بالطيور قد نفحه بها لتشجيعه — فإذا جميع الأبواب مفتحة أمامه .

على أن هذه النشأة ، كانت من ناحية واحدة ، مرهقة للفتى لأنه لم يختلط بأبناء جيله . ولكنه عند ما أدرك الرابعة عشرة من العمر ، قرّر والداه ، أن التربية الخاصة ،

قد بلغت حدود نفعها ، وأنه لا بدّ من إلحاقه بمدرسة عامة . فاختار له مدرسة جروتون ، وهي مدرسة أبناء الصفوة من الأسر الأميركية ، في ذلك العهد ، على مثال إيتون وهارو في انكلترا .

ليس في سجلّ روزفلت الدراسي ، في جروتون أولاً ، ثم في جامعة هارفرد ، ما يشير إلى أنه كان طالباً المعيّاً . وهذه الحقيقة تُعلّل غير تعليل واحد . فالطالب الذي يكون عادة في الفريق المتوسط من أبناء فصله ، قد تكون قدرته العقلية أضعف من قدرة زملائه في الطبقة العليا . أو قد يساويهم قدرة عقلية ، ولكنه لا يُعنى عناية كافية بالتحصيل . وجميع الدلائل المستخرجة من حياة روزفلت السياسية تدلّ على أنه من النوادر في قدرته على الفكر والعمل . والواقع أن سجلّه في المدرسة والجامعة ، لم يكن سجل طالب المعيّ ؛ لأن الطالب كان منصرفاً إلى أشياء كثيرة ، حالت دون عنايته العناية الوافية ، بما يؤهله للدرجات العليا في التحصيل . فالدراسة الخاصة ، قبل إلحاقه بالمدرسة ، كانت حرمة عشرة أبناء جيله . على أن هذا الحرمان لم يردّه منظوياً على نفسه ، منهزلاً عن الدنيا يبني بالخيال قصوراً في الهواء . بل أيقظ فيه نزعة اجتماعية مستوية — اشتهر فيها فيما يلي من مراحل حياته — فنزع إلى اختيار الأصدقاء كلما أُتيحت له الفرصة . وها هي ذى المدرسة تتيح له فرصة يعوّض فيها ما فات . ففصل الدراسة كان نصف المدرسة في نظره . والنصف الآخر كان قوامه ألوان النشاط المدرسي التي لا تدخل في نطاق المقرّر من الدراسات . هناك تعلم فهم الطبائع البشرية ، ومعالجة أصحابها ، وهذه قدرة ، قلما يجاريه فيها أحد في تاريخ السياسة الأميركية .

ولعل التقاليد الغالبة على أسرة روزفلت كان لها بعض الأثر في سجلّه الدراسي . فإذا كان من العار في نظرهم ، أن يرسل الطالب في دراسته ، فمن قلة الذوق في

نظرهم كذلك ، أن يشأو جميع زملائه في درجاته . ذلك بأن التطرف لم يكن فضيلة في نظرهم ، وخير الأمور الوسط .

ولو خيرُ الفتى ، لما اختار جروتون ولا هارفرد ، ولفضل مدرسة أنابوليس البحرية ، لأنه كان يطمع في أن يكون ضابطاً بحرياً . فقد كان يحبُّ البحر ، ويميل إلى ركوب متنه ، وعزَّز من هذا الحب في نفسه رحلاته المتعددة إلى أوربا ، ومصيف أسرته في جزيرة كامپوبلو ، حيث تلتقى حدود كندا بحدود ولاية ماين الأمريكية ، أى في أقصى شمال الساحل الشرقى للولايات المتحدة .

ولعل اصطياف فرنكلن روزقلت في كامپوبلو كان أبلغ أثراً في تربيته مما يظنُّ أول وهلة . حتى قبل إلحاقه بمدرسة جروتون ، كان والده ، قد أهدى إليه زورقاً شراعياً طوله إحدى وعشرون قدماً ، وهو زورق يمكن الفتى من قطع مسافات متوسطة به ، بغير أن تعصى عليه معالجة أشعرته . وعلى متنه كشف الفتى أسرار المياه الرجراجة في هذه المنطقة في جميع أحوال الجوِّ المتقلبة ، ليلاً ونهاراً . ومن طريف ما يروى عنه ، أنه استطاع وهو وكيل البحرية ، قيادة مدمرة أميركية في مضيق مضطرب المياه في هذه المنطقة ، مع أن ضباطها كانوا مقتنعين بعجز المدمرة عن سلك هذا المضيق .

إن سلك البحر في هذه المنطقة يترك أثراً في خلق البحار قلماً ينسى . هنا تعلم الفتى فرنكلن احترام قواعد الملاحة . فالمياه شديدة البرد ، وعلى الملاح الهاوى أن يسيّر زورقه في حذر وحيلة ، لأن الانقلاب في هذه المياه ليس لعبة هينة ، فبردها كافٍ لتخدير الجسم وقد يفضى إلى علة . وعلى الملاح كذلك أن يسيّر زورقه حيث لا تعرضه الصخور الناشزة كالأنياب لتمزيق قعر الزورق ، فالجنوح خطر كبير . ومياه هذه المنطقة ، قلماً يسودها سكون يصدق فيه قول الشاعر العربى « نسج الريح على الماء زرد » . ولاهى تشور فجأة ومن دون حساب . نعم إن الضباب يغشاها أحياناً والتيارات

البحرية العميقة ، واختلاف المدّ والجزر ، تجعل الملاحة فيها مخوفة بالخطر . ولكن الملاحّ الذى يتعلم حقائق الطبيعة فى هذه المياه ، ويتدرب على قواعد الملاحة واحترامها ، يجتنب الخطر ، وينعم برياضة بدنية وعقلية ما أفعّلها فى تجديد الصحتين جميعاً .

فالفقى الذى يتعلم أن يسيّر زورقه فى هذه المياه ، ينبث فيه احترام عميق لعناصر الطبيعة وقدرتها . وقد كان فرنكلن فقى أحسن تأديبه ، ولكنه لو كان طائشاً أرعن ، لتعلم بعد قليل فى هذه المياه ، أن العالم خاضع لنواميس معيّنة ، وأنه إذا كان يستطيع أن يحمل والديه على إجابة طلب غير معقول ، بالصراخ والعويل والرفس والحرد ، فإن جميع هذه الأساليب لا تجديه نفعاً فى معالجة الريح والمدّ والجزر والضباب وتيّارات الماء . فالزورق يعلمه أن يعمل أعمالاً معيّنة ، فإذا أبى جاءه العقاب ولا رادّ له . ولكن الزورق يعلمه كذلك ، أنه إذا كان الناموس الطبيعى لا يردّ ، فإن العدل غير ممتنع على من يساير الناموس . فهنا قدرة أعظم منه تحتم عليه أن يعمل سلسلة من الأعمال فى نظام معيّن ، ولا مفر من ذلك . فإذا فهم أسرار هذه القدرة ، ودرب نفسه على مجاراتها وجدّها حامية إياه لا متكررة له . فالبحر ليس بذى نزوات ، إنما يبدو كذلك لمن يجهل نواميسه أو ينساها .

ولا ريب فى أن هذا اللون من تربية روزقلت ، هيأه لأسمى ما يطلب منه فى ميدان السياسة فى بلد ديمقراطى . هنا تعلم أنه لا يستطيع أن يغير جميع القواعد ، فلا يمكن أن يكون ثائراً فوضوياً . وأن لمشيئته نصيباً فى توجيه زورق الدولة ، كزورقه الصغير ، ولكن مشيئته ليست المشيئة العليا . وتعلم علاوة على كل هذا ، أن القدرة التى تحطم الجاهل ، هى القدرة التى ترفع الحكيم إلى الذرى . وإذا كان قد تعلم فى زورقه ، احترام النفس والاعتداد بها ، فإنه تعلم كذلك ، أن هناك حدوداً لكل جهد بشرى وأن الطبيعة التى تجزى الحكيم والبارع جزاء عادلاً ، لا تقيم وزناً للنّيّات وحسب .

تعلم الفتى روزقلت قواعد الملاحة فى هذه المياه ، وتشرب فلسفتها الأخلاقية عن غير وعى ، فمال إلى عمل فى الحياة يتصل بالبحر ، فأفضى به هذا إلى أول نزاع وأخطر نزاع قام بينه وبين والده . على أن والده كان أحكم من أن يأبى استجابة رغبة الفتى ويكتفى بذلك . بل حاول إقناعه فأذعن الابن للحجة . ولكن الإذعان لم يكن تاماً . لأنه عند ما نشبت الحرب الأسبانية الأميركية فى السنة التالية ثار فرنكلن على قرار والده ، ودبر مع فتى آخر ، فى جروتون ، خطة للفرار والانضمام إلى الأسطول الأمريكى . ولكنهما أصيبا بالتهاب فى الحلق ، فى اليوم السابق ليوم الفرار ، ففحصهما طبيب المدرسة وأمر بإرسالهما فى الحال إلى المستشفى ، حيث ظهر أن التهاب الحلق ، كان مقدمة للإصابة بالحصبة . وكانت الحرب قصيرة ، فلم يكادا يشفيان حتى كانت الحرب قد انتهت أو أوشكت أن تنتهى ، وبدلاً من أن يشقاً لنفسهما طريق المجد الذى شقّه جون بول جونز^(١) ونلسن ، اضطرّا إلى الاكتفاء بأخذ العقاقير . إن روزقلت يضحك الآن عند ما يذكر هذا الحادث . ولكن تأثيره فى نفسه حينئذٍ ، كان من شأنه إخماد الثورة المضطربة بين جنبيه ، فأخذ إلى السكينة ، وأتم دراسته فى جروتون ، وانتقل بعدها وفقاً للخطة المرسومة له إلى جامعة هارفرد .

وليس هناك ما يشير إلى الباعث الذى حمل الوالد على الحيلولة بين ابنه والأسطول . ولكن الغالب أن قراره كان مستمداً من رغبته فى أن يحافظ ابنه على منزلة الأسرة أكثر مما كان مستمداً من تنكره للأسطول . نعم كان لجيمز روزقلت — الوالد — ولد آخر من زوجه الأولى . ولكن فرنكلن كان ابنه من زوجه الثانية ساره دLANO . وهى سيدة ذات ثروة خاصة بها . فكان فرنكلن أقرب من أخيه من أبيه ، إلى الاحتفاظ بمنزلة الأسرة وإخلاف ذرية . فمقامه فى أسرة جيمز روزقلت كان يختلف عن مقام الابن الأصغر فى معظم الأسر .

(١) بطل بحرى أمريكى .

وعلى كل حال ، سرى حكم الوالد على ولده . وإننا إذ ننظر الآن إلى المنزلة التي أحرزها فرنكلن دلانوروزقلت في الأمة الأمريكية ، وفي العالم ، لنميل إلى القول بأن قرار الوالد هو الذى وجه الفتى توجيهاً أفضى به أخيراً إلى البيت الأبيض . ولولا ذلك ، لكان روزقلت الآن أحد قواد الأسطول الأمريكى على الأرجح ، لا قائده الأعلى بحكم منصبه ، علاوة على قيادة القوات الأمريكية المسلحة الأخرى ، ورئاسة الولايات المتحدة .

قد لا يكون من الحكمة أن نسند عناية روزقلت بالبحر وشغفه بشؤونه ، إلى الزورق الذى أهدها إليه والده . ولكن لا ريب فى أن هذا الزورق حرّك اهتمامه بالبحر ومسائله . ولا ريب كذلك فى أن الدربة البحرية ، التى ظفر بها وهو فتى ، أتاحت له معارف عملية عظيمة القدر ، مكنته فى أثناء ولايته وكالة وزارة البحرية — خلال الحرب الماضية — وفى أثناء الرئاسة ، من توجيه عنايته إلى الأسطول الأمريكى توجيهاً خاصاً . حتى قبل خوضه ميدان السياسة ، كان لرياضته البحرية أثرٌ فى توجيه تفكيره . فاختار خلال الفترة القصيرة التى مارس فيها المحاماة ، التوفر على دراسة القانون البحرى ، فلما عرض عليه منصب فى الحكومة بعد فوز ولسن بالرئاسة سنة ١٩١٢ أبى كل منصب عرض عليه ، إلى أن دعى إلى تقلد منصب وكالة البحرية .

على أن تربية روزقلت البحرية ، لا يقتصر أثرها على ما فعله عند ما كان وكيلاً للبحرية فى رآستى ولسن ، ولا على عنايته بتعزيز الأسطول منذ تقلده الرئاسة فى سنة ١٩٣٣ ؛ بل يشمل توسيع أفق نظره إلى سياسات الدول ، فلا ينحصر بين جدران الولايات المتحدة مهما تكن واسعة . ذلك بأن البحر هو المهييع العظيم لدول الأرض وشعوبها ، ومن يفهم المهييع يفهم المغزى المنطوى فى السفن التى تشق عباب اليم غادية ورائحة ، وكل رجل يشغل منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ،

يبدل كل سعى ، ويتوسل بكل وسيلة جرت بها التقاليد السياسية ، للاطلاع على ما هو حادث في الأمم الأخرى . ولكن معرفة البحار ومسالكها ، والرحلات المتكررة إلى البلدان الأجنبية ، تعينه على إدراك الأغراض التي تتوخاها دولة ما ، إذا أخذت بسياسة جديدة ، فيزن بميزانه الدقيق تأثير تلك السياسة في التجارة الأميركية والدفاع الأميركي . وإكباب روزفلت في شبابه على دراسة التاريخ البحري ، مكنه من أن يسبق كثيرين غيره من الأميركيين ، مع أنهم ليسوا دونه ذكاء وحصافة ، إلى فهم تأثير الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة ، بل في الوسع أن يقال إنه أدرك قبل كثيرين غيره ، تأثير الحرب العالمية الأولى في الولايات المتحدة قبلما خاضت غمارها . يؤيد ذلك رواية رواها روزفلت نفسه لإميل لودفيج عن رغبته في إعداد الأسطول الأميركي للمحتملات الحربية المقبلة ، عند ما كان وكيلاً للرئاسة ، ومعارضة ولسن في ذلك ، لرغبته في احتفاظ الولايات المتحدة بالحياد التام . ولا ريب في أن طائفة كبيرة من الأميركيين أدركت اصطفااف الدول الأوروبية في فريقين متقابلين ، والهوة العميقة بين مبادئ الفلسفة السياسية والاجتماعية التي يستندان إليها . ولكن الرئيس أدرك قبل غيره ، وهو العالم بالتاريخ البحري ، ما يحدثه الاصطدام بين الفريقين من خطر على المواصلات البحرية الأميركية ، أى على حياة أميركا الاقتصادية ودفاعها . ولولا حبه البحر وشغفه بمسائله ، لما صبر على مطالعة مجلدات ضخمة كثيرة في التاريخ البحري ، وهى المطالعة التي أتاح له هذا الفهم الدقيق لشؤون البحر ومسالكه . وحبه البحر يرجع إلى أيام الصبا ، عند ما كانت الملاحة في الزورق الشراعى الذى أهدها إليه والده ، رياضته المفضلة على غيرها من ألوان الرياضة جميعاً .

عندما دخل فرنكلن روزقلت جامعة هارفرد سنة ١٩٠٠ كانت كلمة «بلشفيك» لا تزال مقتصرة على اللغة الروسية . ولو تأخر به الزمن وكان انتظامه في تلك الجامعة في سنة ١٩٢٠ بدلاً من سنة ١٩٠٠ لقليل فيه إنه يمت إلى العناصر البلشفية بصلة في الفكر والشعور . وسبب ذلك أن روزقلت كان من طبقة الأغنياء المميزين ، فكانت أنديتهم مفتحة الأبواب له . وكان علاوة على ذلك شاباً وسيم الطلعة حسن المعشر فازداد الإقبال عليه في هذه الأندية . وقد انتظم في ثمانية منها خلال دراسته . ولكنه كان شاباً صريحاً لا يخفي آراءه ، وكان من الحزب الديمقراطي ، وصفوة الأغنياء من الحزب الجمهوري . وكان يؤيد بريان Bryan ممثل الحزب الديمقراطي ومرشحه للرئاسة ، بينما كان ابن عمه ثيودور روزقلت مرشحاً للوكالة عن الحزب الجمهوري . فإذا لم يكن في كل هذا خروج على الجماعة التي ينتمي إليها ، وعلى تقاليدها فكيف يكون الخروج ؟ ومع ذلك فإنه لم يكتف بما تقدم . ذلك بأنه في السنة الثانية من دخوله الجامعة ، بذل غير يسير من وقته ونشاطه في خدمة الجماعات التي تؤيد البوير في حرب جنوب أفريقية ، مع أنه كان من المفروض حينئذ أن هارفرد كانت بوجه عام منحازة إلى البريطانيين في تلك الحرب . وأخيراً نظم جماعة من الطلاب الذين لا تتفتح أمامهم أبواب الأندية الأرستقراطية في الجامعة ، وقادها في انتخابات الفصل فكان أعضاءها من الظفر في تلك الانتخابات على زملائه الأغنياء . فعند من يومها خائناً لطبقته .

ومما لا ريب فيه ، أن الغالب بين شباب المعاهد الميل إلى التطرف في المذاهب الاجتماعية . ويقابل هذا أن أشد المحافظين محافظة ، هو الطالب المحافظ . فشق على جماعة الشبان المحافظين في فصل روزقلت بهارفرد ، أن يخونهم هذه الخيانة ،

أو ما كان خيانة في نظرهم . ولو كان روزقلت شاذ الأطوار ، لاكتفى إخوانه
ساخرين متهمين بشذوذه ، تفسيراً لأعماله ، ولأهملوا أمره . ولكنه لم يكن شاذاً .
فقد أتم سنى الدراسة الأربع ، في ثلاث سنوات ، ولكنه لم ينفق ليله ونهاره في
التحصيل ، بغية الفوز بالجوائز . بل لم ينتخب عضواً في جماعة « فاي بيتا كاپا »
وهي جماعة المتفوقين ذكاء وعلماً من الطلاب . ولم ينتخب عضواً فيها إلا بعد ما أحرز
منزلة عالية فيما بعد . وكان يمارس ألعاباً شتى ، ولكنه لم يكن من أبطال الرياضة
الذين يشار إليهم بالبنان ، ويعلق بهم أمل معاهدهم في المباريات الرياضية التي تنظم
بين الجامعات . وقد عُيِّن محرراً لصحيفة « كرمزن » ولكن الحملة القوية الوحيدة التي
حملها على مديري الجامعة ، كان موضوعها التنديد بهم لأنهم لم يجهزوا حجر النوم
بسلام الإنقاذ من الحريق . أما فيما عدا ذلك فلم يتدخل في إدارة الجامعة ، مقتنعاً
بقدره الرئيس اليوت على إدارتها . وفي هذه الدعوة إلى تجهيز حجر النوم بسلام
الإنقاذ ، تنبىين رغبة « الخير العام » تستيقظ في ذهنه المتفتح ، وفي مطالبته بإنشاء
سلسلة من المحاضرات في « التاريخ الجارى » والنظم السياسية ، يدعى إلى إلقاءها
الممارسون من رجال السياسة ، نستشف رغبته في استيضاح حقائق العالم الذي يحف به .
ولعل أفضل مثل على أن روزقلت كان يتعلم من تجارب الحياة أكثر مما يتعلم
من الكتب ، حادث حدث له في يوم ماطر . فقد كان معجلاً في طريقه إلى المحطة
في بوسطن ليلحق بقطار إلى نيويورك . فتعثرت العربة في الطريق فقفز منها حاملاً
حقيبته وعدا إلى المحطة ، فاصطدم بصبي كان يعبر الطريق فوق هذا الصبي على
الأرض وهو يصيح ؛ فتجمع الناس من حوله صاخبين ، مع أن الصبي لم يصب
بأذى . وظنّ روزقلت أن خير وسيلة للخلاص من الورطة واللحاق بالقطار إنما هي
بتعويض الصبي ، فعرض عليه ريالاً ؛ فإذا السخط العام ينفجر من الجمهور —
وكانوا من المهاجرين الإيطاليين — ولفظ « الرشوة » يرتفع في الجو . وأخيراً

تمكن روزقلت من العدو إلى القطار وهو يلهث . قال روزقلت بعد ما روى هذه القصة : وسرُّ المشكلة أنني لم أحل المشكلة . جربت أن أداورها بعرض ريال على الصبي ، ولكن ذلك لا يجدي . ولن أجرب أن أداور مشكلة ما بعد الآن .

فالشاب روزقلت ، من أى النواحي أتيت ، كان حينئذ شاباً غير شاذ الأطوار بل سويّاً معتدلاً . فلم يكن فى وسع زملائه المحافظين من طلاب فصله ، أن يفسروا بعض أعماله بالشذوذ ومع ذلك فهو يوالى الديمقراطيين والبوير والعامة من الطلاب !

هنا نستطيع أن نتبين كثيراً من عناصر خلقه وتكوينه العقلى التى تجلت بعد ما خاض ميدان السياسة ، وبلغ المنازل العليا فيه . ففي تأييده البوير نرى نزعة غامضة لتقته الواضحة فى السنوات الأخيرة ، بأن الذين يكافحون فى سبيل حريتهم يكافحون حقيقةً فى سبيل الحرية فى كل مكان . وزعامته للعامة من طلاب الفصل فى الانتخاب تشير إلى ما وصفه فى انتخاب الرأسة الأول من « صداقته للرجل المنسى » وكذلك إلى إدراكه أين مقر السلطة فى الاجتماع البشرى وكيفية تنظيمه . وحملته فى سبيل « سلام الإنقاذ » قد تفسر بأنها إعراب عن نزعة الإنسانية ، ولكنها أقرب إلى كونها إعراباً عن نزعته العملية .

وليس بالمستغرب أن يكون للشبان فى الثامنة عشرة من العمر فلسفة سياسية . ولكن المستغرب أن يكون لواحد من أسرة روزقلت ، ومن الحزب الديمقراطى فلسفة سياسية ، وهو فى الثامنة عشرة . لأنه إذا استثنينا ثيودور روزقلت فالأسرة الروزقلتية لم تشارك مشاركة فعالة فى الحكم . والحزب الديمقراطى نفسه كان قد مضى عليه عشرات السنين وهو لم يل الحكم . ونجاح فرنكلن روزقلت فيما يلي من حياته فى رفع اسم روزقلت والحزب الديمقراطى ، إلى أعلى مقام سياسى ، يشير على الأقل إلى أنه كان فيلسوفاً سياسياً قبل أن يكون له حق الانتخاب .

على أن أبرز مناقبه فى أثناء الدراسة فى هارفرد ، إنما كانت شجاعته الأدبية ،

لأن الخروج على الطبقة التي تنتمى إليها ، وخاصة إذا كانت مميزة بالمال والتقاليد العريقة والجاه العريض وقدم الاتصال بالجامعة أبا عن جد ، من أشق الأمور على فتى غير شاذ الأخلاق والأطوار ، ويقتضى حتماً شجاعة أدبية نادرة ، قلما تلمس فيمن لا يزال في مستهل الثامنة عشرة من حياته .

وكذلك خرج فرنكلن روزفلت من جامعة هارفرد ، في فصل سنة ١٩٠٤ وهو معروف بأنه شابٌ ظريف محبوب متوسط المقدرة ، عليه مسحة من التطرّف الاجتماعي ، وقلما تعرف ما يحتمل أن تكون خطواته المقبلة ، أو قراره التالي .

تخرج في جامعة هارفرد ، وانتظم في كلية الحقوق بجامعة كولومبيا ، وغدا محامياً بغير أن يكون هناك دافع خاصٌّ في حياته إلى هذا الجهد . ويذهب نقاده إلى أن الرجل لم يكن مهياً بطبعه وذهنه ليكون قانونياً عظيماً . والواقع أنه ليس بين مريديه أو منصفيه من يزعم أنه كان عالماً من علماء القانون ، أو محامياً جنائياً عظيماً ، أو مستشاراً قانونياً بلغ أعلى المراتب . وما يعرف عنه الآن يحمل على الظن أنه لو صرف جهده إلى القانون لبلغ إحدى مراتبه العليا . ولكنه في الواقع لم يصرف جهده إلى القانون ، ولا كان في وسعه أن يفعل . ولو كان له شغف بالقانون — والشغف سرٌّ من أسرار الإتيقان — لما انصرف عن القانون إلى السياسة . ومع ذلك لا يسع أحداً أن ينكر أنه في أثناء اشتراكه في مكتب محاماةٍ كبير في نيويورك ، أصاب نجاحاً غير يسير ، وتوفّر على دراسة القانون البحري Admiralty وغدا المتخصص الأول في هذا الفرع من فروع القانون ، بين رجال المكتب .

فلماذا اختار « القانون » ميداناً لنشاطه وعمله ؟ يلوح أن هناك أسباباً متعددة ، ليس بينها سبب واحد قاهر ، ولكنها مجتمعة كانت أقوى من كل سبب آخر يحمله على الاتجاه اتجاهاً آخر .

وفي طليعتها على الغالب إشارة والده . وقد كانت إشارة والده أفعل في نفسه

الآن ، بعد وفاة الوالد منها قبل وفاته . وكأن حكمة الوالد التي تعود احترامها في أثناء حياته ، قد امتزجت الآن بوجوب احترام ذكراه . ولعله فكّر في أن دراسة القانون تؤهله لإدارة الأملاك التي ورثها عن والده ، وأملاك والدته كذلك . ثم إن دخل روزقلت الخاص لم يكن وافراً — ورث عن والده دخلاً سنوياً قدره خمسة آلاف ريال — والمرجح أنه أراد عملاً يمكنه من تعزيز دخله . ولعله أخيراً فكر في أن دراسة القانون طريق من الطرق الكثيرة المفضية إلى الخدمة العامة — السياسة . وبعد كل هذا يغلب على الظن أنه اختار القانون لأنه لم يجد ، في هذه المرحلة من حياته ، عملاً آخر شغفه واستولى على لبه .

فإذا خرج القارئ من كل هذا بأن فرنكلن روزقلت لم يكن شاباً ملحوظ المنزل ، والنشأة ، فالجواب أن أحداً لم يلحظه حينئذ !

في هذه المرحلة من حياته ، وهو لم يكد يتخطى الحادية والعشرين ، اختار فرنكلن شريكته في الحياة ، فكان اختياراً موفقاً غاية التوفيق ، ودليلاً آخر على أنه ليس بالرجل العادي . إن مسر روزقلت تصف نفسها في ما كتبه من ترجمة حياتها فتقول إنها كانت حينئذ فتاة مجردة من مقومات الحسن والشخصية . ولكن هل يعقل أن يكون قولها صادقاً بحذايره ؟ إذ كيف يتسنى لفتاة « مجردة من مقومات الحسن والشخصية » أن تأسر شاباً ، وسيم الطلعة ، عريض الجاه ، محبوباً من زملائه ، وعلى جانب من الغنى ؟ قد يصح أن إليانور روزقلت — وهي نسيبة فرنكلن ، وكان اسمها إليانور روزقلت قبل زواجها — كانت مجردة من مقومات الحسن العادية التي تستوقف أنظار الشبان العاديين . ولكن فرنكلن روزقلت الذي أثبت فيما بعد ، صدق فراسته في طبائع الناس وخلقهم ، لم يمر بها بغير أن يستوقفه فيها شيء غير عادي .

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN WASH



إليانور روزفلت
قرينة الرئيس فرنكلان دلانو روزفلت

كان فرنكلن وإليانور أبناء عمومة من الدرجة السادسة . فنشأت بينهما صلة هي أقرب — على قول مسز روزفلت في ترجمتها « هذه قصتي » — إلى صلة النسب منها إلى صلة الحب والعاطفة . وقد كان بينهما غير وجه واحد من وجوه الشبه في التربية والنشأة . فإليانور ، كفرنكلن ، نشأت وهي إلى الريف أقرب منها إلى المدينة . وقضت مثله جانباً من حداثتها في أوربا . وأُحيط صباحها بغير قليل من العناية بشؤون الفن والدين ، أو التربية الدينية الخلقية .

ومع ذلك فخلقها كان مغايراً لخلقها . وهذا التباين هو مبعث الإبداع في حياة فرنكلن عند ما اندمجت في حياة إليانور . فأحوال صباحها من حين يُتِمَّت من أيها إلى أن يُتِمَّت من والدتها ، إلى أن كفلتها جدتها ، نشأت على استقلال الفكر والشعور ، وصرفت عن المجتمع وملاهيهِ إلى الانطواء على نفسها ، معنية بمسائل الضمير والعدل . فعند ما كانت في إحدى مدارس لندن ، وهي ناهدة ، انصرفت عن المجتمعات إلى مساكن الفقراء لتتبع كيف يعيشون . فاليتمية التي فازت من أقربائها بالشفقة عليها أكثر من فوزها منهم بفهمهم إياها ، صرفت فهمها أو عطفها إلى المحرومين في الحياة . فهي على الضد من فرنكلن لم تسلم بأن إرث أسرة غنية عامل من عوامل البهجة والنضرة في الحياة وحسب . بل كان في طبيعتها شيء يدفعها إلى المحروم ، ويشغلها بهمومه ومشكلاته . وقد قالت هي بنفسها عن هذه الفترة من حياتها : « كنت أنظر إلى كل شيء من ناحية ما يجب على ، لا من ناحية ما يطيّب لي . » أما فرنكلن فكان إلى هذه المرحلة من حياته ، غير معنيٍّ إلا بما « يطيّب له » من الحياة .

ثم اجتمع الرجل والمرأة . ومن الحتم أن تتأثر هي بنشاط زوجها ، فيتحول التفكير والتأمل فيها إلى عون فعال ، ويتأثر هو باتجاهاتها الروحية والفكرية ، فيتسع أفق نظره الاجتماعي ويعمق ، فينظر إلى ما حوله نظر الفاحص النقاد . ولولا تهيوها

كلاهما لهذا التحوُّل ، لما أجدى هذا الاجتماع . ولكن الطبيعة تعدُّ أبناءها لخدمتها بطريقتها الخاصة .

وإذا كانت سياسة روزفلت الاجتماعية والاقتصادية ، عند ما كان حاكماً لولاية نيويورك (١٩٢٨ — ١٩٣٢) ثم بعد تقلُّده زمام الرأسة في واشنطن ، قد جعلت فريقاً من الأميركيين ، وبخاصة من أبناء الطبقة التي ينتمى إليها ، يمتقونه أشدَّ مقت ، فإن تنكُّرهم وتنكُّر غيرهم لزوجهم ، ومقتهم إياها لم يكن دون مقتهم إياه . وقد هوجمت في الصحافة والمجتمع بعنف لا يقابله عنف آخر في التاريخ الأميركي ، إلا أن يكون عنف الهجوم على مسز أندرو جاكسون في سنة ١٨٢٨ . ومع ذلك فإن مسز روزفلت لا تشعر كإزاء هذا الاستنكار القوي بالإشفاق عليها لأن ما وُجِّهَ إليها من نقد ، يهدم في تطرُّفه وتهوُّره بعضه بعضاً ، وثانياً لأنها في الحديث والجدال تستطيع أن تبارى كائناً من كان ، ففي وسعها أن تردَّ عن نفسها إذا شاءت . إن العطف الذي يخالج أحداً في مثل هذه الحالة ، إنما هو على المهاجم لا على المهاجم . فكان فتى معتدداً بنفسه احتسى حتى ثمل ثم وجَّه إلى ملاكم جبَّار ضربة قوية . فعطفك حينئذ لا يلزم الملاكم ، ولكن يلزم الفتى المعتدى !

وبواعث الهجوم عليها مردُّها على الأكثر إلى أنها كانت ذات أثر فعال في توجيه سيرة زوجها ، بأساليب غير مألوفة وخارجة على التقاليد ، يعجز غيرها عن تطبيقها وإصابة النجاح في تطبيقها . وما كاد الرئيس يدخل البيت الأبيض ، حتى قال مصطنعو الحكمة الاجتماعية والسياسية من خصومه : إن مضيَّ إليانور روزفلت في الإعراب عن رأيها السياسي ، ومواصلة نشاطها السياسي والاجتماعي على طريقها الخاصة ، لا بدَّ أن يفضي إلى الإضرار بمنزلة زوجها السياسية ومقامه الرسمي . فلما مضت في طريقها الخاص ، بغير أن تتحقق النتائج التي قالوا بها ، شعروا بمرارة من يُطعن في صواب رأيه وصدق نظره . وهذا مما لا يغتفر . ومن

المشهور في العاصمة الأميركية ، أن هذا الشعور ، حمل غير معتدل واحد من الناس على التطرف في الطعن عليها إلى حدود الحق .

ولكن روزقلت عندما اختارها شريكة لحياته ، لم يكن يعلم ما يخبؤه المستقبل له في خلق هذه السيدة الممتازة . وقد عُقد قرانهما في ١٧ مارس ١٩٠٥ . ومن مزايا حفلة القران ، أن عم العروس ، كان ثيودور روزقلت رئيس الولايات المتحدة . فجاء نيو يورك خاصة لحضورها ، ودخلت هي الحفلة متكئة على ذراعه ، لأنها كانت يتيمة الأب ، فكانت الحفلة بوجه عام ، من أهم الحوادث الاجتماعية في نيو يورك ، ولكن رئيس الولايات المتحدة ، كان بطلها لا العريس .

وقد قال أحد أولاد ثيودور روزقلت في والده : « إذا ذهب إلى عرس أراد أن يكون العروس ، وإذا ذهب إلى مأتم أراد أن يكون الجثة » . وهذا القول فيه مبالغة وحذقة ، لا ريب في ذلك . ولكن ثيودور روزقلت ، كان يستوقف الأنظار حيث يكون . وكان في سنة ١٩٠٥ ، إذا حضر عرساً أو مأتماً ، حرياً باسترعاء الاهتمام والعناية ، أكثر مما يسترعيهما العروس والعريس في الأول أو الجثة في الثاني .

ولذلك لا يبعد عن الظن أن فرنكلن وإليانور ، أدركا يوم زواجهما هذا ، أن لرئيس الولايات المتحدة مقاماً عظيماً حقاً !

كان اليوت روزقلت والد إليانور ، شقيق ثيودور روزقلت . وثيودور روزقلت كان من غير ناحية واحدة ، المثال الذي احتذاه فرنكلن روزقلت في شبابه ، واستمدَّ من حياته وحيه ، لأنه على رغم كونهما ينتميان إلى حزبين سياسيين مختلفين ، كانت أركان نظرتهم السياسية والاجتماعية واحدة .

كان ثيودور مكافئاً بطبعه . أما فرنكلن فكافح ، دون ثيودور ميلاً إلى المحاصمة ، وأعد منه في النضال . تغلب ثيودور على علته البدنية في صباه ،

وفرنكلن تغلب عليها بعض التغلب ، وهو يدرج إلى الكهولة . كانت حياة ثيودور السياسية نضالاً مستمرًا ضدّ الارتكاب والفساد في السياسة ، وأصحاب المصالح المالية الكبيرة في الدولة . أما فرنكلن فقد وقف حياته على النضال نفسه . وكان كلاهما غير هيّاب أن يجرب ولو أخطأ ، أساليب جديدة ، وتجارب اجتماعية وسياسية خارجة على الطريق المطروق في سبيل الغرض الذي يتوخاه . وقد قال ثيودور في ذلك : لو لم أكن مستعداً أن أخطئ لما تمكنت من إنجاز شيء يذكّر . وقال فرنكلن : لم أخش في حياتي أن أخطئ . وفي رسالته إلى الكونغرس سنة ١٩٣٣ قال فرنكلن : « وإني لأصارعكم بأن هذا طريق غير مطروق . . . فإذا لم يفض إلى النتائج المرجوة ، كنت أول معترفٍ بذلك ثم أبلغكم » . أما ثيودور فسبق له في معركة الانتخاب سنة ١٩١٢ إلى مثل هذا المعنى فقال : « لا يجوز أن تقف هذه الأمة جامدة في مكانها ، لكون الطريق أمامنا غير مطروق » . وإذا سعى الباحث إلى تبين الفارق بين نظرة ثيودور وفرنكلن قال إن ثيودور كان يستمدّ وحيه من التاريخ ، وأما فرنكلن فأجراً في صنع التاريخ بدلاً من استيحائه . وقد اجتمع كلاهما على الإيمان بأميركا ومصيرها بين الأمم . ولكن ثيودور كان الوطنيّ المندفع الذي يريد أمته أن تكون « الدولة القوية صاحبة الهراوة الكبيرة » . بينما فرنكلن يريد أن تكون « الجار الطيب » الذي يتعاون مع سائر الأمم ، في عالم يسوده السلام .

بين سنة ١٩٠٥ و ١٩١٠ أنجز فرنكلن جانباً كبيراً من دراسته الحقوقية في جامعة كولومبيا بغير أن يحرز درجة بكالوريوس في القانون وانضم شريكاً في مكتب المحامين كارتر لديارد وملبورن ، في مدينة نيويورك ، حيث عهد إليه في نظر القضايا الخاصة بالمجلس البلدي ، ثم توفّر على دراسة القانون البحري Admiralty Law . وكان يعالج القضايا التي تقسم له بكفاءة أطلقت لسان شركائه

بالثناء عليه . ولكنه لم يظهر في إحداها في مظهر عبقرى قانونى .
كان بيته في مدينة نيويورك ، ولكنه كان يحس بغبطة خاصة في نهاية الأسبوع ،
عند ما يغادر المدينة إلى منزله الريفي في هيدبارك المشرف على وادى نهر الهدسن
في أعلى ولاية نيويورك ، حيث بدأ يتصل بجيرانه ، فتطوع في فرقة المطافئ المحلية ،
وعين عضواً في مجلس إدارة البنك الأهلى الأول ، في بوكبسى ، وبدأ يدرك رويداً
رويداً ، أن الناس وأطوارهم وأخلاقهم والاتصال بهم ، أجمع لعنايته من الوثائق
القانونية وإعداد المرافعات . وكأن القدر كان يسيره ، رويداً رويداً ، وعلى غير وعى
منه ، على الأكثر ، من حياة إلى أخرى . ففي الحياة الأولى كان يعمل ما عليه
بدون شغف به ، أو اندفاع فيه . فكان الشاب روزقلت ، المحبوب الكيس ، من
الطبقة الثانية بين الشباب المرتجى . وأما الثانية فكانها مست في قلبه وتراً حساساً
لم يمس من قبل ، أو نفضت رماداً عن جمر خامد ، فإذا نحن أمام روزقلت آخر .

4 4 2 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12
 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32
 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52
 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72
 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92
 93 94 95 96 97 98 99 100 101 102 103 104 105 106 107 108 109 110 111 112
 113 114 115 116 117 118 119 120 121 122 123 124 125 126 127 128 129 130 131 132
 133 134 135 136 137 138 139 140 141 142 143 144 145 146 147 148 149 150 151 152
 153 154 155 156 157 158 159 160 161 162 163 164 165 166 167 168 169 170 171 172
 173 174 175 176 177 178 179 180 181 182 183 184 185 186 187 188 189 190 191 192
 193 194 195 196 197 198 199 200 201 202 203 204 205 206 207 208 209 210 211 212
 213 214 215 216 217 218 219 220 221 222 223 224 225 226 227 228 229 230 231 232
 233 234 235 236 237 238 239 240 241 242 243 244 245 246 247 248 249 250 251 252
 253 254 255 256 257 258 259 260 261 262 263 264 265 266 267 268 269 270 271 272
 273 274 275 276 277 278 279 280 281 282 283 284 285 286 287 288 289 290 291 292
 293 294 295 296 297 298 299 300 301 302 303 304 305 306 307 308 309 310 311 312
 313 314 315 316 317 318 319 320 321 322 323 324 325 326 327 328 329 330 331 332
 333 334 335 336 337 338 339 340 341 342 343 344 345 346 347 348 349 350 351 352
 353 354 355 356 357 358 359 360 361 362 363 364 365 366 367 368 369 370 371 372
 373 374 375 376 377 378 379 380 381 382 383 384 385 386 387 388 389 390 391 392
 393 394 395 396 397 398 399 400 401 402 403 404 405 406 407 408 409 410 411 412
 413 414 415 416 417 418 419 420 421 422 423 424 425 426 427 428 429 430 431 432
 433 434 435 436 437 438 439 440 441 442 443 444 445 446 447 448 449 450 451 452
 453 454 455 456 457 458 459 460 461 462 463 464 465 466 467 468 469 470 471 472
 473 474 475 476 477 478 479 480 481 482 483 484 485 486 487 488 489 490 491 492
 493 494 495 496 497 498 499 500 501 502 503 504 505 506 507 508 509 510 511 512
 513 514 515 516 517 518 519 520 521 522 523 524 525 526 527 528 529 530 531 532
 533 534 535 536 537 538 539 540 541 542 543 544 545 546 547 548 549 550 551 552
 553 554 555 556 557 558 559 560 561 562 563 564 565 566 567 568 569 570 571 572
 573 574 575 576 577 578 579 580 581 582 583 584 585 586 587 588 589 590 591 592
 593 594 595 596 597 598 599 600 601 602 603 604 605 606 607 608 609 610 611 612
 613 614 615 616 617 618 619 620 621 622 623 624 625 626 627 628 629 630 631 632
 633 634 635 636 637 638 639 640 641 642 643 644 645 646 647 648 649 650 651 652
 653 654 655 656 657 658 659 660 661 662 663 664 665 666 667 668 669 670 671 672
 673 674 675 676 677 678 679 680 681 682 683 684 685 686 687 688 689 690 691 692
 693 694 695 696 697 698 699 700 701 702 703 704 705 706 707 708 709 710 711 712
 713 714 715 716 717 718 719 720 721 722 723 724 725 726 727 728 729 730 731 732
 733 734 735 736 737 738 739 740 741 742 743 744 745 746 747 748 749 750 751 752
 753 754 755 756 757 758 759 760 761 762 763 764 765 766 767 768 769 770 771 772
 773 774 775 776 777 778 779 780 781 782 783 784 785 786 787 788 789 790 791 792
 793 794 795 796 797 798 799 800 801 802 803 804 805 806 807 808 809 810 811 812
 813 814 815 816 817 818 819 820 821 822 823 824 825 826 827 828 829 830 831 832
 833 834 835 836 837 838 839 840 841 842 843 844 845 846 847 848 849 850 851 852
 853 854 855 856 857 858 859 860 861 862 863 864 865 866 867 868 869 870 871 872
 873 874 875 876 877 878 879 880 881 882 883 884 885 886 887 888 889 890 891 892
 893 894 895 896 897 898 899 900 901 902 903 904 905 906 907 908 909 910 911 912
 913 914 915 916 917 918 919 920 921 922 923 924 925 926 927 928 929 930 931 932
 933 934 935 936 937 938 939 940 941 942 943 944 945 946 947 948 949 950 951 952
 953 954 955 956 957 958 959 960 961 962 963 964 965 966 967 968 969 970 971 972
 973 974 975 976 977 978 979 980 981 982 983 984 985 986 987 988 989 990 991 992
 993 994 995 996 997 998 9

الفصل الثاني

من آلبني الى واشنطن

- ١ - سياسى مطبوع
- ٢ - النضال السياسى الأول
- ٣ - مع ولسن الى واشنطن
- ٤ - الحرب والأسطول
- ٥ - المدار : عصبة الأمم

من حق كل أميركي مولود في الولايات المتحدة الأميركية ، أن ينتخب للرئاسة ، فالذين يصبون إليها لا يحدون ، وعدد الذين بلغوها حتى الآن خلال مائة وستين عاما أو تزيد ، لا يربى على اثنين وثلاثين . ودراسة تراجم الذين بلغوا منصب الرئاسة ، تدل على أن التمرس بتبعات الحكم في إحدى الولايات الثماني والأربعين ، من الصفات التي تؤهل الطامحين إلى الترشيح عن أحد الحزبين الكبيرين ، فالانتخاب .

والحكم في الولايات المتحدة الأميركية ، نوعان : نوع مقره في واشنطن العاصمة ، ونوع مقره في عواصم الولايات الثماني والأربعين ، ذلك بأن الولايات المتحدة الأميركية دولة اتحادية (فدرالية) . فلحكومة الاتحاد ، بحسب نصوص الدستور ، شؤون تهيمن عليها ، كالل دفاع والسياسة الخارجية (ونطاق هذه الشؤون آخذ في الاتساع) ، ولحكومات الولايات شؤون تهيمن عليها ، ولا تجيز لحكومة الاتحاد التعرض لها إلا إذا عدل الدستور تعديلاً تنقل بمقتضاه طائفة منها ، من نطاق هيمنة الولايات إلى نطاق هيمنة الاتحاد ، أو إذا أقر الكونغرس الاتحادى في واشنطن قانوناً يحدد هذا النقل بمقتضاه ، وفسرت المحكمة العليا هذا القانون تفسيراً يقر أنه غير مخالف لنصوص الدستور أو لروحه . فإذا حكمت المحكمة العليا بأن القانون مخالف للدستور سقط فعله .

وفرنكلن دالانوروزقلت ، تمارس بالأعمال والتبعات الإدارية والسياسية ، في

ولاية نيويورك ، عضواً في مجلس شيوخها أولاً ، ثم حاكماً لها قبيل انتخابه للرئاسة ،
وتمرس بها كذلك في الحكومة الاتحادية وكيلاً للبحرية ، في أثناء رئاستي ولسن
قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها .

وكل ولاية من الولايات لها حاكم يختار بالانتخاب العام ، فهو رئيس حكومتها ،
في نطاق الحقوق التي يبيحها الدستور لهذه الحكومات ، ولها مجلسان نيابيان ،
أحدهما مجلس شيوخ ، والآخر مجلس نواب .

وفي مجلس شيوخ ولاية نيويورك بدأ فرنكلن روزفلت حياته السياسية ، إذ
كان في الثامنة والعشرين من عمره .

كان في ذلك سنة ١٩١٠ ، وكان مقعد الشيخ الممثل للدائرة السادسة والعشرين
خالياً ، والانتخاب فيها وشيكاً ، وكانت هذه الدائرة معقلاً من معاقل الحزب
الجمهوري ، لم تنتخب مرشحاً ديمقراطياً لتمثيلها بين سنة ١٨٥٦ و١٩١٠ ، فرأى محافظ
بلدة بوكبسي ، وهو من أقطاب الديمقراطيين في هذه الدائرة ، أن يعرض على سائر
الأقطاب الديمقراطيين خاطراً ألعياً خطرله ، وهو أن يجعل الشاب فرنكلن
روزفلت ضحية على مذبح الحزب الديمقراطي ، بترشيحه عن الحزب لمجلس الشيوخ
في هذه الدائرة .

إن هذا المحافظ لم يعترف طبعاً بأن هذا الباعث الخسيس هو الذي حمله على
السعي لترشيح روزفلت ، بل هو يقول إن عينه النقادة ، وبصيرته النافذة ، تبينت
العبقرية السياسية المنطوية وراء مظهر روزفلت الوجيه ، وأنه عند ماعرض الترشيح
عليه ، كان يعلم أنه إنما يمهّد الطريق لسيرة سياسية من أعجب السير السياسية في
الولايات المتحدة الأميركية .

ليس في السياسية شيء مستحيل ، ولعل تفسير المحافظ « سايج » صحيح ،
ولكنه على قول الكتاب السياسيين الأميركيين ليس مرجحاً ، ولو كان الفوز

في هذه الدائرة ، لمرشح ديمقراطي ، محتملاً لكثير الزحام عليه . والواقع أن أحد أقطاب الحزب في الولاية — وهو رجل رشح مرة لمنصب الحاكم — أبقى قبول الترشيح عن هذه الدائرة لمجلس الشيوخ ، لأنه كان ضامناً — تقريباً — انتخابه نائباً في جزء منها ، وغير ضامن انتخابه عضواً في مجلس الشيوخ فيها . وكان معروفاً في دوائر الديمقراطيين أن نجاح ديمقراطي في هذه الدائرة غير محتمل ، ولكن الترشيح ضروري من وجهة نظر الحزب ، ويفضل أن يكون المرشح رجلاً وجيهاً ، لكي يسبغ على سائر المرشحين الديمقراطيين في الدوائر الأخرى ظلاً من منزلته ووجاهته . وخلاصة القول إن الحزب كان يرى التضحية بوجيه في هذه الدائرة ، لكي يستمد الحزب من اسمه تأييداً للمرشحين الآخرين . ومن هنا ندرك أن زعم المحافظ سايج عن رغبته في ترشيح روزقلت للشيوخ عن هذه الدائرة ، ممكن ولكنه ليس مرجحاً .

وكان المحافظ «سايج» يرى أن الشاب فرنكلن روزقلت تتوافر فيه جميع الشروط اللازمة في نظر الحزب للمرشح عن هذه الدائرة . فهو في مقتبل الشباب ، جمّ النشاط ، وسيم الطلعة ، حسن البزّة ، متحدر من أسرة وجيهة ، ما فتئت مقيمة على ولائها للحزب الديمقراطي منذ أجيال . وإنصافاً لسايج وزملائه من أقطاب الحزب ، لا بدّ من الاعتراف بأنهم توسّموا فيه المقدرة السياسية ، ولكن مما يداخله الريب أنهم أدركوا حينئذ أن بين أيديهم رجلاً سيكون من أعجب وأقدر رجال السياسة في جيله . ومن المحتمل أنهم اختاروه لأنهم ظنّوه عجيبة ليّنة مطواعاً ، لا لأنهم تبينوا فيه عبقرية سياسية . وليس في ذلك لوم عليهم . فغيرهم أخطأ في تقدير روزقلت ، حتى بعد ما ظهرت بعض آيات عبقريته السياسية . ولسنا نعلم على وجه دقيق ما الباعث الحقيقي الذي حمل فرنكلن روزقلت على ركوب هذا المركب الخشن . إنه أي روزقلت ، يشير إلى الباعث الأمريكي — وهو النهوض بالواجب وإسداء خدمة

عامة . ولكن نشأة روزقلت قبل هذا العهد ، وخلقه المتجلى بعده ، يحملان على الظن أن وراء لفظي « الواجب » و « الخدمة » كان يستتر عاملان قويان ، وباعثان أصيلان في طبعه . أما الأول فإنه وجد في السياسة ، كما كان يجد في الألعاب والرياضات الكثيرة التي مارسها مجالاً لملكات المنافسة والمفاضلة ومقارعة الأقران . ثم وجد فيها فرصة متاحة لمقابلة الناس والتعرف إليهم والتحدث معهم ، وهي صفة غالبية على الخلق الأميركي . وأما العامل الثاني ، فكان التأثير بسيرة ثيودور روزقلت . فقد بدأ ثيودور حياته السياسية عضواً في الهيئة النيابية في عاصمة نيويورك ، ثم تقلب في المناصب السياسية ، بين وكيل البحرية ، وحاكم ولاية نيويورك ، ووكيل الرئاسة الأميركية ، ثم خلفاً للرئيس المغتال ، رئيساً منتخباً . وكان ثيودور في خلال حياته السياسية كلها قد ضرب على وتر حساس في نفس فرنكلن ، وهو مناهضة أصحاب الامتياز في الحياة الأميركية الذين يرجع امتيازهم إلى تكديس الثروة وقوة الشركات الكبيرة التي أنشأوها . وإذا كان روزقلت الكبير لم يصب نجاحاً كبيراً في الضرب على أيدي « أصحاب الامتياز » فلا يستبعد أن يقوم هذا الإخفاق باعثاً قويا في نفس روزقلت الصغير ، يبعثه على مجاراة سلفه وشأوه .

وما قبل روزقلت هذا الترشيح ، وعرف قبوله ، حتى اعترض عليه زميله كارتر في مكتب المحاماة بنيويورك ، وحاول أن يثنيه عنه لأنه لم يستطع أن يفهم كيف يقدم شاب كروزقلت على إهمال عمل مضمون الدخل ، يبشر بإقبال دنيوى غير يسير ، ليخوض معمعة السياسة . ولكن روزقلت لم ينثن . وكأن الشغف الذي كان يعوزه في الدراسة أو في المحاماة ، تجلى في الحياة السياسية ، فإذا روزقلت المرشح للشيوخ عن هذه الدائرة ، رجل جديد لم يعهد من قبل . ففي هذا الميدان الجديد عزم روزقلت عزماً قاطعاً أن يكون في الطليعة ، أو لا يكون شيئاً مذكوراً .

وكل ما كان زعماء الحزب يتوقعونه منه ، أن يخوض معركة الانتخاب ، وفقاً

للتقاليد المحترمة المرعية ، وأن يتقبل الخذلان فيها ، في كياسة وظرف . ولكنه بدلاً من ذلك أقبل على المعركة كالعاصفة ، وهاجم معاقل الخصوم في الدائرة ، معقلاً معقلاً ، لم تفتر له همّة ليلاً أو نهاراً ، فكانه كان مسوقاً بقدرته خارجة عنه ، إذ ليس فيما سبق من حياته دليل واحد على أن فرنكلن روزفلت بذل من الجهد في عمل ما ، ما بذله في معركة الانتخاب ، وما كان شيء ما يرضيه دون الظفر . وكان مدار دعوته توفير الخير لعامة الناس ضد أصحاب الامتياز والمتحكمين السياسيين والماليين ، وأن قوة الدولة والولاية ، إنما ترتدّ إلى الجماعات المحلية وقوّتها . فابن الريف لا يخطئ في تحديد منزلة الريف وتعريف شأنه وفضائل أهله في الدولة الحديثة ، حتى وهو في الثامنة والعشرين . وكان مما شحذ عزمه في هذه الحملة أن منافسه فيها ، كان خصماً شخصياً لبطل حادثته « ثيودور » .

وكانت أساليبه خاصةً به ، لم يوافق عليها غير واحد من مخضرمي السياسة . فالتقاليد المتبعة كانت تقضى بأن يكتب المرشح لمجلس الشيوخ في ولاية نيويورك بإلقاء بضع خطب مهيّأة في المدن الرئيسية في دائرة الانتخاب . وإذا شاء أن يغزو المناطق الريفية فيها فعليه أن يذهب إليها مصطحباً التواضع ، ليشعر الناس بأنه واحد منهم . فإذا ذهب إليها في عربة يجرّها جوادان عدّ ذلك تظاهراً في غير محله . فعليه أن يكتب بمركبة نقل تجرّها فرس رمادية عجوز .

ولكن روزفلت بدا في هذه المعركة ، في مظهر ، تجلّى فيما تلا من أدوار حياته السياسية ، أي خروجه على التقاليد المرعية . فطوّف في الدائرة في سيارة . وقد يشقّ علينا اليوم ، وقد أصبحت السيارة مألوفاً ولا غنى عنها على الغالب ، أن نتصور الجراة التي ينطوى عليها إقدامه هذا على المناخبة بسيارة . ففي سنة ١٩١٠ كانت السيارات غير قليلة في المدن الأميركية . ولكنها كانت نادرة في مناطق الريف . حتى في ريف ولاية نيويورك الذي لا يبعد عن تلك الحاضرة العظيمة أكثر من مائة ميل . وما

كان روزقلت ، حينئذٍ ، يملك سياراً ، ولكنه اتفق مع رجل على تنقيله بسيارته لقاء أجر معين

وما كاد خبر السيارة ينتشر حتى بدأ رجال السياسة يندرونه بسوء العاقبة . ففريق منهم توقع انفجارها ، وفريق ذهب إلى أن مشهدها سيخرج شعور الفلاحين والقرويين ، حتى إذا عُدَّت الأصوات يوم الانتخاب ، ثبت أن روزقلت عجز عن الفوز بصوت واحدٍ من أصوات الناخبين في المناطق الريفية . ولكن كلا الفريقين أخطأ . فالسيارة مضت في طريقها على عتقها ، ووعورة الطرق في تلك الأيام . ولعلَّ الفضل في ذلك يعود إلى صاحبها وبراعته في سَوِّقها وتعهُّدها . فإذا صحَّ ذلك فإنه يعود جانب كبير من الفضل في أن فرنكلن روزقلت كان في البيت الأبيض في أثناء فترة من أقم ما واجهته الولايات المتحدة — والعالم — في التاريخ الحديث .

وكانت السيارة تقف أمام كل مدرسة قروية ، أو عند كل مفترق طريق ، حيث يستطيع المرشح أن يسترعى أسماع خمسة أو ستة من الناس . وكان روزقلت يحدِّثهم أو يخطب فيهم . وما كان يتنكب الحديث مع فلاح فرد ، في حقله النائي ، بينما صاحبه يرمم السيارة أو يصلح عطلاً فيها . وكان هذا جديداً في هذه الدائرة ، إذ لم يُعرف فيها قبلاً أن مرشحاً ما عُنِيَ بالناخبين في الأرياف عناية روزقلت بهم . ولم يسبق أن ظهر للناخبين مرشح ما في مثل المظهر الذي طلع فيه روزقلت عليهم . إن شعورهم لم يجرح كما زعم بعض المشتغلين بالسياسة . ولعلمهم على الضدِّ من ذلك أحسُّوا بشيء من المباهاة ، أن شاباً موسراً من أنسباء الرئيس ثيودور العظيم ، يعنى بهم هذه العناية ويخصهم بهذا الاهتمام . وعلى كل حال أقبل فريق كبير منهم على الاقتراع له ، فلما أُحصيت الأصوات ظهر أن روزقلت فاز بالأكثرية وكانت ١١٤٠ صوتاً . فاتفق الخبراء السياسيون عند ما كذَّبت الحوادث أقوالهم ، وأخلفت الحقائق ظنونهم ، أن عجيبةً حدثت ، وأن سرَّ هذه العجيبة هو عظم تأييد الناخبين الريفيين للمرشح روزقلت .

ومع ما تخلل حملة الانتخاب من الأعيب السياسية الممثلة في الأعلام المرفوعة ،
والسرادات المنصوبة ، والجماعات المتظاهرة بالمشاعل ، لم يفتَهُ ما ينطوى فيها من مغزى
اجتماعى أخلاقى عظيم . أو على الأقل لم يفتَهُ هذا المغزى عند ما كتب عن حملته
الانتخابية الأولى بعد انقضاء عشرين سنة عليها ، فقال : « عند ما بسطت وجوه
الجور (الاجتماعى) أحرزت أكثرية . . . فأننا الآن فى حلبة السياسة ، أنا الآن
سياسى . والأزمة الخطيرة التى يجتازها رجل مشغول بالسياسة ، إنما هى لحظة انتصاره
الأول . فعمله إلى تلك اللحظة قائم على النظريات . أما الآن فعليه أن يعمل . . .
وقد وجدتُ نفسى منصرفاً إلى الاهتمام بتفصيلات الحكومة والحكم ، ومع أننى
كنت قد اضطلعت بدراسة مشكلاتهما ، دراسة نظرية ، وجدتُها أجمع لعنايتى الآن ،
لأنها مجسمة تجسماً عملياً ، ولأنها مطبقة على حياة الناس » .

فى هذه العبارة أربعة الفاظ — الجور ، والعمل ، والناس ، والعمل — وهى
ألفاظ تسود حياة روزقلت السياسية جميعاً ، كيف قلبت النظر فيها من مرحلتها الأولى
إلى الآن . فهو رجل يريد أن يزيل جوراً رآه بنفسه ، فهو لذلك يريد أن يعمل ،
وأن يعمل عملاً إنسانياً .

فى سنة ١٩١٠ إذ كان فرنكلن روزقلت فى الثامنة والعشرين من عمره ، وبعدهما فاز
فى انتخاب لم يقدر له إلا الخذلان فيه ، بدأت تتجلى الناحية العامة فى خلقه . ذلك بأن
لكل رجل ممتاز ناحيتين من الخلق ، الناحية الخاصة والناحية العامة . وقد تندمج
الواحدة فى الأخرى ، ولكن هذا الاندماج قلماً يكون تاماً . وقد تكون الناحية الخاصة
خالية مما يستوقف نظر المترجم فيهملها ، أو على الضد من ذلك ، فقد تكون حافلة
بالخطوط الدقيقة التى تتجسم بعدئذ فى الناحية العامة مزايًا بارزة . وفرنكلن روزقلت

يقع بين بين . فمن المرغوب فيه ، أن يعرف شيء عن حياته الخاصة لفهم حياته العامة . ومن المرجح أن هذه المعرفة لا غنى عنها . ولكن من يتتبع سيرة روزقلت تتبعاً دقيقاً لا يساوره شكٌ ما ، في تلك المرحلة من حياته ، عند ما بدأت ناحيتها العامة تغطي على الناحية الخاصة ، وتفرغ في القالب الأخاذ الذي فُرض على جيل روزقلت من الأميركيين أولاً ، ثم على عناية العالم قاطبة .

ففي صيف سنة ١٩١٠ بدأ روزقلت — لأول مرة في حياته — يكب على عمل ما يستأثر بعنايته حقاً . كان قبل ذلك ، في كل مرحلة من مراحل حياته السابقة ، سواء أفي المدرسة كان أم في الجامعة أم في مكتب المحاماة ، ينتجز ما يطلب منه لا أكثر ولا أقل . ولكنه في اللحظة التي بدأ فيها حملته الانتخابية ، بدأ يعمل كأنه عبد مسوق ، غير عابئ بالحر أو البرد ، وغير مبال بالمطر أو الغبار ، وغير مُلقٍ بعناية ما إلى الجهد والإعياء . نسي كل شيء وأهمل كل شيء ، إلا عزمه القاطع على إنجاز العمل على أتم ما يستطيع .

كان خُلُق روزقلت من ناحيته الخاصة قد تكون ، في بيته وفي المعاهد التي تربى فيها . هنا الصديق والزوج والوالد . ولكن الملايين من الناس الذين وضعوا مقدراتهم في يديه ، يهتمهم من خلقه تلك الناحية التي بدأت تبرز للعيان في صيف سنة ١٩١٠ . ومن العبث أن يزعم أحد أن روزقلت كان قد غدا رجلاً عظيماً في تلك السنة . ولكنه كان حتماً رجلاً قد اكتملت رجولته . فالشاب الذي اقترح اسمه لتمثيل تلك الدائرة في مجلس الشيوخ كان لا يزال على ما كان عليه في المراحل السابقة من حياته ، لأنه لم يواجه قبل ذلك في حياته ، الضرورة التي تقتضي منه بذل غاية الجهد لتحقيق ما يصبو إليه . ولكن عضو مجلس الشيوخ الذي اتخذ مقعده في آلبني كان قد واجه هذه الضرورة ونهض إلى مستواها . فالفوز بالنيابة في مجلس الشيوخ عن هذه الدائرة لم يكن عملاً سهلاً ، بل كان شاقاً المشقة كلها ، ولو لم يبذل روزقلت في

المعركة ، خير ما فطر عليه ، وأقصى ما عنده من جهد ، لما فاز . ولكنه فاز ، وهذا ممكن من أن يحملق في كل سياسى آخر تنبأ له بالخيمة أو أحجم قبله عن خوض المعركة في هذه الدائرة .

كانت السنة التى انتخب فيها روزقلت عضواً فى مجلس شيوخ ولاية نيويورك سنة مواتية لشاب من الحزب الديمقراطى . فى تلك السنة وقع خلاف فى الحزب الجمهورى بين الرئيس السابق ثيودور روزقلت وأتباعه ، وبين الرئيس اللاحق هورد تافت وأشياعه . كان ثيودور روزقلت قد أملى ، عند ما أشرف على نهاية رئاسته فى سنة ١٩٠٨ ، اختيار تافت مرشحاً عن الحزب الجمهورى للرئاسة ، فانتخب فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، وخلف ثيودور فى مارس سنة ١٩٠٩ . ولكن ثيودور مال عنه بعد عودته من رحلته الأفريقية الأوربية ، فوقع انشقاق فى الحزب بدت بوادره سنة ١٩١٠ ، وتجلت فى سنة ١٩١٢ عند ما رشح الحزب تافت ثانية للرئاسة ، فعمد فريق منشق إلى ترشيح ثيودور روزقلت للرئاسة كذلك .

إن بوادر هذا التصدع فى وحدة الحزب الجمهورى ، أفضت فى سنة ١٩١٠ إلى التأثير فى انتخابات ولاية نيويورك النيابية ، فأسفرت عن انتخاب مرشح الديمقراطيين حاكماً للولاية ، وعن فوز الديمقراطيين بأكثرية فى المجلسين التشريعيين فى آلبنى عاصمة الولاية . فلما وصل فرنكلن روزقلت الشاب إلى آلبنى فى أول يناير من سنة ١٩١١ وجد نفسه أحد أعضاء حزب فاز بأكثرية لم يكن أحد يتوقعها . فقرر أن يفعل ما تقتضيه الفطنة ، وبدلاً من أن يتخذ حجة أو أكثر مقررًا له غير مستقر ، فى أحد فنادق العاصمة ، استأجر بيتاً ، ونقل أسرته إليه ، واستقر فيه ، لى يتمكن من النهوض بالواجب التشريعى الواقع على كاهله على أوفى وجه .

ولم تنقض إلا فترة قصيرة ، حتى حدثت الحوادث المشهورة التى آلت إلى تألق نجمه السياسى . وقد أقبل الكتاب السياسيون من أنصار فرنكلن روزقلت وخصومه ،

على بحث هذه الحوادث وتشريحها ، واستخراج العبرة منها . واللباب الذى تخرج به من أقوالهم جميعاً هو أن سياسياً شيخاً ضل الصواب وفقد رباطة الجأش ، فى أزمة سياسية ، بينما احتفظ سياسى شاب بصوابه ورباطة جأشه ، فال ثمر الظفر اليه .

وخلاصة هذه الحوادث أن مدى الفوز الذى أحرزه الحزب الديمقراطى فى انتخابات ولاية نيو يورك ، كان أعظم كثيراً مما كان زعيم الحزب الديمقراطى فى تلك الولاية يتوقعه ، وكان اسمه « مورفى » . فظن ، والحاكم ديمقراطى ، وأكثرية المجلسين التشريعيين ديمقراطية كذلك ، أن لا حدةً لقدرته وسلطانه . أليس هو زعيم الحزب ، وفى يده الحل والربط ، وتعيين الأتباع ، وتوزيع الأسلاب ؟ وبداله حينئذ أن فى وسعه أن يرشح رجلاً اسمه « شيهن » ليكون عضواً فى مجلس الشيوخ فى واشنطن (العاصمة الاتحادية) عن ولاية نيو يورك . وأنه إذا رشحه ففوزه فى الانتخاب مضمون لا ريب فيه ، لأن أعضاء مجلس الشيوخ كانوا ينتخبون حينئذ فى المجلسين التشريعيين مجتمعين فى هيئة مؤتمر . والأكثرية فيهما ، على ما علمنا ، للديمقراطيين . وكانت العادة المتبعة أن يدعو زعيم الحزب ، النواب والشيوخ الديمقراطيين إلى اجتماع ، يقترح فيه اسم المرشح ، فإذا وافقت أكثرية المجتمعين على الترشيح ، ألزم الباقون به ولو كانوا قد عارضوه فى الاقتراع . وكانت الأكثرية اللازمة لانتخاب عضو الشيوخ فى الهيئة التشريعية مائة صوت وصوتاً ، وكان عدد النواب والشيوخ الديمقراطيين فيها مائة وأربعة عشر عضواً . فما كان على مورفى إلا أن يطمئن إلى حضور مائة عضو وعضو منهم الاجتماع الذى يدعو إليه ، وكان واثقاً بموافقة العدد اللازم منهم على ترشيح شيهن وعندئذ يلزم الحاضرون بالموافقة ، ويقترعون له عند الانتخاب . ولم يكن مورفى يتوقع مشقة ما فى تنفيذ هذه الخطة . والواقع أنه كان قد اختار لزعامة الأكثرية فى المجلسين سياسيين نابهين فى مستقبل العمر ، مرضاة لفريق الأحرار من الحزب الديمقراطى ، فكان يحق له أن يتوقع اتحاد

الأعضاء على تأييد شيهن ولكنه لم يحسب حساباً لفرنكلن روزقلت .
والغريب في هذه الحكاية ، أن هناك ما يبعث على الظن بأن شيهن لم
يكن مختار مورفي الخاص لو كان حرّاً من كل قيد في الاختيار . غير أن مورفي
كان في موقف حرج . فشهن كان قد أسدى إليه خدمات جليلة . وكان ثريّاً .
وأبواب الشركات الكبيرة مفتحة أمامه . ففي وسعه أن يعزّز مال الحزب ، بماله
أو بمال الشركات التي له صلة بها . وكان قد بذل في الانتخابات القريبة عن سعة
وسخاء . فاختيار مورفي إيّاه كان مفروضاً عليه بدافع الشرف السياسي ، كما كان
يفهمه ، وبدافع مصلحة الحزب . ولكن روزقلت كان قد وقي جميع النفقات الخاصة
بمعرفة الانتخاب من جيبه الخاص ، فلم يشعر أنه مدين لمورفي أو لشهن في شيء من
هذا القبيل . ولكن معظم أعضاء الحزب الذين فازوا في الانتخاب لم يكونوا كذلك .
ولم يكن الاعتراض على انتخاب شهن ناشئاً عن مشاركته في فضيحة ما ،
سياسية أو مالية ، ولا لأن روزقلت كان يرغب في منافسة الرجل على عضوية
مجلس الشيوخ في واشنطن (عضو الشيوخ يجب أن يكون بالغاً ثلاثين سنة من العمر
على الأقل) ولكنه كان ناشئاً عن كونه من فريق المحافظين الغلاة في الحزب ،
وكان صديقاً لقاضي يدعى باركر ، من غلاة المحافظين كذلك ، وكان الحزب قد
رشح باركر للرئاسة سنة ١٩٠٤ ، فهُزم في الانتخاب هزيمة ذريعة . وعلاوة على
ذلك ، كان شهن من أعوان الشركات الكبيرة ، والبيوت الثرية ، وكانت
عنايته بالطبقات الشعبية غير الغنية ، غير بادية في أقواله وأفعاله ، أي أنه كان من
ذلك الطراز من الرجال الذي كان يسعى الحزب الديمقراطي بوجه خاص ، والشعب
بوجه عام ، موجّهاً إلى إقصائهم عن مقاعد السلطان . فانتخابه عضواً لمجلس الشيوخ
الاتحادي عن ولاية نيويورك يكون مناقضاً لاتجاه الحزب الديمقراطي ، وعبئاً ثقيلاً
عليه ، في انتخابات الرئاسة المقبلة (سنة ١٩١٢) . فمن الناحيتين السياسية والمعنوية ،

كان شيهن لا يصلح لهذا التمثيل ، ولعل مورفي كان يعلم هذا ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل ؟ فقد كان مديناً للرجل ، وظن أن في قدرته أن يوفى الدين بانتخابه . ولكن روزقلت الشاب أخلف ظنه .

ذلك بأن روزقلت لم يكن مديناً لشيهن في شيء . ولا لمورفي . وكان بصيراً بسير الشؤون العامة في الأمة الأميركية ، فأدرك أن انتخاب شيهن لتمثيل ولاية نيويورك في مجلس الشيوخ الاتحادي يكون صفقة لذلك العنصر الذي كان في رأى روزقلت مناطاً أمل الحزب الديمقراطي والأمة . ولكنه كان شاباً مقبلاً على ميدان السياسة ، وكان من المسلم به أن مورفي زعيم « تاماني هول » — وهو اسم مقر زعامة الحزب الديمقراطي في مدينة نيويورك في الولاية — كان يقبض بيديه على زمام المشتغلين بالسياسة من الحزب . وكان نجاحه في دائرته استهلالاً حسناً لسيرته السياسية ، ولا ريب في أن مورفي سيرمقه بعين العناية ، ويسهل له طريق الارتقاء إذا هو جراه وكسب عطفه . واهتمام مورفي بانتخاب شيهن دليل على أن مورفي لا ينسى من يسدى إليه خدمة ما . فاذا غامر روزقلت في معارضة مورفي ، فإنه يثير عليه حتماً سخط أقوى زعماء الحزب في الولاية . لأنه إذا كان مورفي لا ينسى من يسدى إليه معروفاً ، فإنه لا ينسى كذلك من يتصدى له ويتحداه . فمعارضته خطر كبير على سياسى ناشئ طموح .

فلما علم في آلبنى أن مورفي يؤيد شيهن قضى روزقلت ساعات وهو يذرع شوارع العاصمة محاولاً الوصول إلى قرار . ولا يفهم اضطرابه هذا إلا إذا تذكرنا أن روزقلت كان من معتنقي مبادئ الأحرار ، ولكنه لم يكن ميلاً إلى الثورة . فهو لم يجرى إلى آلبنى وفي نفسه أن يثور على زعامة مورفي ولا أن يهدم منزلة « تاماني هول » . كان يعلم أن الفساد سار في هذا النادي السياسى . ولكنه كان يعلم كذلك أن الحزب السياسى ، أيّاً كان ، لا حياة له بغير نظام وهيئة تشرف على هذا النظام .

وكان روزقلت يظن أن خير مرشح لتمثيل ولاية نيويورك في مجلس الشيوخ الاتحادي كان ادورد شبرد، وهو ديمقراطي مستقل. ولو اختار مورفي مرشحاً آخر غير شيهن أو غير شبرد من خمسة رجال أو ستة معروفين لكان روزقلت وافق على الاختيار. ولكنه لم يهضم اختيار شيهن. قد يضطر غيره من أعضاء الحزب الأحرار الناشئين، أن يرضوا بهذا الاختيار لأن الثورة على مورفي تعني الانتحار السياسي. ولكن روزقلت كان من أعلى الولاية. ولا سلطة مباشرة لتاماني ومورفي عليه. وكان قد انتخب عضواً لمجلس الشيوخ بغير تأييد مورفي، فليس في وسع هذا أن يخرج منه. نعم إن مورفي يستطيع — إذا شاء — أن يتنكر له، ويعرقل مساعيه، ولكن حياة روزقلت السياسية لم تكن وفقاً على استرضاء مورفي ومجاراته. ففي هذه الحالة، أكان في وسعه أن يرضى بالاقتراع لشيهن بغير أن تثلم كرامته الشخصية والسياسية في نظره الخاص؟ فقرّر أن يمتنع عن هذا الاقتراع.

إلى هنا كان تفكيره وقراره ما ينتظر من حُرٍّ مستقيم. وهذا كان واجباً عليه. وآل روزقلت عرفوا بأنهم ينهضون بما يعدونه واجباً عليهم. ولو كان فرنكلن روزقلت، لا يزال كما كان قبل معركة الانتخاب، لرضى بما فعل واكتفى بذلك. ولكن روزقلت الجديد لم يكتف. بل قرّر أن يمضي في قراره إلى نهايته المنطقية، أي أن يعارض اختيار شيهن وأن ينظم معارضة له. فبدأ يبحث بين أعضاء الهيئة التشريعية، لعله يهتدى إلى من يرى رأيه في هذا الاختيار. واستطاع أن يقنع ثمانية عشر عضواً من أعضاء مجلس النواب في توقيع بيان صرحوا فيه أنهم لن يقرعوا لشيهن مهما تفعل الهيئة الديمقراطية المدعوة للاجتماع، ولذلك سيمتنعون عن حضور هذا الاجتماع.

إن هذا القرار أمر خطير. لأن امتناع ثمانية عشر عضواً من الديمقراطيين عن حضور الاجتماع، أي امتناعهم مقدماً عن التزام قرار اختيار شيهن يخفض

عدد الذين يحتمل التزامهم هذا القرار إلى خمسة وتسعين ، وهو أقلُّ من العدد اللازم لانتخابه عند ما يجتمع الشيوخ والنواب في هيئة مؤتمر للانتخاب . ومع ذلك لم يعبا مورفي في البدء بهذا التمرد على سلطته ، حتى بعد ما علم أن أربعة آخرين انضموا إلى هؤلاء الذين وقعوا البيان . فقد رأى قبل ذلك مراراً تمرد الشبان على الخضرمين من رجال السياسة ، وكان واثقاً بقدرته على إكراههم على الإذعان له . فأصدر أمره بما يجب ، ووقف ينتظر انهيار المعارضة .

ولكن الأساليب التي أمر مورفي باتباعها لتفريق شمل المعارضة لم توهنها . فروزقت مثلاً ، كان قد فاز بتعيين أحد أبناء دائرته الانتخابية في قسم الخراج في الولاية ، فاستغنى عنه . وغيره من المتمردين كانوا قد وعدوا — وفقاً للتقاليد المتبعة في الحياة السياسية الأميركية — بمزايا تتاح لأنصارهم فنقضت الوعود . وتلقى غير واحد منهم خطابات تنطوي على تهديد . ووُصف روزقلت في الصحف بأنه شابٌ وسيمٌ أنيق يصلح للمسرح ، حيث تحقق لطلعته قلوب العذارى . ولمحت صحفٌ أخرى تلميحات خفية إلى أن الرشوة من قبل بعض المصالح الخاصة هي سبب هذا الامتناع عن قبول شيهن . ونشرت صور المعارضين على وجهٍ يوحي بأنهم قضوا الليل في العريضة والفسق . ومع ذلك مضى التمرد في سبيله ، فعمدت هيئة الحزب حينئذ إلى التنقيب في سجلات المتمردين لكشف ما يسهل الاستناد إليه في التأثير فيهم لصرفهم عن القرار الذي اتخذوه . فظهر أن بعضهم مدينٌ لبعض البنوك . فطلبت البنوك منهم توفية الديون . فانصرف روزقلت إلى البحث عن مال يمكنه من التوفية ، وأصاب نجاحاً فيما سعى إليه . وتمكن المتمرّدون من تجاهل التهديد الموجه إليهم ، ومضى التمرد في سبيله . وعند ما بلغ النضال هذه المرحلة ، كان اسم روزقلت قد انتشر في دوائر الولاية ، نحف إلى تأييده وتأييد جماعته غير واحدٍ من شيوخ السياسة الناقمين على مورفي وأساليبه . وكان مورفي قد أدرك أن التمرد على سلطته أخطر شأنًا مما كان يظن .

فاستفزه الخطر . ولكنه طار بصوابه . وكان مشهوراً بأنه يحسن تقدير الرجال . ولكن يلوح أنه استخف بزعيم خصومه الشاب في هذا النضال . وكان في وسعه أن يسترد ترشيح شيهن ويرشح غيره فيتفق الجميع على المرشح الجديد ، ولكنه أبى لأنه عدّ هذا التمرد تمرّداً عليه ، فقرّر أن يسحق المتمردين ، وقضى عشرة أسابيع يحاول ذلك . بينما دوائر الحزب الجمهوري وصحافته تهلل لهذا الانشقاق الداخلي في حزب الخصوم .

ولسنا نعلم على وجه التحقيق ما سرّ الخطأ الذي وقع فيه مورفي فجعله سخرية بين رجال السياسة ، وأضعف منزلته بين أقطاب حزبه . إن مورفي وحده يستطيع أن يجلو هذا السرّ . وهو لم يتكلم . ولكن من المحتمل أن خطأ مورفي ، كان نفس الخطأ الذي وقع فيه غير واحد من خصوم روزقلت فيما بعد ، ولم يكونوا دون مورفي معرفةً بأقدار الرجال . وذلك بأنهم جميعاً عجزوا عن التمييز بين « الخفة » و « المرح » . وقد كان مورفي يظنّ أن الرجل الجاد لا يبتسم . فإذا كان الرجل كثير الابتسام ، وأحياناً على التهمة ، فلا يمكن أن يكون رجلاً جاداً يقام له وزن كبير . وهذا المتمرّد الشاب لا يفارق الابتسام ثغره ، وقد حوّل داره في « آلبنى » إلى منتدى يجتمع فيه أنصاره ، يضحكون وينكتون ويدخنون ، ويأبون كل ما وجّه إليهم من تهديد أو استرضاء . ولعل نقمة مورفي استفحلت لأن خصومه كانوا في مَرَحٍ دائمٍ .

وعلى كل حال ، مضى النضال بين مورفي وبين هذه الخفنة من المتمردين عشرة أسابيع . وجاءت قاصمة الظهور عند ما شبت نارٌ في دار الكابيتول في آلبنى ، ونقلت اجتماعات « المؤتمر » إلى دار ضيقة ، فتعالت أصوات البرم من أتباع مورفي ، فاضطرّ الزعيم العنيد ، في آخر الأمر ، إلى الاعتراف بأنه غلب على أمره . فعرض أن يسحب اسم شيهن . وقضت حكمة المنتصرين بالألّا يفرضوا شروطاً قاسية على

خصمهم المخذول . وقد كان روزقلت يقول : نحن لا نعلم من يكون ممثّل الولاية في مجلس الشيوخ الاتحادي ، ولكننا نعلم أنه لن يكون شين . فلما سلم مورفي بنخلدانه ، رُشِّح رجل آخر من أقطاب « تاماني » ، وكان عضو المحكمة العليا في الولاية ، وهو رجل ذو نزعة حرة ، وخلق مستقيم . وانتخب .

إن هذه الحوادث تكاد الآن تكون نسياً منسياً في الولايات المتحدة ، فأحرّ الآتهم من لم يكن أميركياً . ولكننا توسّعنا في وصفها ، لأنها تفصح عن ناحية من نواحي الحياة السياسية في كل ولاية من الولايات الثماني والأربعين ، ولأنها كانت السلم الذي ارتقى فرنكلن روزقلت عليه إلى منزلة ملحوظة في السياسة الأميركية ، عند ما كان لا يزال دون الثلاثين من عمره ، ولأنها أبانت عن ناحية من أخلاقه السياسية تجلّت في المراحل التالية . وقد أكبّ روزقلت على عمله في مجلس شيوخ الولاية . فالخدمة أو الواجب يسير هنا جنباً إلى جنب مع نضال العزائم وصراع الإيرادات . وهو يجني من الاثنين متعة كبيرة . ومما يروى عنه ، أن مشروع جعل ساعات العمل في ولاية نيويورك أربعاً وخمسين ساعة كان يحتاج إلى صوت إضافي واحد لإقراره ، وكان المشروع يهمّ روزقلت لأنه يحقق ناحية ، ولو يسيرة ، من نواحي العدل الاجتماعي الذي يصبو إليه . وكان أحد الشيوخ ملتزماً بفراشه ، فصدر الأمر من جماعة الموافقين بوجوب إحضاره ، ولا بدّ من تأخير الاقتراع حتى يحضر ، فوقف روزقلت يخطب ، فتكلم في كل موضوع خطر له ، إلى أن أقبل على موضوع العصافير ، فإذا رئيس الجلسة يقول : « التزم الموضوع » فقال روزقلت : « إنني ملتزم الموضوع . فالعصافير تعلمنا أن . . . » وإذا الشيخ الملتفع قد أدخل البهو ، وإذا مشروع القانون بخفض ساعات العمل إلى أربع وخمسين ساعة قد أُقرّ .

جُدّد انتخاب روزقلت لمجلس الشيوخ في ولاية نيويورك على رغم مقاومة هيئة حزبه له ، وإصابته بالحمى التيفودية في أثناء معركة الانتخاب . وفي المجلس الجديد ، أيد طائفة من مشروعات القوانين المتسمة بسمة الأحرار ، وكان مرجعه وغرضه في معظم ما قال إلى وجوب العدل والاستقامة في تصريف الشؤون العامة . ولكن نظره في خلال هاتين السنتين أخذ ينصرف عن آلبني إلى أفق أوسع ، بدأ يطلع فيه نجم سياسيّ جديد علّق به الأحرار عامةً ، وأحرار الحزب الديمقراطي على وجه خاص ، أملهم العريض . وكان ذلك النجم السياسيّ نجم ودرو ولسن .

كان فرنكلن روزقلت كغيره من شباب الحزب الديمقراطي المتحمسين للمثل الديمقراطية العليا ، وقد أذكي حماسهم وعزّز آمالهم ظهور رئيس جامعة في ميدان السياسة ظهوراً استوقف أنظار الأمة . فقد انتخب ولسن رئيس جامعة برنستون ، حاكماً لولاية نيوجرزي في سنة ١٩١٠ وكان فرنكلن روزقلت كما قرأ خطب هذا الحاكم وتصريحاته ، ولا سيما قوله — إن « الثروة المركزة هي طاغية القرن العشرين ، وإن هذا الطاغية يجب أن يخضع لسيطرة الدولة ، وإلاّ فإنه يستعبد الملايين » — يزداد يقيناً بأنه القائد المنتظر للحزب الديمقراطي .

وقد قال روزقلت ، فيما بعد ، إن أهم ما آل إليه من إرث ولسن إنما هو السعي إلى تحقيق هذا الغرض الذي حالت الحرب العالمية الأولى دون تحقيقه . فهل تحول الحرب العالمية الثانية دون مضي روزقلت في تحقيق طبعته الجديدة من إرث ولسن الاجتماعي ؟

كان الزمن مؤاتياً لظهور قائد ديمقراطي جديد . فالخلاف بين روزقلت الكبير (ثيودور) وتافت (الرئيس الجمهوري) كان قد قذف بالحزب الجمهوري الى مشكلة

معقدة . فإذا امتنع روزفلت الكبير عن ضبط نفسه وخرج على تافت وهيئة الحزب الرسمية ، فلا مفرّ من انشقاق يتيح للحزب الديمقراطي في انتخابات الرأسة المقبلة (١٩١٢) فرصة نادرة . وإذا فعلى الحزب الديمقراطي أن يتأهب لهذا ، وأن يعد للانتخاب خير مرشح يستطيع أن يخوض المعركة نائباً عنه . وأيقن فرنكلن روزفلت أن هذا المرشح يجب أن يكون ودرو ولسن .

كان الفرق بين الرجلين — ودرو ولسن وفرنكلن روزفلت — عظيماً . فولسن يكبر روزفلت سنّاً خمساً وعشرين سنة ، حتى ليصح أن يكون والداً له . وكلّ ما كان يراه فرنكلن في ثيودور روزفلت بطل صباه من شجاعة وجرأة ورغبة وفرحة في النضال ، وبراعة في امتطاء الجياد ، وبشرة لوحتها الشمس ، وعضلات صقلتها الرياضة ، لم يجد له أثراً في ولسن . هذا ابن قسيس لم يقض حياته لا في الريف ولا في المدن ، بل بين الكتب . والدافع الى العمل فيه لم يكن مرده الى رؤية الضرورة الدافعة إلى العمل ، بل كان مرده الى دراسة دقيقة ، وتأمل عميق ، واقتناع بمبادئ معينة . نعم إن خلق ولسن ينطوى على كل مايعوز ثيودور وفرنكلن كذلك — الثقافة المصقولة ، والمنطق القوى السليم ، والتأهب العقلي . ولكن الصلة بين ولسن وفرنكلن روزفلت ، كانت الرغبة المشتركة في توزيع نعم الحياة توزيعاً أعدل مما كان مجتمعهما يتيح . ولكن هذه الرغبة في فرنكلن ، كانت مقترنة فيه بمتعة الحياة والاندفاع الى العمل الذي لم ينبع في ولسن إلا من التفكير . وكان بينهما صفة مشتركة هي صفة العناد . وقد اعترف بها ولسن في أخريات أيامه ، ولعل روزفلت يعترف بها يوماً ما . ومع ذلك وعلى رغم الفرق بين الرجلين ، رأى روزفلت في ولسن الرجل المنتظر للحزب الديمقراطي ، وللأمة الأميركية .

ولكن مورفي ، وأقطاب هيئة « تاماني » الديمقراطية في مدينة نيويورك ، لم يكونوا على هذا الرأي . بل ليذهب كثير من الكتّاب إلى أن هؤلاء الرجال كانوا

يفضّلون في حدود معيّنة ، رئيساً من الحزب الجمهوري على رئيس من حزبهم يكون ودرو ولسن أو من طرازه ، لأنهم كانوا قد تبينوا في تصريحاته الخازمة عن وجوب مكافحة « الثروة المنظمة في شركات ضخمة » مشيئةً اجتماعية تناقض ما لهم من أغراض خاصة ومطامع . فأنحازوا إلى رجل يدعى « تشامب كلارك » وأخذوا يؤيدونه للترشيح عن الحزب الديمقراطي في انتخابات الرئاسة المقبلة . فأسف فرنكن روزقلت لما رأى هذا الانحياز ، ولكنه تبين فرصة متاحة له لتنظيم مؤيدي ولسن في ولاية نيويورك والدعوة له . وكان بعد فوزه في النضال مع مورفي في حادثة « شين » قد اشتهر بقدرته على التنظيم السياسي ، فرأى فيه أعضاء الحزب من مؤيدي ولسن قوة جديدة تنضم إليهم ، فأفسحوا له مكاناً في الطبقة الأولى بينهم فلما عُقد مؤتمر الحزب الديمقراطي في مدينة بلطيمور ، كان فرنكن روزقلت من زعماء الديمقراطيين المعترف بهم في ولاية نيويورك . ولما فاز ولسن بالترشيح للرئاسة^(١) من قبل المؤتمر سلم كل متبوع شؤون السياسة الأميركية بأن روزقلت كان ذا شأن في هذا الفوز . وعند ما انتُخب ولسن رئيساً في نوفمبر من سنة ١٩١٢ لم يتردد أحد من الحزب في القول بأن الإنصاف يقضى بتعيين فرنكن روزقلت في منصب يليق به في الحكومة الجديدة . والواقع أن غير منصب واحد عُرض عليه ، ومنها ، على ما يقال ، وكالة وزارة المالية ، ولكنه أبى . وأخيراً لما عرض عليه وزير البحرية الجديد — جوزيفوس دانيلز — منصب وكالة وزارة البحرية قبل في الحال .

كان مردّ قبوله إلى اهتمامه بالبحر والأسطول منذ نشأته ، وإلى أن ثيودور

(١) يروى أن روزقلت نظم نحو مائتين من أتباعه لتأييد ولسن وأدخلهم بهو الاجتماع لابسين شارة « تشامب كلارك » . وفي الدقيقة الموعودة بدأوا يصيحون : « نريد ولسن » فكان ذلك بدء انقلاب التيار إلى الموافقة على ترشيح ولسن . والرأى أنه فعل ذلك عند ما علم أن أنصار « تشامب كلارك » سيدخلون فريقاً من « فتوات البلد » ليصيحوا : « نريد كلارك » للتأثير في جماعة المترددين في تأييد كلارك .

روزقلت — مرمى آماله وهو حَدَثٌ — تقلد هذا المنصب قبل انتخابه وكيلاً للرئاسة. وأخيراً لأنه أحب دانيلز الوزير الجديد، على ما بينهما من فارق في النشأة والذوق والأخلاق.

فقد كان روزقلت مثلاً مجسماً للسيد الكريم المتحدر من أسرة كريمة. وُلد في نيويورك، وتعلَّم في جروتون وهارفرد، وصُقلت أخلاقه بالرحلة والاجتماع. بينما كان دانيلز من العامة، وُلد في كارولينا الشمالية، ولم يتخرج في جامعة ما، واحتفظ بمظهره الخشن وحديثه الجاف. وكان الفرق بينهما يتجلى في ملابسهما. فروزقلت لم يتعدَّ الأناقة، ولم يغفل في الإنفاق، ولكنه كان يفصل ملابسَه عند المجيدين من خيَّاطي نيويورك، بينما كان دانيلز يعتمد الظهور في ملابس هي أقرب إلى الرث في مظهرها منها إلى المتقن. الأول مظهره مظهر محامٍ نيويوركى أنيق، والثاني مظهره مظهر مبشِّر كهل من الجنوب.

والواقع أن كثيرين حسبوه مبشِّراً عند ما شاهدوه أولاً، وكان تعيينه وزيراً للبحرية في حكومة ودرو ولسن، مشاركاً لمناقشة عنيفة وجدل كثير. ومن الروايات التي تروى، أن طائفة كبيرة من ضباط الأسطول أغمى عليها عند ما شوهده وزير البحرية أولاً. ومنهم من كان يقول بعد تعيين روزقلت وكيلاً: «لننتظر حتى يذهب دانيلز فنسوى المسألة مع روزقلت».

فالفوارق بين روزقلت ودانيلز ما كانت تشعر بأن روزقلت الشاب يستطيع أن ينفذ منها إلى حقيقة رئيسه فيدرك قيمته على وجهها الصحيح. ولكن الصلة توثقت بينهما في الحال. ولم يطل بروزقلت المطال حتى تبين أن رئيسه ليس «الرجل الغبي» الذي رآه بعض قصار النظر فيه. ف وراء تلك البسمة الأنيسة والنظرة الخاشعة كان عقلٌ ذكيٌ حصيف، ومشية قوية تؤيدها شجاعة وجراءة لا حدود لهما.

ويقال إن دانيلز روى أن الباعث له على اختيار روزقلت إنما كان أنه لم يرَ

شاباً أبهى منه طلعة وآثق ملبساً في واشنطن . ولكن دانيلز كان رئيس قسم الدعوة في هيئة الحزب الديمقراطي . ولا ريب في أنه أدرك ما لتعيين شابٍ من أسرة روزفلت في حكومة ولسن من قيمة شعبية . ثم لا ريب في أنه أدرك بعد حديث قصير مع روزفلت أنه الرجل الذي يصلح بطبعه وتربيته لمخاطبة أمراء البحر وصغار البحارة على السواء . ولكن لم يكن في وسع دانيلز ، أن يصرح بالبواعث الحقيقية التي حملته على اختيار فرنكلن روزفلت لوكالة البحرية ، فقال إنه اختاره لبهاء طلعتة .

ومضى الوزير ووكيله يتعاونان تعاوناً دقيقاً ، نهض بالأسطول الأميركي ، إذ كانت الدنيا تتمخض عن الحرب العالمية الأولى . فدانيلز كان من أتباع « بريان » Bryan . وكان الناس بوجه عام ، ورجال الأسطول بوجه خاص ، يظنون أنه يشاطر « بريان » نزعاته السامية ، فاتجه الضباط وقواد البحر إلى روزفلت ليقيمهم أنه رجل يفهم آراءهم ويعطف عليها ، فيسهل التفاهم بينهم وبينه . ولو كان دانيلز غير ما هو لسخط وغار . ولكنه كان عميق الإدراك بعيد النظر كريم الخلق ، فلم يستفز ما أدركه ووكيله من منزلة عند رجال الأسطول . بل إنه رأى فيه التحقيق الكامل لخطته . فروزفلت ورجال الأسطول متفقون . ولكن تعزيز الأسطول لا يكون إلا بعد ما يرصد الكونغرس المال اللازم لذلك . وعندئذ فالنزعة السامية التي اشتهر بها ، أو ألصقت به من تأييده بريان خلال عشرين سنة تقريباً ، تمكنه من إقناع الكونغرس بوجوب إرصاد المال . لأنه إذا قال رجل ، هذه نزعتي ، إن المال واجبٌ لتعزيز الأسطول ، فوجوبه لا ريب فيه .

ومن أطف ما يروى في هذا الصدد عن بريان ، وكان وزير الخارجية الأميركية في العهد الأول من رئاسة ولسن ، أنه خاطب روزفلت في أحد الأيام قائلاً : « أريد بارجة في الحال لتذهب الى هايتي » . وكان ذلك على أثر حوادث اغتيال

فيها كثير من البيض، فاقتضى الحادث تظاهراً بالقوة من جانب الحكومة الأميركية. فقال روزفلت : « إن جميع بوارجنا بعيدة الآن . ولكن في متناولي الآن سفينة مدفعية gunboat وفي الوسع أن تصل إلى هايتي في ثماني ساعات . » فضحك بريان موافقاً وقال : إذا ذكرت « البوارج » بعد الآن فلا تظن أنني أقصد « بوارج » بالمعنى الفنى .

وكان الرأى الغالب فى سنة ١٩١٤ أن دانيلز سينزع الى خفض ميزانية وزارة البحرية إلى أدنى حد مستطاع . والواقع أن هذا الخفض وقع فى بقية السنة المالية التى تولى الديمقراطيون الحكم فيها (مارس ١٩١٣ الى يونيو ١٩١٣) وكان الخفض مليونى ريال . ولكن الزيادة بلغت فى السنة التالية عشرة ملايين إذ ارتفعت من ١٣٠ مليون ريال الى ١٤٠ مليوناً . وكان ذلك قبيل نشوب الحرب فى أوربا فى صيف تلك السنة . وبعد ما نشبت الحرب غدا إقناع الكونغرس بوجوب زيادة ميزانية البحرية زيادة كبيرة أمراً لا يقتضى كبير عناء .

فى سنة ١٩١٤ حدثت حادثة غريبة لا يستطيع تفسيرها حتى الآن إلا تفسيراً عاماً . فى تلك السنة رضى روزفلت — وهو لا يزال وكيلاً للبحرية وله بعمله شغف عظيم — بأن يرشح عن الديمقراطيين فى ولاية نيويورك عضواً فى مجلس الشيوخ الاتحادى . وأصيب بالهزيمة السياسية الوحيدة فى حياته التى كان مرثاً الفصل فيها إلى الانتخاب العام . نعم إنه خسر الانتخاب لوكالة الرئاسة فى سنة ١٩٢٠ عندما أصيب الديمقراطيون بهزيمة عامة ، ولكن خذلانه حينئذ لم يكن خذلاناً شخصياً له ، بل كان خذلاناً للحزب ، ولمرشح الرئاسة كوكس فى المقام الأول .

أما لماذا قبل الترشيح عن ديمقراطى نيويورك ليكون عضواً فى مجلس الشيوخ

فليس واضحاً . والغالب أنه أحس أو أنبىء أن الرئيس ولسن راغب في ذلك .
والغالب كذلك أن الرئيس ومستشاريه كانوا يرغبون في أن يفوز أحد رجال
الحكومة القائمة في انتخاب من هذا القبيل ، وبخاصة في مجلس الشيوخ حيث كان
أنصار السياسة التي جرى عليها ولسن قليلين وإن كان الديمقراطيون كثرةً فيه .

ومهما يكن من أمر ، فإن مورفي خصم روزقلت في حادثة شيهن وترشيح
ولسن ، كان لا يزال زعيماً قوياً ، فأحكم خطة المعارضة لروزقلت ، لأنه لم يشأ أن يهزم
أو أن يبدو أنه هزم مرة أخرى على يد روزقلت . فأوحى باختيار جيمز
لترشيح عن الحزب الديمقراطي . وكان في اختياره هذا براعة كلها . فجيمز
جيرار كان سفير الولايات المتحدة في ألمانيا ، وكان ولسن قد عينه سفيراً . ومن
الواضح أنه كان من المتعذر على ولسن أن يعارضه معارضة صريحة ، أو أن يؤيد
روزقلت تأييداً صريحاً . وحاول روزقلت أن يجعل مدار الاختيار مسألة الخضوع
أو عدم الخضوع في الحزب للزعماء المتحكمين في شؤونه . ولكن أحداً لم يصدق أن
جيرار كان أداة في يد مورفي . فتعثرت حملة روزقلت من بدئها ، وجرى مورفي
كل قوته لمعارضة روزقلت فغلبه . ولكن جيرار لم ينتخب ، لأن مرشح الحزب الجمهوري
— جيمز ودزورث — غلبه يوم الانتخاب العام .

وقد حاول كثيرون تفسير هذه الهزيمة التي أصيب بها روزقلت . ولكن المرجح
أنه لم يحسن القيادة ، إذ أقدم على المغامرة في معركة قبل أن يستوثق من أن
مواصلاته الخلفية مأمونة . لأنه إذا كان روزقلت يعتمد على تأييد البيت الأبيض ،
فكان واجباً عليه أن يستوثق من أن الفريق المعارض لا يرشح رجلاً كبيراً من
أتباع ولسن أو أصدقائه كما حدث فعلاً ، حتى لا تغلّ يدا ولسن في تأييده . ولعل
هذه الهزيمة علمته درساً لم ينسه . ففي كل معركة انتخابية خاضها بعد ذلك — إذا
استثنينا انتخاب الرئاسة سنة ١٩٢٠ وكان هو مرشحاً للوكالة فقط — كان روزقلت

يستوثق دائماً من أمرين . أولهما : ما مصادر تأييده ، وثانيهما : ما مبلغ اعتماده عليها . ومنذ ذلك الحين لم يخسر معركة انتخابية بفعل الكسارة — على حد التعبير الحربى — أى بإطباق المعارضة التى يواجهها عليه من الأمام ، وضعف القوى التى تؤيده من وراء .

والواقع أن روزفلت خاض معركة انتخاب عضو الشيوخ عن ولاية نيويورك بهمة فائقة . لأن نشوب الحرب الأوربية فى صيف ١٩١٤ — أى قبل الانتخاب المذكور بثلاثة أشهر — كان قد رفع من شأنه وشأن منصبه فى وزارة البحرية إلى المقام الأول . وقد يكون من السخف أن يزعم أحد أن روزفلت رأى ببصيرته النافذة سير الحرب ومصيرها وتطورها حينئذ ، ولكنه حتماً أدرك يوم أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا فى ٤ أغسطس ١٩١٤ أن أسطولاً أميركياً قوياً غداً أمراً لا بد منه ، ولا غنى عنه ، لسلامة الولايات المتحدة ، بل ولكيانها .

إلا أن إدراكه الصحيح تعدى المبدأ العام إلى التفصيل الدقيق . فهو لم يدع الى تعزيز الأسطول وحسب . بل سعى كذلك الى وجوب تعزيز قواعده . إذ ما فائدة السفن الحربية بغير قواعدها . وهذا الفهم والسعى هما أعظم ما أسداه فرنكلان دلانو روزفلت الى ظفر الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى . كان روزفلت قد مضى عليه سنة أو أكثر قليلاً فى وكالة البحرية عند ما نشبت تلك الحرب فى صيف ١٩١٤ . وكان فى خلال تلك السنة قد بحث بحثاً دقيقاً محكماً حاجة الأسطول الأمريكى فثبت له أن ضعف الأسطول ليس فى سفنه ورجاله ، بل فى قواعده — قواعد التكوين ، وأحواض الترميم والإصلاح ، والمخازن ، ودور الصنعة ، ومحطات التدريب . ومرد هذا النقص إلى أن كل ضابط بحرى يطمح إلى الارتقاء حتى يبلغ مرتبة تتاح له فيها قيادة سفينة حربية . ولكن يندر بينهم من تتجه مطامحه إلى مركز القيادة فى محطة فحم أو دار صنعة .

وكانت النتيجة التي لامفرَّ منها خلال سنوات ، أن أهملت فيها هذه المنشآت البحرية ، وكانت مهمة روزقلت أن يصلح الخلل ، فأقبل عليه بكل ما عهد فيه من نشاط وهممة متقدة في حملته السياسية الأولى . وقد وصفت المسز روزقلت في ترجمتها تلك الأيام وما تخللها من رحلات متوالية طويلة شاقة لتفتيش هذه المنشآت ، فما كان شيء يغيب عن نظر روزقلت الفاحص ، وهو المعنى بمسائل السفن منذ حادثته الأولى . ففي الصفحة ٢٠٤ من كتابها تقول : كان زوجي معنياً أعظم عناية بجمع كل ما يستطيع جمعه من كتب ورسائل وصور ، خاصة بالأسطول الأميركي ونماذج سفنه . وكانت مجموعته كبيرة ، إلا أن السنوات التي قضاها في واشنطن وكيلاً للبحرية أتاحت له فرصاً كثيرة للاضافة إليها . ومما عرض عليه ، في وقت ما ، صندوق حافل برسائل الحب التي كتبها ضباط الأسطول في عهده الأول ، فاقتناه . . . ثم قالت ما يلي عن رحلات التفتيش : في هذه الرحلة كغيرها من رحلات التفتيش كانت مواعيدنا تبدأ في الساعة التاسعة صباحاً ، وتنتهي حوالى منتصف الليل . وكذلك أخذت الحياة تدب في هذه المنشآت الساحلية . ومما يعزى إليه ويدل على صدق نظره ، إصداره أمراً إلى كل سفينة حربية عند عودتها إلى قاعدتها بأن تعبئ ما تحتاج إليه من وقود وذخيرة وما أشبه حال إرسائها وقبل أن يُسمح لأحد من رجالها بالنزول إلى البر ، حتى إذا حدث ما اقتضى سفرها مفاجأة لم يكن في الحاجة إلى الوقود مانع من السفر . وقد ظن هذا الأمر عند صدوره قطعة من التحكم المدني البيروقراطي في الأسطول . ولكن فائدته تجلت عند ما اقتضت الأحوال إرسال سفينتين حربيين على جناح السرعة إلى فيراكروز في سنة ١٩١٤ . ولولا القاعدة التي سنّها روزقلت لوجب أن تتأخر السفينتان أربعة أيام أو خمسة قبل إقلاعهما ، ولكن السفينة الأولى أقبلت في هذه الحالة بعد انقضاء ساعتين على صدور الأمر ، فأفحم المعارضون .

هذا العمل الخطير الذى تولاه روزفلت ، لم يستوقف عناية الجمهور ولا اهتمامه . فهو عمل لا يبلغ الصفحات الأولى من الصحف . ولكنه كان عملاً عظيم القيمة وأدرك رجال الأسطول قيمته فذاع فى طبقاتهم أن فى الوزارة فى واشنطن رجالاً يفهم معنى القوة البحرية فهماً صحيحاً ، ويستطيع أن ينفذ ما يرى تنفيذه واجباً . وكان هؤلاء الرجال لا يزالون مُعرّضين عن دانيلز ، ولكنهم ما لبثوا حتى أدركوا أن روزفلت متمتع بثقة رئيسه ، وروزفلت فى نظرهم رجل ممتاز فلا بد أن يكون دانيلز كذلك .

وكذلك سرت موجة من الثقة فى الأسطول ، أخذت تتعالى باقتراب الولايات المتحدة من شفا جرف الحرب ، بدلاً من أن تضعف إلى الاضمحلال . أما ما لم يدركه رجال الأسطول حينئذ فهو مدى سعى دانيلز إلى تعزيز الأسطول ، وكان قد وقف نشاطه ومنزلته على إقناع الرئيس ورجال الكونغرس بوجوبه . وأخيراً وُفق إلى ما أراد إذ طلب الرئيس ولسن فى سنة ١٩١٦ إنشاء أسطول كبير حقاً ، وقفزت ميزانية وزارة البحرية إلى ٣٠٠ مليون ريال ، أى إلى ضعف ما كانت عليه سنة

١٩١٤ — ١٩١٥

وقد روى باسيل وون فى كتابه عن روزفلت قصة جديرة بالتدوين وخلاصتها أنه عند ما نشبت الحرب بين المانيا وبريطانيا فى سنة ١٩١٤ ذهب الكاتبين « جاى جونت » الملحق البحرى البريطانى فى واشنطن إلى مكتب روزفلت وعلى جبهته امارات اليأس وقال له : « يا مستر روزفلت أنت معقد أملى الأخير . ففى مرفأ نيويورك طائفة من السفن الألمانية الكبيرة التى سلحت للاغارة على الملاحه . وهى تتأهب للخروج . وهأنذا عائد من وزارة الخارجية (كان وزير الخارجية بريان من دعاة السلام) والرأى هناك أنه لا يسعهم أن يمنعوها من الخروج . فاذا خرجت خسرننا حياة بحارة كثيرين وسفننا وشحنها الثمين فهل ثمة طريقة لمنعها ؟ »

فكر روزقلت لحظة واتخذ قراره . واستدعى بالتليفون ددلى فيلد مالون مدير مرفأ نيو يورك وقال : ددلى . هنا فرنكلن روزقلت يتكلم . ان السفينة الألمانية « كرونبرسنزن اليس » وغيرها من السفن الألمانية تتأهب للخروج من المرفأ للاغارة على الملاحة . هل فى وسعك أن تعمل عملاً قانونياً ما لمنعها ؟

فقال مالون — وهو الذى روى الحكاية لباسيل وون — « لست أعلم إن كانت هناك طريقة قانونية لمنعها ، ولكننى سأمنعها من الخروج بطريقة ما » .

وكان لا بد لهذه السفن من استصدار الترخيص بالخروج من المرفأ . فلما بحث مالون فى ذلك وجد أن الرخص قد أمضيت وأرسلت ، فبعث رسولاً فى أثرها فاستردّها قبل تسليمها لربابنة السفن . وبعد قليل جاء وفد من الألمان الساخطين يشكون فقابلهم مالون متجاهلاً مستنكراً ووعد ببحث المسألة . وفى اليوم التالى ، جاء المدقق البحرى الألمانى وهو أشدّ سخطاً ممن سبقه ومعه فريق من ضباط السفن فقال لهم مالون : « إننى أبحث المسألة . ويلوح أن هناك اعتراضاً ما من ناحية الممنوعات الحربية . طبعاً إن ذلك لا يصدق . لأنه لو صح لكان انتهاكاً لحرمة الحياد الأمريكى . ولعلكم تدركون حرج موقفى . فعلى أن استوثق » . وكذلك أرسل مالون مفتشيه فوجدوا السفن وقد قويت دكايتها لنصب المدافع ، ووجدوا المدافع مخفية فأمرت السفن بالبقاء فى المرفأ وظلت هناك إلى أن دخلت الولايات المتحدة الحرب فى ابريل من

سنة ١٩١٧

وليس ثمة ريب فى أن روزقلت ، ككل عاقل ، رأى فى جزع ، ولكن بغير قلق ، موجة الحرب تقترب من الولايات المتحدة . وليس ثمة ريب كذلك فى أنه كان مكباً على العمل العظيم الذى بين يديه إكباب شغف ووطنية وعزم صادق . وفى هذه الفترة من حياته حدثت حادثة لم ترو ، قبل أن رواها روزقلت نفسه لإميل لدفيج فدوّنّها فى كتابه عن روزقلت . وليس فى وسع من يقرأها إلا أن يعقد موازنة بين

روزقلت في سنة ١٩١٦ وروزقلت في سنتي ١٩٤٠ و١٩٤١ . ففي الأولى كان روزقلت وكيلاً للبحرية ، وكان عليه أن ينبّه رئيس الولايات المتحدة إلى ما يراه من وجوب تعزيز الأسطول تأهباً لما عسى أن تجرّه الليالي والأيام في ذيلها . أما في سنة ١٩٤٠ فقد كان روزقلت في مقعد الرأسة : مقعد القائد العام للقوات الاميركية المسلحة جميعاً . وخلاصة الحادثة ، كما رواها لدقج في كتابه ، أن روزقلت دُعي في خريف سنة ١٩١٦ إلى مقابلة الرئيس ولسن في مهامّ معيّنة ، فاغتم الوكيل الفرصة ليعرض على رئيسه رأيه في الحالة الدولية ، ولا سيما ما كان منها خاصاً بالأسطول ، فقال له إن الحوادث تسير سراعاً ونحن على وشك الانغمار بها على ما يلوح ، فيجب أن نكون متأهبين . فهزّ الرئيس رأسه معارضاً . وعند ما همّ روزقلت بالخروج استبقاه ولسن وقال له : إن عيون التاريخ محدّقة فينا . نعم من المرجح أننا سندخل الحرب . ولكن في سنة ١٩٨٠ سيكتب مؤرخ ما تاريخ هذه الحرب . وقد يكون ألمانياً أو روسياً . فيجب أن يكون في وسع هذا الرجل أن يقول صادقا : « إن أميركاً لم تتأهب للحرب إلا بعد ما اضطرت إلى خوض غمارها » وبعد ما أعلنت الحرب في ابريل سنة ١٩١٧ ظهر — على رغم النشاط الذي بذله روزقلت — أن ثلث السفن الحربية كان على جانب وافٍ من التأهب ، وأن الأسطول يحتاج إلى تسعة أشهر قبل أن يبلغ أقصى قوته . وتسرّبت هذه الحقائق ، فكانت أكبر تهمة وُجّهت إلى روزقلت في حياته السياسية فيما بعد ، أنه خاب في أهمّ ما يجب عليه نحو قومه عند ما كان وكيلاً لوزارة البحرية ، إذ قصر ، عن قصد أو عن جهل ، في إعداد الأسطول الأميركي . ولكن ولاءه لولسن ولذكراه حال دون إذاعة التفسير المستخرج من الحادثة السابقة ، ولم يفض به إلا لأميل لدقج — على قول لدقج — في سنة ١٩٣٨ أو قبلها .

ولعل العناية الكبيرة التي وجهها روزقلت إلى تعزيز الأسطول وطلبه المبالغ الطائلة

من الكونغرس خلال السنة السابقة لنشوب الحرب العالمية الثانية وفي سنتها الأولى والسنوات التي تلتها، مردُّ بعضه على الأقل إلى ما انطبع في ذهنه من ذكرى تلك الحادثة مع ولسن في سنة ١٩١٦. فروزقلت لا يستخف بالمؤرخ، ولكنه يفضل مواجهة الحقائق الأليمة على أحكام المؤرخين، ومن المرجح الذي في مرتبة اليقين أن حكم التاريخ سيكون « أن روزقلت أحسن فيما فعل ».

لم تكد تنقضى أشهر على دخول الولايات المتحدة غمار الحرب العالمية الأولى حتى قرر روزقلت التطوع للقتال. فقد كان في عنفوان شبابه وكان برماً بعمل يقضيه في مكتب أمين مهما يكن خطير الشأن، بينما ألوف من الشبان يغامرون بحياتهم في خطوط القتال. ويجب أن يضاف إلى هذا الباعث، باعث آخر، وهو أن روزقلت على رغم ارتفاع منزلته السياسية، كان لا يزال متأثراً بصيت نسيبه ثيودور. ومن المشهور أن ثيودور تطوع أو رغب في التطوع، حالما أعلنت أميركا الحرب، مع أنه كان في الستين، وقد اكبرت الأمة والحكومة هذا النبل، ولكن أبت أن تعرضه لخطر قيادة فرقة. وما لبث أبناء ثيودور حتى كانوا في صفوف القتال في فرنسا، وبعد قليل قتل أحدهم. فلا غرو في أن تؤثر جميع هذه الحقائق في فرنكلن روزقلت الجالس وراء مكتبه بعيداً ألوفاً من الأميال عن ساحات النضال.

ولكن دانيلز أبي أن يسمع مقترحاً من هذا القبيل، وقد كان مقتنعاً بأن روزقلت أقدر على إسداء الخدمة إلى قوات أميركا المسلحة في وشنطن منه في فرنسا أو في سفينة محاربة. فكان والده الذي منعه من التطوع قبلاً في الحرب الأميركية الأسبانية تجسم في وزيره، فحال دون اشتراكه في الحرب العالمية الأولى اشتراكاً فعالاً. ولكن الوزير قبل بعد لأي أن يوفده في رحلة إلى منطقة الحرب في أوربا لتفتيش المنشآت البحرية فيها. وقد فتش روزقلت في خلال هذه الرحلة نحو خمسين محطة وقاعدة بحرية أميركية من كورفو في البحر المتوسط إلى الجزائر الخالدات (أزورس) في المحيط

الأطلسى إلى جزائر أوركنى فى الشمال من سكتلندا . ويقال إنه لم يقض ، خلال الرحلة ، ليلتين متواليتين فى مكان واحد .

ومما يروى أنه زار الملك جورج الخامس ، ولكنه أسف لأنه لم يجد متسعاً من الوقت لدراسة الصور والنماذج البحرية التى فى الحجرة المجاورة لحجرة المقابلة الملكية . ويقال إنه أرسل فى مهمة إلى روما لحث الحكومة الإيطالية على الخروج عن تحفظها فى بعض المسائل الحربية ، وحضر — على ما روى هو لإميل لدقج — اجتماعاً عقدته الوزارة الإيطالية فقال للوزراء : يا أسياد إن أسطولكم لم يخرج من مرفأ تارنتو مدى سنة كاملة . فرد أولندو : ليس فى هذا مأخذ علينا ، فالتمسويون لم يحركوا ساكناً طول هذه الفترة .

وفى باريس قابله كليمنصو فى أحد الأيام وبادأه بالتعنيف قائلاً : إنك كدت تقلب الوزارة ، وتخسر الحرب ! نعم . إنك أبلغت الصحفيين أنه جرت عادتكم فى أميركا بعقد مؤتمرات صحفية مرتين كل يوم ، وكتأبنا يطالبونى الآن بجديشين كل يوم !

فى أثناء هذه الرحلة عزم عزمًا قاطعاً على الاستقالة عند عودته ، والانتقال الى القوات المحاربة . ولكنه عندما عاد الى نيويورك حمل رأساً الى المستشفى . فى اليوم السابق لوصول السفينة التى كانت تنقله تلقت وزارة البحرية برقية بأن فرنكلن روزفلت مصاب بذات الرئة ، وأن الطبيب يأمر بإرسال سيارة خاصة لنقله الى المستشفى ، ولكن المسز روزفلت تروى أن إصابته كانت بالانفلونزا ، وكانت إصابة شديدة ، ولم يبيل منها إلا فى اكتوبر ، فعاد حينئذ الى واشنطن ليقدم تقريره الرسمى عن رحلته ، ولم يكد ينجز ذلك حتى كانت الحرب قد انتهت والهدنة قد عقدت فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

وذهب روزقلت ثانية الى فرنسا في أثناء التئام مؤتمر الصلح بباريس ، ولكنه لم يكن عضواً في الوفد الأميركي ، ولا خبيراً ملحقاً به . بل كانت مهمته الإشراف على التصرف في منشآت الأسطول الأميركي في فرنسا ، وكانت تشمل محطة لاسلكية كبيرة ، كانت تعد بين كبرى المحطات اللاسلكية في العالم ، وخمساً وأربعين قاعدة بحرية ، ومباني ومخازن وآلات لا تحصى ، ومقادير وافرة من الذخيرة والسلاح . وكان عليه أن يحكم في ما يصلح منها لنقله الى أميركا ، وما يجوز بيعه أو توزيعه . وهذا العمل استغرق أشهراً كثيرة من المفاوضة والمحاسبة ، فلم تتح له فرصة وافية لتتبع مجارى الأمور عند منابعا . ولكنه عاد في شهر فبراير سنة ١٩١٩ — وكانت قرينته معه — على السفينة « جورج وشنطن » التي أقلت الرئيس ولسن الى الولايات المتحدة ، لكي يخوض معركته الأخيرة في سبيل العصبة . فأتى روزقلت أن يرى الرئيس ويجتمع به كثيراً . ونبهه أحدهم الى المائدة التي كتب عليها ولسن النصوص الأولى لميثاق العصبة ، والكرسى الذى جلس فيه عند الكتابة . فاقتنى بعد ذلك روزقلت المائدة والكرسى ، وهو يعدها من أعز مقتنياته عليه ، ويستعمل الكرسى في مكتبه بداره في هيد بارك .

وانقضت عشرون سنة لم ير المؤرخون خلالها ما يحملهم على عد هذه الاجتماعات بين ولسن وروزقلت ، شيئاً مذكوراً . ولكن عند ما دار التاريخ دورته ونشبت الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩ ووافق نشوبها ترُبع روزقلت في مقعد الرئاسة أصبح لما طبع في ذاكرة روزقلت وما جناه من عبءٍ وحكمة ، في تلك الاجتماعات منزلة عظيمة . لأن الكتاب في سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ لم يخطر لهم أن جيلاً تالياً سيجيء فتفتنه المبادئ التي فتن ولسن بها العالم ، ويقرر أن لا خلاص للعالم إلا

بتطبيقها تطبيقاً عملياً ناجحاً . ولكننا نعلم الآن أن ولسن الشيخ كان يواجه عندئذ شاباً أعدته العناية لكي يخلفه في منصبه العظيم ، بل ولكي يخلفه في تحمل مثل التبعات الجسام التي تحملها هو .

أما ما كانت الخواطر التي خطرت لروزقلت حينئذ فلا يدرها إلا الرئيس وحده . وليس بالمرجح أنه استكشف بفكره المستقبل حينئذ ، واستشرف الأفق الدولي الى أن بلغ في استشرافه سنة ١٩٤١ لأنه ليس متكهناً . ولكن الشاب في هذه الاجتماعات كان حتماً مدركاً أن الأمور ليست سائرة على مايرام . وليس بين ساسة أميركا الأذكياء من كان يجهل مغزى الخذلان الذي أصيب به الحزب الديمقراطي في الانتخابات النيابية (نوفمبر ١٩١٨) إذ أصبحت الأكثرية في مجلس النواب للجمهوريين ، أى للمعارضة .

في ذلك الانتخاب ، بدأ الارتداد الأميركي من چنيثف ، وماحفَّ به ، ولزم عنه من كوارث عالمية . وليس لنا أن نفرض أن الشاب نفذ الى روح الشيخ ، وفهمه ، وتأثر به . ولعله لا يزال حتى الآن عاجزاً عن التأثر بتلك الصوفية التي كانت عنصر القوة والضعف في شخصية ولسن . ولكن لنا أن نفرض أن روزقلت خرج من هذه الأحاديث بفهم صحيح للشأن العظيم الذي يمثله العمل المشترك بين الدول الحرة في منع الحروب المقبلة وهو ما درجنا على وصفه في عهدنا بلفظي « السلامة المشتركة » . وخطبه — أى خطب روزقلت — في معركة انتخابات الرئاسة (سنة ١٩٢٠) دليل على صحة هذا الفرض . ومن أقواله فيها : « ليس المقام الأول لتشريع الوثيقة — أى ميثاق العصبة — ولكن المقام الأول إنما هو للموافقة على قواعد الخطة العامة » . وقوله كذلك : « إن البراهين التي تساق لمعارضة عصبة الأمم سيقَّت قبلاً لمعارضة الاتفاق الدستوري^(١) وقد أثبت الزمن أن هذه الوثيقة كانت باعثة على الرضى التام » . ومن

(١) الدستور الأميركي .

أقواله « إذا لم تشترك الولايات المتحدة في العصبة ، فالعصبة تصبح عندئذ تحالفاً أوروبياً . وإذا اشتركنا فيها ، فإننى لوائح بأن العصبة لن تطلب من الولايات المتحدة شيئاً لا ترتضيه . والعصبة ليست شيئاً كاملاً ، وهى رهن الروح الذى تقبلها به الولايات المتحدة الأمريكية . فنجاحها وخيبتها مرتبطان بموقفنا منها . . . قد لا تضع العصبة حدّاً للحرب على طول المدى ، ولكن الأمم تطلب أن يبذل هذا السعى » .

ولكن مناشدة عقول الناس فى وقت طغى فيه الانفعال والشهوة السياسية على نور العقل ، كان عبثاً . فالارتداد الأمريكى من جنيف كان قد أصبح فراراً ، وروزفلت حمله التيار ، كما حمل غيره ، وقذفه كسيراً كقطعة من الخشب على الشاطئ .

واقترب انتخاب الرأسة فى سنة ١٩٢٠ فرغب الساسة الديمقراطيون الذين يدركون الواقع ويرغبون فى مجاراته ، فى الابتعاد عن ولسن وسياسته ليقينهم أن لا أمل لهم فى النجاح إلا فى هذا الابتعاد . فاختراروا مرشح الحزب للرأسة رجلاً بعيداً عن دائرة ولسن . وكان ذلك المرشح جيمز كوكس حاكم ولاية أوهايو . ولكيلا يظن الناس أنهم متنكرون التنكر التام لولسن أرادوا مرشحاً لو كالة الرأسة ، قريباً من الرئيس المريض . فاختر فرنكلن روزفلت . فقد كان من نيويورك ، ولولاية نيويورك وزن عظيم فى ميزان الانتخاب ، وهو علاوة على ذلك سياسى بارع ، وخطيب مفعوه . وظنوا أن هذا الجمع بين كوكس وروزفلت ، يرضى مقتضيات السياسة ، وذلك الفريق من الشعب الأمريكى الذى كان مؤمناً بولسن وسياسته .

وعندئذ حدث ما يقلب نظريات الساسة رأساً على عقب . فقد كان كوكس وروزفلت مرشحى الحزب للرأسة والوكالة . وكانت مهمتهما أن يكسبا الانتخاب ، والانتخاب لا يكسب إذا جعل المرشح مدار انتخابه على قضية لا يؤيدها الجمهور الأكبر من الناخبين . وكانا يعلمان أن تأييد عصبة الأمم ينفر الناخبين منهما ، ولا يحملهم

على الإقبال على تأييدها ، وكانا يعلمان كذلك أنهما يستطيعان أن يداورا فيتجنبا العصبية بغير أن يتنكرا لها . فلا غرو إذا ترددوا في خير الخطط التي يجريان عليها في الانتخاب . وكانا لا يزالان مترددين عند ما ذهبا معاً إلى واشنطن لزيارة الرئيس الكسيح زيارة مجاملة . وبعد ما لبثا في حضرته فترة ما هما بالانصراف ، فوقف كوكس أمام الشبح المقعد وقفة احترام ، وقال :

يا جناب الرئيس : لقد كنت معجباً ، عظيم الإعجاب بنضالك في سبيل عصبية الأمم .

فاستوى الجسم المتهدم وقدحت عيناه شرراً ، كالشرر الأخير الذي تنثره نارٌ خابية ، ورنَّ صوته رنةً أعادت إلى ذهن الزائر صورة ولسن في أيام عظمته . وقال :

« يا مستر كوكس لا يزال في وسعنا أن نكسب النضال »

ويقول روزفلت إن الدموع طفرت إلى عيني كوكس ، ولكن لا يعلم هل أجاب ، وبماذا أجاب . ولما خرجا عرف كلٌّ منهما ما يدور في خلد صاحبه ، وإذا كوكس يقول :

« روزفلت . . لنجعل العصبية مداراً معركتنا » .

وقد فعلاً وخسرا الانتخاب . وإذا قيس قرارها هذا بمقياس السياسة العملية ، كان حقاً ما بعده حق ، وهذا كان رأى أصدقائهما بين أقطاب الحزب . ولكن المرجح أن الفوز في الانتخاب كان آيلاً إلى الحزب الجمهوري على كل حال مهما يفعل كوكس وروزفلت . فالبلاد الأميركية كانت مسوقة بقوة غريبة إلى عهد هاردنغ وما سرى فيه من فساد .

إلا أن روزفلت كافح في سبيل العصبية ، عالماً أنه مخفق ، وأن اختيارها مداراً لحلة

الانتخاب كان سياسة خاطئة ، ولكنه كان مع ذلك يعلم في قرارة نفسه ، أن هذا الاختيار كان صواباً . وانقضت سنون قبلما أثبت على ما فعل . وها هو ذا الآن وقد انقضت اثنتان وعشرون سنة على خسارته المرحلة الأولى من المعركة ، وإذا ذلك الشر الذي حاول ولسن جهده أن يحول دونه ، قد انطلق ثانية على العالم ، وإذا الرجل الذي كافح في سبيل العصبية ، أو فكرتها ، عند ما كان الكفاح انتحاراً سياسياً ، جالساً في مقعد ولسن ، يواجه أمةً تعلم أنه بذل قبلاً غاية الجهد ، لترويض هذا الشر ، ففي وسعه أن يطلب إليها أن تثق به بأنه سيبدل الجهد ، مرةً أخرى ، لغلبته الآن .

الفصل الثالث

طريق البيت الابيض

١ — المرض امتحان ...

٢ — المرض فرصة ...

٣ — عودته السياسية

٤ — حاكم مصلح

٥ — أهل الفكر

إن المرض امتحان ، فإذا كان حاداً ، كان امتحاناً لقوة الجسم ولعلم الطبيب في المقام الأول ، وإذا كان مستعصياً ، كان امتحاناً ، على الأكثر ، لقوة الخلق وشدة المراس وصلابة العزم . وإذا كان المريض رجلاً في عنفوان رجولته ، مُدلاً بعافيته ووسامته ، مزدهياً بالنشأة الكريمة التي نشأها ، والمناصب العالية التي تولّاها ، منساقاً مع الآمال العظيمة التي عُقدت عليه وفتحت أبوابها أمامه ، وأُصيب بما يقعه عن الرياضة التي يهواها ، وحُذف اسمه من سفر الرجال الذين أعدتهم الطبيعة للمستقبل ، فالإصابة محنة لا يغلبها إلا قوى الشكيمة من الرجال ، والتعود هزيمة يسهل معها الاستسلام الى جور القدر ، ولا يجوز واديتها المظلم ، الى سهول الظفر المشرقة ، إلا من وجد في نفسه نبعاً من القوة لا يغيض . فإذا لم يكن هذا النبع هناك ، فلا سهر الزوج ولا محبتها ، ولا عناية الأصدقاء ولا عطفهم ، تجدى .

وقد امتحن روزقلت هذا الامتحان فلم يخفق ، ووُزِن بهذا الميزان فلم يكُ ناقصاً ، وجاز وادى ظلّ الهزيمة ، معتصماً بنفسه ، فإذا هو بعد اجتيازهِ ، أكمل رجولةً مما كان ، وأدقّ اتزاناً في قواه العقلية والخلقية جميعاً ، وأدنى الى الحكمة . كان روزقلت قد قضى عشر سنوات في مضمار الخدمة العامة ، بدأها في «آلبنى» عضواً في مجلس الشيوخ ، وأستأنفها في «وشنطن» وكيلاً للبحرية ، وختمها مرشحاً عن الحزب الديمقراطي لوكالة الرأسة ، فحُذِل مع كوكس مرشح الرأسة ، في انتخاب سنة ١٩٢٠ ، فعاد الى مضمار الأعمال الخاصة ، فاختير مديراً لشركة تأمين كبيرة ، وكان مرتبه يفوق كل مرتب آخر جناه في كل عمل سابق . وكان الطريق أمامه ممهداً الى حياة ينعم فيها بكل ما تعودده في شبابه من رخاء ورياضة واجتماع .

ولكن القدر كان يخبىء له الامتحان ، لأنه كان يُعَدُّه لساعةٍ من أقيم الساعات في التاريخ الأميركي ، ثم في تاريخ الحضارة . وكان مستهل الامتحان رحلة مع نفر من الصحب ، غرضها النزهة والمتعة . فكان طبيعياً أن يدعو رئيس مجلس الإدارة في شركة التأمين زميله المدير الجديد ، الى رحلة على يخته في شهر أغسطس من سنة ١٩٢١ في المياه التي تغسل سواحل ولاية نيويورك . وكان طبيعياً أن يطالب روزقلت الى مضيفه أن يوجهه يخته صوب كامبو بلو حيث كان روزقلت يقضى أيام الصيف مع أسرته ، في عهد الحداثة ، فأضفت عليها ذكريات الصبا غلالة من الجمال شفافه . وأتيح لروزقلت أن يدير دفقة اليخت في تلك المياه كما كان يفعل في صباه ، فكانت فرحته لا تُحَدُّ ، لأن في هذا العمل تجديدًا وبعثًا لأفراح الحداثة . وما كاد اليخت يصل الى مرساه ، حتى أعدّ روزقلت معدّات الصيد ، وهو يكاد يقفز غبطة ، ولكن قدمه زلّت وسقط في الماء . قال ما ملخصه :

« لم أحسّ في حياتي ماءً أبرد من ذلك الماء ، ولم أكّد أغطس حتى شعرت بأن برد الماء كافٍ لتخدير الأطراف ، مع أنني كنت لا أزال ممسكاً باليخت بإحدى يدي ورأسي لم يبتل . ولعلّ هذا الشعور كان مرده الى الفرق بين برّد الماء ، على هذه السواحل ، وبين حرّ اليخت الناشئ عن نار المحرك ، وأشعة شمس أغسطس المنصبّة عليه . ونزلنا الى برّ الجزيرة في اليوم التالي ، وكان يملأ جوّها روح شجر التنّوب وهو يحترق . ففي إحدى الغابات نار تلتهم . فقضينا النهار نكافح النار ، فدمعت عيوننا بفعل الدخان ، وعلا لنا القدر من الرأس الى الاخصصين ، ولذعتنا الحروق والنفط الناشئة عن الشرر المتطاير ، وأعيانا الكفاح فغطسنا في بركة ماء عذب في الجزيرة لنصيب فيها قسطاً من الابتعاد والإنعاش ، ثم عدّونا الى الدار ، ونحن في ملابس الحمّام ، على طرق يكثر فيها الغبار ويشتدّ الهجير . فلم أشعر برّد الفعل الذي يتلو عادة رياضة من هذا القبيل ، وأخذتني ، وأنا داخل الدار ، قشعريرة

لم أستطع التغلب عليها . وفي الدار وجدت رسائل وصحفاً ، فجلست أقرأ ، وليس بي همّة لارتداء الملابس للعشاء . إنني لم أشعر في حياتي مثل هذا الشعور . وفي الصباح عند ما حاولت النزول من سريري ، لم تنقذ نخذي اليسرى للعادة والرغبة ، ولكنني تمكّنت بشيء من الجهد ، أن أتحرك وأن أغسل وأحلق . وحاولت أن أقنع نفسي بأن التعب عضليٌّ ، وأنه ذاهبٌ لا ريب . ولكن نخذي اليسرى لم تلبث حتى تبيّست ، ثم تبعتها الأخرى .

هذا ملخص ما يرويه روزقلت عن بدء مرضه .

وبعد ثلاثة أيام عُرِفَت الحقيقة ، وهي أن روزقلت مصابٌ « بشلل الأطفال » وكان وَبَّاه ، حينئذٍ ، فاشياً في نيويورك .

وإذن هنا رجلٌ في الأربعين من عمره ، صحيح الجسم ، تتدفق العافية من نظراته وتنساب في مشيته ، تحيط به جميع أسباب الرغد والعيش الرضي والنجاح الدنيوي ، وإذا اليد القاسية تهوى عليه ، في الجزيرة التي عرف فيها أولاً متاع الصبا ، وإذا جسمه من الوسط إلى الاخصفين مشلول . فهل في خلقه القوة الكافية لاجتياز هذا الامتحان والتغلب على المحنة الكبيرة الاولى التي مُنِيَ بها في حياته ؟

إن شلل الأطفال ^(١) مرضٌ غريب ، وصفه معجم دورلند الطبي بأنه التهاب المادة السنجابية في النخاع الشوكي . وهو يصيب الأطفال على الغالب في عهد السنتين الأوليين ، ولكنه لا يقتصر عليهم . وقد يحدث فجأة ، ويغلب أن تصحبه حمى وشلل في عضلات الحركة ، وحوول في طوائف من العضلات ينتهي إلى التقلص والتشويه الدائم . وهذا الوصف ينطبق — بحسب دورلند — على أعْم أنواعه . وقد تفضّل طبيبٌ مشهور ^(٢) بوصفه لكاتب هذه السطور كما يلي :

(١) Poliomyelitis, Infantile Paralysis

(٢) الدكتور حسن كمال

يحدث هذا المرض من مِكرُوب غير مرئي ، يصيب الجهاز العصبي الرئيسي بالجسم ، ودَوْرُ حضانتِه سبعة أيام عادة ، ثم تظهر أعراض المرض فجأة ، بحمى وضعف وصداع وتلبُّث في المعدة والأمعاء مدّة يومين أو ثلاثة أيام ، ويعقب ذلك أعراض إصابة المخ والنخاع الشوكي من ارتعاش عضلي ، وفقد التوازن عند الحركة ، وتيبُّس العنق والعامود الفقريّ ، وازدواج النظر والحول ، ثم تبدو أعراض الشلل الارتخائي المميّز للمرض .

وليست جميع الحالات شديدة الوطأة . فهناك حالات حدّتها خفيفة ، ومدّتها قصيرة ، وقد لا تصحبها أعراض عصبية ، فيصعب تشخيصها ، إلا إذا كانت في زمن وباء متفشٍ . وهي عامل خطير الشأن في تيسير نشره بين الجمهور .

والتلف الجسماني الناشئ عن هذا المِكرُوب يتركّز في الخلايا العصبية في الحبل الشوكي وفي القسم الأمامي منه ، وفي الجزء السفلي من المخ ، وتحدث الوفاة عادةً عند ما تصاب عضلات التنفس بالشلل . وقد نجح زنسر Zinsser في نقل المرض إلى القردة . والأطفال أكثر تعرّضاً للإصابة به من البالغين . وقد تحدث الإصابة في كل سنّ .

والمرض ينتقل على الأكثر بالرضا من المريض أو حامل المرض إلى السليم ، فيدخل الجسم عن طريق الأنف والبلعوم . وقد تجمّعت الأدلة أخيراً على أن المِكرُوب ينتقل إلى المخ بطريق عَصَب الشمّ ، كما تجمّعت أدلة أخرى على أن العدوى قد تنشأ من تعاظمي غذاء لبنى موبوء .

ومِكرُوب المرض ، على الرغم من صغر حجمه وتعذر رؤيته بالمجهر ، قد استُنبت بالطرق الخاصة ، واتضح من ذلك أنه يعيش مدة طويلة في الجفاف أو في الماء أو اللبن . ومن غريب ما ظهر أخيراً أن يونغبلات بين في سنة ١٩٣٥ أن فيتامين C يلطف ضرر المِكرُوب وقد يمنع الإصابة به . واتضح كذلك أن الإصابة بالمرض

تحصّن المصاب ضده مدى الحياة . وأن السائل الدموى (المصل) المأخوذ من أناس سبقت إصابتهم بالمرض ثم أبلّوا يحوى موادّ شافية . والبالغون أقدر على مقاومة المرض من الأطفال . وقد جرّبت أخيراً طريقة المعالجة بالمصل المأخوذ ممن سبقت إصابتهم ، وذلك عن طريق الحقن فى الوريد أو العضل أو النخاع . ولا تزال النتائج القاطعة رهن الفحص والتحقيق ١ هـ

كانت معظم الحقائق المعروفة الآن عن هذا المرض غير معروفة قبل عشرين سنة من الزمان . وكان أسلوب المعالجة المتّبع حينئذ بعد اجتياز فترة الإصابة الحادة غيره الآن ، وربما كان على النقيض منه . وكانت نتائج العلاج لا تبعث على الاطمئنان إلى الشفاء فى كثير من الحالات . فالاعتماد على ما كان يعرفه الطبّ عن هذا المرض فى سنة ١٩٢١ كان يفضى إلى القول باحتمال بقاء روزقلى مُتَعَدِّاً إلى أن تدركه الوفاة ، وإذا أُتيح له أن ينزل من سريره ، فإلى كرسيّ مُتَعَدِّ يدرج على عجلات . وكان معروفاً أن بعض الذين أُصيبوا بإصابات خفيفة تمكّنوا من استرداد القدرة على تحريك أطرافهم ، ولكن معظمهم كان من الأطفال ، وكان فى وسعهم أن يتحملوا أسلوباً شاقاً من العلاج يستغرق سنين لأن مشيئة والديهم كانت تُفرض عليهم فرضاً ، فهم مكرهون وليسوا بأبطال . وكان من النادر بين الكبار الذين أُصيبوا به ، مَنْ تجتمع فيه صفات الشجاعة التى لا تُحَدُّ ، والعزم الذى لا يفلّ ، والصبر الذى لا ينفد ، لمتابعة العلاج . ولذلك قلَّ مَنْ شفى بين الكبار الذى أُصيبوا .

وكان زملاء روزقلى السياسيون يعلمون هذه الحقائق ، أو بعضها ، عندما انتهت إليهم أنباء إصابته ، فمحوا اسمه من كشف الأسماء التى تعلق بأصحابها آمال كبيرة ، فى حلبة السياسة . ولعلمهم زفروا متأوّهين وهم يقولون : ما أفجع المنتهى لهذه السيرة السياسية الباهرة ! انتهى الفصل فلنقلب صفحة جديدة !

ولكن رجلاً واحداً لم يقل هذا القول ، على الرغم من حزنه العميق . كان هذا

الرجل صحفياً مخضرمًا عند ما نشب النزاع بين روزفلت ومورفي على ترشيح شيهين لمجلس الشيوخ في واشنطن سنة ١٩١١ . ففقته ما تبيننه في هذا الشاب الارستقراطي من حسنٍ سياسى مرهف ، وصلابة عزم لا تغل . ولسنا نعلم متى أدرك هذا الرجل أن في بُرْدَى روزفلت رجلاً يصح أن تناط به الآمال ، ولكننا نعلم أن آصرة الصداقة بينهما توثقت في آلبنى ، فلما ذهب روزفلت إلى واشنطن أخذ صاحبه معه سكرتيراً له في وزارة البحرية .

كان هذا الرجل لويس ماكهنرى هاو .

فلما اعتزل روزفلت العمل في وزارة البحرية بوشنطن ، تخلف « هاو » عنه لتسوية طائفة من الأعمال التى تركت معلقة في أثناء معركة الانتخاب ، ثم استقال من وزارة البحرية ، وقلد منصباً في شركة تجارية ، فبدأ أن الطريقين اللذين التقيا في آلبنى وامتدا متحاذيين إلى واشنطن ، افترقا في نيويورك . جمعت بينهما السياسة ، وفرقت بينهما الأعمال .

وما كاد « هاو » يعلم بإصابة روزفلت حتى هرع إلى جزيرة كامپوبلو ، وما كاد يدرك خطر العلة ، حتى تخلى بغير تردد عن عمله ببرقية أرسلها إلى رئيسه .

في تلك اللحظة قرر هاو أن يكون لصديقه المقعد ، العينين اللتين تريان ، والفخذين اللتين تسعيان ، والأذنين اللتين تسمعان . وما كان له أن يعلم أن الأمد سيمتدُّ به وبصديقه خمس عشرة سنة أخرى يلزمه فيها عليلاً ، وحاكماً لولاية نيويورك ، ورئيساً للولايات المتحدة . ولكنه عندما توفى في سنة ١٩٣٦ كان لا يزال في خدمة روزفلت وكان مقره في البيت الأبيض .

إن كثيرين من الذين عرفوا هاو لم يميلوا إليه . فسحنته كانت أشبه بسحنة راكب جياذ السباق بعد أن يجفوه الشباب . وغير قليل من أصدقاء روزفلت وخصومه ، كانوا يردون إليه كل خطا في أعمال الحاكم ، ولا سيما في أعمال الرئيس .

ولا ريب في أن هاو كان كسائر الناس غير منزّه عن الكمال . ولكن في إقباله على روزقلت ، وهو في هذه المحنة سَمّة من سمات العظمة النفسية . فليس بالمستغرب أن ينوط رجل ما مركبته بنجم طالع^(١) في سماء السياسة . ولكن لوناً من ألوان العظمة الحقيقية وحده يدفع رجلاً إلى أن يلزم سياسياً في ساعة محنة لا يبدو ، ولا على الأفق البعيد ، وجه اجتيازها .

وقد يكون من العبث ، في هذه الترجمة القصيرة ، أن نغنى بتفصيل الحوادث الخاصة بمرض روزقلت ، وبجهاده في سبيل الشفاء . وحسبنا للدلالة على الروح الذي واجه به محنته قوله : « إنه لمن السخف أن تقولوا لي إن رجلاً لا يستطيع أن يقهر مرض أطفال » وقوله لزوجته : « إنني سأقهر هذا الشيء » ، وقد قضى روزقلت معظم السنوات السبع التالية من حياته في تحقيق هذا العهد الذي أخذ نفسه به .

ولكن إذا كان المقام لا يتسع لتفصيل هذا الكفاح ، فإننا لا نستطيع أن نمرّ بالآثار التي تركها هذا الكفاح في عقل الرجل وخلقه مرّ الكرام . لأن في هذه الآثار « مفتاح » روزقلت الرئيس الذي فرض نفسه فرضاً على وعى الأمة الأمريكية ، ثم على وعى العالم . فروزقلت « التوزيع الجديد » وروزقلت « الحريات الأربع » استكمل تكوينه الخلقى والذهنى في سنى هذا الكفاح .

بعد سنوات من الكفاح ضد المرض استرد روزقلت قدرته على استعمال ذراعيه ، وبعض قدرته على استعمال نخذه مستعيناً بعكازين . وكان من أثر النظام الصحى الذى جرى عليه ، وساعات لا تعد قضاها في السباحة ، أن اتسعت كتفاه ، وقويت

(١) أصل التعبير لامرسن « نط مركبتك بنجم » Hitch your wagon to a star ومؤداه أعرب عنه المتنبي في قوله :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

عضلاتهما . فأصبح مشهده مشهد ملاكم كبير ، إذا قصر النظر على النصف الأعلى من جسمه . وهذه العافية مكنته من خوض ثلاث معارك لانتخاب الرئاسة ، وخوض معركة واحدة ، كافٍ لإنهاك أصحاب الناس بدناً .

على أن العافية البدنية لم تكن كلَّ ما كسبه في الكفاح ، ولا أهمَّ شيء كسبه ، بل الكفاح نفسه ، هو الذي جعله أحد الناس .

تأمل سيرته إلى أن أقعده الشلل . كانت نشأته كما قلنا أميركية في صميمها . ولكن هذه النشأة كانت تختلف عن نشأة المتوسط من الأميركيين . ولعلَّ تحدُّره من أسرة على جانب من الثراء ، كان الفارق بينه وبين الصبي الأميركي المتوسط . ولكنه لم يكن الفارق كلَّ الفارق . ولعلَّ هذا الفارق يرجع كذلك إلى أنه ينتمي إلى أسرة اشتهرت في تاريخ أميركا ، وأضفى عليها ثيودور روزفلت ألقاً خاصة . أو إلى أصدقائه الكثر ، أو إلى قدرته على توثيق أواصر الصداقة مع الناس والتقرُّب إليهم ، أو إلى مواهبه العقلية الممتازة . كلُّ ذلك أقام فارقاً بينه وبين الأميركي المتوسط . ولكن الفارق الأصيل الذي ميَّزه عن جمهور الناس من الأمة الأميركية ، كان شيئاً آخر . ذلك أن حياة فرنكلن روزفلت خلال تسع وثلاثين سنة ، لم تغشها كدرةٌ ما . ومنَّ يقال هذا القول فيه ، مميَّزٌ حتماً عن خلق الله . قد يكون ألمعياً ، أو قد يكون عبقرياً ، أو قد يكون عضواً مفيداً في المجتمع ، ولكنه ليس واحداً من الناس . فالناس لا يفهمونه تماماً ، وليس ثمة ما يستطيع ، أو من يستطيع إقناعهم ، بأنه يفهمهم . ويندر بين الرجال والنساء من يبلغ الأربعين من العمر بغير أن يواجه معضلة من معضلات الحياة . قد تكون واحدة من معضلات كثيرة ، مردُّها إلى الفاقة والعوز أو إلى فقد حبيبٍ أو عزيز ، أو إلى الشعور بالخيبة في الحياة . تتعدد الأسباب ، ولكن النتيجة واحدة . وسماتها انهيار الأمل ، أو سقوط الإيمان معقراً في أنقاض المطامح ، أو الإحساس بأن القوة تحولت ضعفاً وعجزاً ، أو أن الكبرياء انقلبت يأساً

وقنوطاً . ومتى شرب امروءٌ من هذه المياه المرّة ، أحسَّ في قرارة نفسه ، أن كل مَنْ لم يشرب منها إنما هو غريب عنه ، وأن الصلة — صلة التعاطف والتفاهم — بينهما مبتوتة .

ولكن روزقلت شرب من هذه المياه بين سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٧ وشرب أكثر مما يقسم شربه للمتوسط من الناس . لم تهدده الفاقة في يوم من أيامه ، ولكن المستعطى أغنى من غني لا يستطيع أن يأمرَ فخذه . ولم يذُقْ طعم الهزيمة الصحيحة — (إن خذلانه في ترشيح نفسه ضدَّ جيرار سنة ١٩١٤ ثم في انتخاب الرأسة سنة ١٩٢٠) عند ما كان مرشحاً للوكالة لا يعدّان هزيمة ، بل إن الخذلان الثاني قد يعدُّ في معنى خاص نصراً أدبيّاً) — ولكن هذا المرض هزمه وألقاه أرضاً . ولم يكن روزقلت يعرف في حياته الخاصة والعامة معنى الجور ، فالأبواب أمامه مفتحة ، وقسطه من نِعَم الدنيا غير يسير ، ولكن هل ثمة جور أعظم من هذه المصيبة التي نزلت به ؟ ولم يذُقْ روزقلت طعم الألم ، ولكنه شرب الآن من كأسه حتى الثمالة . كان قبلاً رياضياً يمتطي صهوة الجياد ، ويدير دفة المراكب ، وكان يُدِلُّ بقوة وبراعته ، ولكنه الآن كسيح مقعد . كان صحابه بين المميزين من أبناء الأرض ، أما صحابه الآن ، فالحرور والمصابون . كان قد تعودَّ الاحترام الواجب لمنزلته الاجتماعية والسياسية ، ولكنه الآن يحسُّ مرارة رَمَقِهِ بعين الإشفاق .

كلُّ هذا أنشأ بينه وبين الجمهور الكبير من الأمة الأميركية صلة لا تنفصم ، وتعاطفاً لا تخمد حرارته .

وجاءه يوماً من سمع بأن في ولاية جورجيا ينابيع ماء دافئ ، وأن السباحة فيه تعينه على إلانة ما تيس من عضلاته ، فأخذ يختلف إليها ويتروّض فيها . وكشفه صحفيٌّ هناك ، وهو يسبح في بركة يصبُّ فيها هذا الماء الدافئ ، فكتب مقالاً في صحيفته ، فسخط روزقلت لأنه كان يفضل أن يداوى « جراحه » بعيداً عن أعين

الناس . ولكن المقال حمل كثيرين من المصابين بشلل الأطفال على الوفود إلى « ينابيع جورجيا الدافئة » ، وعندئذ تحولت روزقلت من السخط إلى الرضا ، بل وأنفق نصف ثروته الخاصة في ابتياع الأرض ، وإنشاء المنشآت اللازمة لعلاج المصابين . ووقف عليها مالا لإدارتها ، وكأنه ذكر ما جاء في الإنجيل : « قال له يسوع إن أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب وبع أملكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء ، وتعالى اتبعنى . فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة » . ولكن روزقلت أعطى ، وبالعطاء أخذ من الحياة شيئاً كثيراً

ويروى عنه بعد انقضاء سنوات على ما تقدم أن وباء شلل الأطفال فشا ثانية ، وكان الباحثون في حاجة إلى دم الذين أصيبوا بالمرض ولم يقض عليهم ، لتجربة التجارب بمصل ذلك الدم . فتقدم روزقلت بقدر من دمه ، وقد قال بعد ذلك لأحد أخصائه : « ظننت أن هذا العطاء يكون قدوة » .

وقد روى لى سعادة الكسندر كيرك وزير الولايات المتحدة المفوض في المملكة المصرية أنه ذهب إلى واشنطن في صيف ١٩٤٠ بعيد انهيار فرنسا ودُعى إلى البيت الأبيض ليذهب مع الرئيس وجماعة من صحبه في رحلة بحرية قصيرة ، فهاله ما بدا له على سمات الرئيس وقسماته من أمارات التعب والإعياء ، عندما شاهده في البيت الأبيض ، فلما وصل الصبح إلى السفينة نزل روزقلت إلى حجراته وبدا ملابسه وعاد إلى حيث انعقد المجلس ، وقد تبدل الرجل رجلاً آخر ممتلئاً عافية وهمة ، ثم انتحى ركناً وجلس يعد في ظروف صغيرة مجموعات متنوعة من طوابع البريد ليرسلها إلى « أصحاب الصغار » من المصابين بشلل الأطفال !

في هذه السنوات تعلم روزقلت قيمة « الوقت » وعبت ذلك اللون من الاجتماع الذي طالما ضيع وقته فيه . فمثل روزقلت في هذا كمثل غنيّ خسر معظم ماله فحملته التجاريب على العناية بالقليل الباقي له . فعكف روزقلت المقعد على « ملء كل ساعة بستين دقيقة » — على حدّ تعبير كبلنغ — من الدراسة والبحث . كان خريج جامعة ، ولكنه لم يعن من قبل عناية خاصة بدراسة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تواجهها أمم هذا العصر . فعمد الى إكمال هذا النقص . وكان مرضه كان من هذه الناحية كصمم اديسون . فالمرض والصمم في الحالين مكنا الرجلين من الانصراف عن كثير من عبث الحياة الاجتماعية الى الإكباب على بحث المسائل التي تهتمها . وبينما كان روزقلت مكباً على دراسة مشكلات عصره ، في عزلة داره ، كانت السنوات التي تلت عقد الهدنة ومعاهدات الصلح تعلوها سمة الاستسلام الى الشعور المكبوت خلال الحرب ، وإنكار العقل وأحكامه . فاندفع الناس في درود من المرح والعبث والشرب والرقص والمضاربة والرحلة الى مواطن المتعة ، فكان مخدراً خاصاً أصاب أعصاب الناس مزيناً لهم أن المتعة الحسية في جميع ألوانها هي أعظم ما في الحياة ، أو كل ما فيها .

هذا الفرار من مشكلات الحياة وتبعاتها ، واللوذ بأسباب المرح المصطنع ، لم يدركا روزقلت ، لأنه كان مريضاً مقعداً ، فلا يسعه ولو أراد ، أن يرقص مع الراقصين ، ولا أن يشرب مع الشاربين . وبينما كان ملقى على السرير في دار والدته بنيويورك ، محروماً المتعة التي هيأتها له وراثته البيولوجية والاجتماعية ، آتياً التسليم مع من يقول من أصحابه وذويه ، إن هذه الإصابة ختام سيرته العامة ، أخذ الفساد يدب في الجراح التي فتحتها الحرب في جسم الاجتماع البشري ، لأن الناس انصرفوا عنها ، جهلاً أو إهمالاً ، الى « رقصة الشيطان » .

مرّ به الموكب الثمل المعربد ، ووصلت اليه ضوضاؤه ، ولكنه كان بحكم حاله فوق الضوضاء . ولو انصرف الى مرارة التأوه على عجزه عن الانتظام في الموكب لما ليمّ ، ولكنه كان منصرفاً الى الدراسة وإلى التأمل ، وكأن سرير المرض صخرة عالية يشرف منها على عصره ، فأدركته نعمة النظر المشارف . وكان يحيط به نفرٌ مخلص من أصحابه وذويه ، في طليعته زوجه إليانور وصديقه هاو ، فكان في وسعه أن يراقب ، وأن ينظر من عل ، وأن يوازن ويحكم . فسنوات الألم التي جاز فيها روزفلت وادى ظلّ المرض كانت سنوات بركة عليه ، لأنه تغلب في خلالها على مصائب الجسد ، واكمل له نموّ العقل والخلق والطماينة النفسية .

والشلل يصحبه بوجه عام تنبه ذهني في الوقت الذي تقيد به حركة الجسم . وذهن روزفلت كان دائماً متقدماً ، ولكنه نشط الآن نشاطاً عجيباً لأنه كان قادراً ، وهو منصرف عن « رقصة الشيطان » ومهام العيش ، أن يركز فكره . فكان في وسعه أن يدرس المشكلات التي تهمة . وكانت على الأكثر مشكلات اجتماعية ، وهي مشكلات عقد منشئ الجمهورية الأول رجاءهم على اجتنبها ، ولكن ازدهار الصناعة الحديثة وانتشارها ، جعلها مشكلات لا مفرّ منها . هنا بلد من أغنى بلدان العالم في ثراه وخلق شعبه وكلّ ما يتيح الرخاء ويوفر أسباب الرغد لأبنائه . وقد كان البادى من حياة هذا البلد يشير الى رخاء ورغد . ولكن الخفيّ كان غير البادى . فوراء الرخاء والرغد الظاهرين كان تعطل عن العمل آخذ في الازدياد ، وفساد في السياسة وارتباك ، واستهتار بين الشبان والشيوخ ، وانحطاط في النظرة الأخلاقية الى الاجتماع ، وكان أهم مظاهر هذا الانحطاط عدم الاهتمام بالخروج على القانون حتى لكأن مراعاة القانون لا تعنى أحداً . وكانت عصابات « الأشرار » (Gangsters) قد هوت بكفها الملوثة على بعض دوائر الحكومة والمحاكم ، والحرية قد غدت إباحة وفوضى ، وصرح الديمقراطية بدت فيه شروخ تتحول الى صدوع .

وهذه أمور لا يدركها من يكون منساقاً مع التيار ، ولا يستطيع أن يدركها إلا الحكيم الفطن الذي يستطيع أن يرتفع فوق التيار ، لينظر إليه نظراً مجملًا مشارفًا . ورزقلت لم يكن منساقاً مع التيار ، لأنه مريض ، ومرضه مهّد له سبيل النظر المشارف والحكمة . وكان ذهنه مهيباً ، فاغتنم الفرصة ممسكاً بناصيتها .

فهم الأعراض وفكر في العلاج ، فازداد على مرّ الأيام يقيناً أن الإصلاح في دولة ديمقراطية لا يمكن أن يتم إلا إذا كان السلطان مستمداً من الشعب . والفوز بهذا السلطان يقتضى أولاً تعليم الشعب ، والسياسة يجب أن تكون أداة هذا التعليم . إن في منظر هذا المقعد وهو يتأهب لقيادة أمة ، لجلاً لا يغضب الإعجاب والاحترام غصباً .

في هذه السنوات استوضح روزقلت كثيراً من آرائه ومعتقداته السياسية والاجتماعية الأولى . كان قبل رحلته الثانية إلى أوربا بعيد انتهاء الحرب قد قبل عن اقتناع الصورة المثالية التي رسمها ولسن لجمعية أمم ، تصبح فيما بعد « دولة عالمية » . ولكنه بعد ما اتصل بساسة أوربا ، وتنفس في جوّها السياسي ، أدرك ، أو بدأ يدرك ، أن الجمعية لن تفلح إلا إذا أعطيت سلطاناً بدلاً من أن يوزع السلطان على أعضائها ويكون كلٌّ منهم على حدة ، الحكم الأخير في قراراتها الخطيرة . ولكن سنوات الدرس والتأمل ، خلال فترة المرض ، ساقته إلى الاقتناع بأن « الاجتماع الديمقراطي » مصيره معلق بالفرد من الجماعة ، ومدى تأهبه لحمل نصيبه من التبعات المشتركة . ومن هنا نزعتة التي أصبحت قاعدة ثابتة في أسلوبه السياسي ، إلى توجيه ندائه إلى عقل الشعب ، وحسبانه السياسة تعليمياً شعبياً في المقام الأول ، وتوجيهاً إلى خطة يقبلها العقل العام بعد ما يقيم العقل الخاص الدليل على سلامتها . وقد كتب في سنة ١٩٣٠ في هذا المعنى « إن الفرد لم يمارس قبلاً في ديمقراطية ما ، ممارسة عامة حقوقه الدستورية ، ولكننا مُقبلون على زمن يجب فيه على الأفراد

ممارسة هذه الحقوق إذا شاؤا أن تكون الحكومة ما يريدونها أن تكون . والاقتراع ليس إلّا حقاً واحداً من هذه الحقوق . فالحكومة في نظره يجب أن تكون « من الشعب » كما قال لنكن ، ولكن الواجب الأول على السياسى ، هو أن يرشد ويعلم ، لا أن يحكم ويتحكم .

أقعد المرض روزقلت ولكنه — بعد اجتياز المرحلة الحادة من إصابته — لم يقطع صلته قطعاً باتا بعالم السياسة بمعنيته : الواسع أى الشعبى ، والضيق أى الحزبى . فحجرته كانت كل يوم محطاً لطوف من الرسائل ، فكان أسلاكاً خفيفةً مدت بينه وبين جماعة كبيرة من المريدين فى الأمة الأميركية . وحرصت زوجته ، من ناحية ، وصديقه هاو من ناحية أخرى ، على الاحتفاظ بجميع الصلات السياسية والاجتماعية التى كان روزقلت قد أنشأها ووثقها فى مراحل حياته السابقة : فلاحاً سيّداً ، وعضواً فى مجلس شيوخ ولاية نيويورك ، ووكيلاً للبحرية ، ومرشحاً للوكالة عن الحزب الديمقراطى ، ومديراً لشركة تأمين كبيرة .

وكذلك تعاون الزوج الوفية ، والصديق الصدوق ، على خدمة هذا المقعد ، فكانا عينييه اللتين تريان ، وأذنيه اللتين تسمعان ، وأحياناً الصوت أو الصدى الذى يفرض الاحترام على أئدانه وخصومه على السواء ، فى ميدان السياسة . وكان الهمم الأول طبعاً متجهاً الى حفظ اسم روزقلت حياً ، فى مجالس الحزب ، لكى لا يكون نسياً منسياً ، أو كأنه عائد من عالم بعيد ، عند ما يتيح له التحسن المطرد فى صحته الرجوع الى حومة السياسة . فانصرف هاو الى الاتصال بجماعات الحزب فى الولاية وفى الأمة يشاهد ويسمع ثم يعود إلى صديقه بما شاهد وبما سمع . وكان عند ما تتاح له الفرصة للإعراب عن رأى صديقه فى شتى المسائل ، لا يحجم عن الإعراب

فيقول « إن فرانك يرى هذا » أو « إن فرانك يظن أنه يتعين علينا الاهتمام بهذا أو بذاك » أو « إن رأى المستر روزقلت في الموضوع هو كيت وكيت ». أما زوجه فنزعت عن وجهها نقاب الإحجام ونزلت إلى الحلبة ، مهتمة بمسائل ونواحٍ من السياسة العملية ، كانت قبل ذلك لا تعنى بها إلا من الوجهة العقلية المحضة . فما لبثت حتى أصبحت خطيبة بارعة ، وحتى غدت ذات مقام عالٍ ونفوذ عظيم في الهيئات النسوية الأميركية الكبيرة ، مثل « عصبة الناخبات » و « عصبة نساء اتحاد العمال » والهيئة النسوية للجنة الديمقراطية في ولاية نيويورك . وكانت في المرحلة الأولى تستند إلى حكمة هاوٍ وإرشاده ، إلا أن ذكاءها ونزعتها الانسانية ورغبتها الصادقة في الخدمة العامة ما لبثت جميعاً حتى مهدت لها حنكةً سياسية ، جعلتها بصرف النظر عن زوجها ، وعن كونه حاكماً أو رئيساً ، في طليعة النساء الأميركيات المشتغلات بالمسائل العامة في هذا العصر .

قضى روزقلت صيف سنة ١٩٢٣ في دار والدته بهيدبارك على ضفة الهدسن في أعلى الولاية . وكان العزم والثقة السمتين اللتين تسودان كلَّ عمل وكلَّ قول يعملهما أو يقوله . وكان قد تعلم أن يمشي مستعيناً بعكازين . ولم يكن موقفه من مرضه موقف سخط على عدوٍّ ، بل موقف نضال مع منافس ، فأبى إباءً مطلقاً أن يستسلم . وكان يعتقد كل صباح مؤتمرات سياسية تدوم ساعتين أو أكثر في حجرته ، ويجلس إلى مكتبه بعد الظهر للكتابة أو القراءة ، وكان عند وجوده في نيويورك يختلف إلى مكتب المحاماة الذي أنشأه مع صديقه أوكونور . وفي المساء ينصرف إلى الرياضة وهو يقول : « سأقهر هذا الشيء » . وهو شعاره .

وكذلك أقبلت سنة ١٩٢٤ وهي في الولايات المتحدة سنة انتخاب ينتخب فيها رئيس الجمهورية ووكيله ، وجميع أعضاء مجلس النواب وثلث أعضاء مجلس الشيوخ والحكام وأعضاء الهيئات التشريعية في طائفة كبيرة من الولايات .

في تلك السنة هُيئت لروزفلت العودة إلى حلبة السياسة ، وقد كانت عودته في سبيل قضية يؤمن بها ، وصديق تعلم أن يحترمه منذ أيامه الأولى في آلبنى . ذلك بأنه رأى في صديقه آل سميث (الفردى . سميث) حاكم ولاية نيويورك خير من يحمل علم الحزب الديمقراطى فى انتخاب الرأسة المقبل لإنقاذ الأمة من عهد هاردنج الفاسد ، فقرّر أن يؤيده . ودعى إلى تولّى إدارة الهيئة التى تمهّد لترشيح سميث عن الحزب . وكانت هذه الدعوة تحيةً كريمة لروزفلت ، ولكن قلّ من ظنّ حينئذٍ من أقطاب الحزب ، أن روزفلت يستطيع ، وهو فى حالته الصحية المعروفة ، أن ينهض بالتبعات الجسام فى عمل من هذا القبيل . وكانوا مكتفين مقتنعين بأن يقرن اسمه باسم الجماعة التى تؤيد سميث . ولكن رأى روزفلت كان مخالفاً لهذا الظنّ ، فهو لا يقرن اسمه بمحملة سياسية إلاّ إذا كان مشرفاً عليها الإشراف التام . وكذلك قضى روزفلت ثلاثة أشهر وهو يصنع العجائب فى تنظيم الهيئات الموالية لصديقه . وهذا عمل يكاد ينوء به رجلٌ سليمٌ قوىّ .

ولكن سنة ١٩٢٤ كانت سنة الجماعة المعروفة باسم « كوكلوكس كلان » وهى معادية لليهود والكاثوليك على السواء . وسمت كاثوليكي . واجتمع مؤتمر الحزب الديمقراطى فى مدينة نيويورك لاختيار مرشحي الحزب للرأسة والوكالة ، فرشح روزفلت صديقه فى خطبة أصبحت مشهورة فى تاريخ أمريكا السياسى باسم خطبة « الجندى السعيد » لأن روزفلت وصف صاحبه هذا الوصف عند ما ختم خطبته بيت وردزورث الشاعر الإنجليزى وترجمته : « هذا هو الجندى السعيد ، هو من يريد كلُّ مكافح أن يكون »

كان الرجلان المقدّمان على غيرهما فى كشف المرشحين ، آل سميث ووليم مكادو ، (وزير المالية سابقاً - فى عهد ولسن - وصهر الرئيس ولسن) . وانقسمت معظم الأصوات بينهما ، بغير أن ينال أحدهما الأكثرية اللازمة للترشيح ، وقد كانت حينئذٍ فى

الحزب الديمقراطيّ « ثلثي الأصوات » . وأعيد الاقتراع أكثر من مائة مرة بغير أن يعنو أحد الفريقين للآخر . وكان وقت الاجتماع في الصيف ، وجو الصيف في نيويورك لا يطاق ، لأنه مشبع برطوبة تشغل على الصدور وتسكاد تزهر النفوس . فلما ضاق أعضاء المؤتمر ذرعاً بغير إمكان الاتفاق على أحد المرشحين ، تخلّى الفريقان عنهما كليهما ، ورشحاً جون دايشس (سفير أميركا سابقاً في لندن) . فخُذِل دايشس في الانتخاب ، وكان منافسه الذي خذله كلثن كوليدج .

في خلال هذه الفترة المرهقة ، عمل روزفلت ما يعجز عنه رجل بساقين سليميتين . ومع أن مرشحه عجز عن الفوز بتأييد الحزب له في الترشيح للرئاسة ، تمكن روزفلت من الاتصال الشخصي بأقطاب الحزب الديمقراطيّ المجتمعين في نيويورك من جميع أنحاء البلاد ، واستطاع بكثير من الدهاء وقوة الإقناع ، أن يستميل فريقاً كبيراً من خصوم سمث إلى تبديل رأيهم فيه فعادوا إلى ولاياتهم وهم عازمون على تأييد سمث في المؤتمر القابل ، إذا كان اسمه معروضاً للترشيح . ولم يقنع روزفلت بهذا ، فمضى خلال السنوات الأربع بين سنة ١٩٣٤ وسنة ١٩٣٨ (وهي سنة انتخاب الرئاسة التالي) يسعى مهدداً لترشيح صاحبه ، وأتاحت له فرصة الرحلة إلى ينابيع المياه الدافئة في جورجيا ، أن يهدم بعض الحوائل التي وقفت سداً منيعاً بين سمث وبين تأييد الولايات الجنوبية له ، وهي الولايات التي تُعدّ معقلاً للديمقراطيين ، وكانت مناوئة لسمث لأنه كاثوليكيّ ، ولأسباب أخرى .

فلما عقد مؤتمر الحزب الديمقراطيّ في سنة ١٩٣٨ في بلدة هوستن بولاية تكساس الجنوبية ، ذهب روزفلت إليها ، وكان يستعين بعصوين على المشي ، ورشح صديقه مرة أخرى فوافق المؤتمر على الترشيح في الحال . وكان المرشح الجمهوري المنافس له هربرت هووفر .

لولاية نيويورك في انتخاب الرئاسة منزلة عالية ، لأن لها الحق في أن تنتخب سبعة

وأربعين ناخباً من مجموع ٥٣١ ناخباً في مجمع انتخاب الرئيس . فمن يفز بكسب الأكثرية في ولاية نيويورك يغنم في انتخاب الرأسة غنماً كبيراً . وفي نصف القرن الماضي لم يفز مرشح للرأسة إلا وكانت نيويورك في جانبه ، يستثنى من ذلك انتخاب ولسن سنة ١٩١٦ فقد انحازت إلى خصمه ، هيوز ، ومع ذلك فاز بتجديد رأسته ، لأن تأييده في طائفة كبيرة من الولايات الكبيرة الأخرى كان قوياً .

وعند ما تقترع ولاية نيويورك لمرشحى الرأسة ، تقترع كذلك لانتخاب حاكم جديد وهيئة تشريعية جديدة . والصلة بين الاقتراعين ليست مطردة . فقد تنحاز الولاية إلى مرشح الرأسة الديمقراطي ، وقد تنتخب في الوقت نفسه حاكماً عليها من الجمهوريين ، وقد يعكس . وذلك مردّه إلى مسائل السياسة المحلية على الأكثر . وكان يهتمّ سمث المرشح للرأسة أن تنحاز إليه ولاية نيويورك بأصواتها السبعة والأربعين في مجمع انتخاب الرئيس . ومع أنه كان قد قضى حاكماً لها ثمانى سنوات ، كان يعلم أن انحيازها إليه في انتخاب الرأسة ليس مضموناً . ولذلك كان يهتمّ أن يكون مرشح الديمقراطيين لمنصب الحاكم فيها رجلاً ذا منزلة عالية واسم مشهور ، لعلّ شهرته ومنزلته السياسية ومشاركته في الحملة الانتخابية ، تؤثر في اقتراع الرأسة ، فتنحاز الولاية إلى سمث . ولم يجد سمث لهذه المهمة خيراً من روزفلت . وكان روزفلت قد ذهب إلى جورجيا للعلاج بالرياضة في مياه جورجيا الدافئة . وكان الأطباء قد عقدوا أملهم على أن تفضى رياضته هناك مدى أشهر متوالية إلى أطراد التحسن في صحته فيستطيع أن يمشى بغير سند . فقد مضى عليه سبع سنوات من الكفاح ، وأصبح قريباً من الهدف . ولسنا نعلم هل كان الأطباء على صواب فيما ذهبوا إليه من تمام الشفاء بعد قليل . لأن روزفلت لم يتمكن من أن يلبث في هذه البقعة ، وأن يقيم على هذه الرياضة المدة المفروضة . فالزعماء الديمقراطيون المؤيدون لسمث اجتمعوا في نيويورك ، وقرّروا أن المرشح الديمقراطي الوحيد ، لمنصب حاكم ولاية نيويورك ،

الذى يستطيع أن يسدى عوناً إلى سمث والحزب في هذه الولاية ، إنما هو فرنكلن روزفلت . وإذا بجرس التلفون يقرع ليلاً في مقرّ روزفلت في جورجيا . وكأنّ روزفلت استشفّ ما في الجوّ ففضى المساء بعيداً عن التلفون ، ولكنهم اتصلوا به أخيراً ، وحادثه سمث ، وبيّن له الموقف ، وناشده قبول ترشيح الحزب الديمقراطى إياه لمنصب حاكم ولاية نيويورك .

هذه حقائق لا مماراة فيها .

ولكن الكتاب اختلفوا في تفسيرها . وقد ذهب بعضهم إلى أن روزفلت كان يأكله الطمع في هذا الترشيح ، فدبر حيلة بارعة قوامها الابتعاد ، حتى يبرز فضله فيرجى رجاء . وقد يكون هذا صحيحاً . ومن الحتم أن هناك طائفة من رجال السياسة لا يفهمون شؤون الحياة إلاّ على هذا الأساس . ولكن فريقاً كبيراً من العقلاء يدركون أو يستطيعون أن يتصوروا ، على الأقلّ ، رجلاً يفضل أن يستعيد صحته الكاملة واستعمال نخذه ، على أن يكون حاكماً لولاية نيويورك ؛ حتى غير العقلاء يستطيعون أن يتصوروا رجلاً يفضل الصحة على أن يخوض معركة سياسية مصيرها غير مضمون . ومهما يكن من أمر فإن روزفلت كان مقتنعاً بأن انتخاب سمث رئيساً أمر مرغوب فيه ، ولولا اقتناعه هذا لما بذل ما بذل في سنة ١٩٢٤ أولاً وسنة ١٩٢٨ ثانياً لتأييد ترشيحه عن الحزب الديمقراطى . وإذن فروزفلت الوطنى المقتنع هذا لا يقتناع ، لا يستطيع أن يأبى طويلاً ، التضحية باحتمال شفائه التام ، إن كان في تلك التضحية تعزيز لمقام سمث في الانتخاب المقبل . فقبل أن يرشح عن الديمقراطيين لمنصب حاكم الولاية .

وكانت النتيجة ، أن فاز روزفلت بالنيماز نيويورك إليه في انتخاب الحاكم بأكثرية ٢٥ ألف صوت ، وخسرها سمث في انتخاب الرئيس ، وخسر الانتخاب في الاتحاد إجمالاً ، إذ فاز هوثر عليه .

حاكم ولاية نيويورك —حكام سائر الولايات السبع والأربعين — رئيس دولة ورئيس وزارة في آن ، في النطاق الذي يبيحه له دستور الاتحاد . وولاية نيويورك مساحة أرضها ٤٧,٦٥٤ ميلا مربعا ، وعدد سكانها بحسب إحصاء ١٩٣٠ يزيد على اثني عشر مليوناً ونصف مليون نسمة ، ومن المحتمل أنه أوفى على خمسة عشر مليوناً في إحصاء ١٩٤٠ وميزانية حكومتها سبعون مليوناً من الجنيهات في السنة العادية . والولاية صناعية وزراعية . فبحسب إحصاء سنة ١٩٣٠ كان عدد المزارع فيها نحو ١٦٠ ألفاً ، ومساحتها نحو ١٨ مليوناً من الأفدنة ، أو نحو ٥٩ في المائة من مساحة أرض الولاية . وبلغ الدخل العام من الحاصلات الزراعية عشرين مليوناً من الجنيهات في سنة ١٩٣٠ وأربعين مليوناً أو أكثر قليلاً من الماشية . ولتمثيل على موارد نيويورك الزراعية تكفي الإشارة إلى أن إنتاج اللبن الحليب في سنة ١٩٣١ أربى على سبعة آلاف مليون رطل ، وأن محصول الذرة في سنة ١٩٣٢ بلغ نحو ٢١ مليون بوشل ، ومحصول الحنطة في السنة نفسها بلغ ٢٢ مليون بوشل ، والعنب ٦٨ ألف طن ، والكرنب ٣٠٠ ألف طن . وكان عدد الحيوانات الزراعية في أول يناير سنة ١٩٣٢ يشمل ٣٠٣,٠٠٠ فرس و ٦,٠٠٠ بغل ومليوناً ونصف مليون بقرة حلب و ٤٧٣ ألف رأس ضأن و ٢٠٥ آلاف خنزير وأربعة عشر مليوناً ونصف مليون دجاجة . إنها في الواقع دولة زراعية كبيرة .

أما الصناعة ، فمنها استغلال الموارد الطبيعية ومنها المصانع ، وقد بلغ عدد المنشآت الصناعية فيها سنة ١٩٢٩ تسعة وثلاثين ألفاً أو تزيد ، وكان عدد عمالها مليوناً ومائة وخمسة آلاف .

وفي الولاية مدينة نيويورك المشهورة بناطحات السحاب ، وهي في المرتبة الأولى

بين مرافئ العالم ، وقد بلغت قيمة الواردات التي دخلته في السنة المالية التي تنتهي في ٣٠ يونيو ١٩٣٢ أقل قليلاً من ألفي مليون ريال ، وقيمة الصادرات منه أكثر قليلاً من ١٦٠٠ مليون ريال .

وكان في الولاية في سنة ١٩٣٢ ثلاث وثلاثون جامعة وكلية وثمانى عشرة مدرسة للفقه الدينى وعشر مدارس للقانون وسبع مدارس للتربية وإحدى عشرة مدرسة للطب وثلاث لطب الأسنان واثنى عشرة للهندسة ، وهكذا .

هذه حقائق يسيرة متفرقة عن ولاية نيويورك توضح أولاً أن منصب حاكمها منصب عظيم الشأن ، وأنه يتيح لشاغله فرصة نادرة للتمرس بعلاج المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخاصة بالولاية ، وأن عليه أن يوازن موازنة دقيقة بين مصالح أصحاب الصناعة ورجال الأموال من جهة ، وهى مركزة على الأكثر في منطقة المدينة ، وبين أصحاب المصالح الزراعية المنتشرة في جميع أنحاء الولاية . فالحاكم يعدو بحكم منصبه ، بين الأقطاب المنظور إليهم في حزبه ، الذين يُحسب لهم حساب في الترشيح للرئاسة عن الحزب ، لأن للولاية حقاً في إرسال وفدٍ عدد رجاله أربعة وتسعون ، إلى مؤتمر الحزب الذى يتولى الترشيح للرئاسة والوكالة ، وهذا الوفد يكون على الغالب ، برئاسة الحاكم أو يتلقى الأمر منه ، أو يقيم وزناً كبيراً لآرائه ورغباته .

في اليوم الأول من سنة ١٩٢٩ احتفل بتنصيب فرنكلن روزفلت حاكماً لولاية نيويورك ، ثم أعيد انتخابه حاكماً في خريف سنة ١٩٣٠ أى أنه قضى حاكماً للولاية أربع سنوات . وقد وُصِفَت أعماله في خلال هذه المدة بأنها كانت متممة بسمّة « الثورة » ولكن كل من يطالع المجلد الأول من أوراقه الرسمية في أثناء هذه المدة يتبين أن فرنكلن روزفلت كان أدقّ فهماً لروح الدستور الأمريكى من ناقديه ، وأنه كان أجراً من أسلافه حكام ولاية نيويورك في سعيه إلى تجسيم هذا الروح في

حكومة الولاية . إن روح الدستور الأميركي مُفَرَّغٌ أبلغ إفراغ وأبسطة في عبارة لنكن المشهورة في خطبة جتسبرج « حكومة الشعب من الشعب للشعب » . ولكن التيار في هذه الولاية — بل في الحكومة الاتحادية كذلك — كان متجهاً منذ العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر، إلى الانصراف عن « حكومة الشعب من الشعب » وإلى تركيز مرجع الحكم الفعلي في أيدي أصحاب المصالح المالية والصناعية الكبيرة أو في رغباتهم . وقد حاول ثيودور روزفلت وودرو ولسن الحد من سلطان هذه الطوائف ، ولكنها على الرغم من ذلك نَمَتْ نموّاً عجيباً ، واتسع نطاق سلطانها وتمكّن ، وغدّت قابضة على ناصية الحياة الاقتصادية في الأمة لأن أسباب الاعتماد المالي (Credit) كانت في أيديها . فعند ما أقبل فرنكلن روزفلت على سعيه للحد من هذا السلطان ، لم يكن مناوئاً للنظام الرأسمالي ، ولكنه كان مناوئاً لهذا النبات العجيب الغريب الذي نبت في تربة النظام الرأسمالي . والواقع أن روزفلت سعى ، عند ما كان حاكماً لولاية نيويورك ثم عند ما تقلّد رئاسة الولايات المتحدة ، إلى تعزيز النظام الرأسمالي وتأييده ، بتطهيره من هذه الآفة التي طرأت عليه ، وتغلّغت فيه . وسنزيد هذا بياناً عند الكلام على نظام « التوزيع الجديد » في الفصل الرابع .

وإذن يصح أن يقال إن عمل روزفلت لم يكن ثورةً كما أراد خصومه أن يصفوه ، وإنما كان عَوْداً إلى لباب الديمقراطية الصحيحة كما أراده واضعو الدستور ، ووصفه لنكن ، وكما يجب أن تكون الديمقراطية الصحيحة .

وقد يكون من وضع الشيء في غير محله ، أن نتولّى بالتفصيل في هذه الصفحات وصف النضال الذي دار بين روزفلت وهو حاكم ولاية نيويورك وبين أصحاب المصالح المالية والصناعية الكبيرة . ولكن إذا كان التفصيل متعذراً هنا ، فالإجمال لا مفر منه ، لأن فهم روزفلت وسياسته الاقتصادية والاجتماعية لا يستقيم إلا إذا عُرِفَت المبادئ التي توخى تطبيقها في هذا الميدان من الإصلاح السياسي والاجتماعي .

أما المبدأ الأول ، فهو أن الأعمال المالية الكبيرة يجب أن تستمد — كالحكومة — سرّ كيانتها ، من كونها خادمة الشعب .

وأما المبدأ الثاني ، فهو أن نشاط الشركات الكبيرة لا يجب أن ينهض على مدى ما تستطيع أن تتقاضاه من الشعب ثمناً لما تسديه إليه من خدمات ، بل على أعظم خدمة تستطيع أن تسديها إلى الشعب بأقلّ ربحٍ مستطاعٍ كافٍ لتأمين ربحٍ معقولٍ للمال ، وأجرٍ وافيٍّ للعمال .

وأما المبدأ الثالث ، فهو أن رأس المال لا يكون له أساسٌ أدبيٌّ اجتماعيٌّ يسوّغ وجوده وما له من امتياز ، إلاّ إذا كان يستعمل في خدمة الشعب ، ولذلك فحشد الثروات الضخمة منافعٌ للأدب والاجتماع والمصلحة العامة .

أما المبدأ الرابع ، فهو أن التشريع يجب أن يستند إلى مشيئة الشعب المتنورة المهذّبة ، دون رغبات الجماعات التي تمثل أصحاب المصالح الخاصة . وإذا كان التشريع قد أباح مزايا خاصة لجماعات خاصة ، فهذه المزايا يجب أن تخضع للمراقبة العامة .

أما المبدأ الخامس ، فهو أن منح شركةٍ ما امتيازاً أو حقاً في استغلال منابع نفطٍ أو توليد طاقةٍ من ماءٍ منحدراً أو ما أشبه ، إنما هو في منزلة أمانة شعبية تودّع في أيدي الشركة ، فيمتعين عليها ألاّ تبذر الموارد ، وألاّ تتقاضى من الشعب إلاّ جعلاً معقولاً لقاء حقّ الشركة في استغلال موارد هي في الواقع ملك الشعب .

أما المبدأ السادس ، فهو أن الملكية الخاصة للمرافق العامة يجب أن تستنكر بوجه عام ، وأن تحلّ محلّها الملكية العامة على قدر الطاقة .

أما المبدأ السابع ، فهو أن كلّ نزاع يقوم بين المصلحة العامة وبين المصلحة الخاصة يجب أن يُحسَم بإذعان الثانية . فإذا لم تفعل ذلك اختياراً فيجب أن تُفسَّر عليه بالتشريع ، أو بقرار حكومي .

أما المبدأ الثامن ، فهو أن المال بحدّ ذاته لا يتيح لصاحبه امتيازاً ما في التشريع .

ولكن إذا كان المال يستغل في سبيل النفع العام فيجوز عندئذ أن يجزى صاحبه بامتياز ما . ولكن الامتياز في الأصل يجب أن يكون من حق الشعب فهو يعطى وهو يأخذ

أما المبدأ التاسع ، فهو أن أعمال الشركات الكبيرة يجب أن يكون التفتيش عليها مباحاً لممثلي الشعب ، وإذا لزم وجب أن تنال موافقتهم .

جميع هذه المبادئ تستخلص من أعماله ومقترحاته التشريعية خلال المدة التي تولى فيها منصب الحاكم في ولاية نيويورك . وهي مبدولة في قوالب شتى في الجزء الأول من أوراقه الرسمية ، وهو يشمل أكثر من ثمانمائة صفحة كبيرة ، وقد جعل عنوان هذا المجلد « تحدر نظام التوزيع الجديد » The Genesis of the New Deal . ولعل لباب هذه المبادئ جميعاً مُفرغٌ أبلغ إفراغ في عبارة واحدة صافية كالبلور ، تضمنتها رسالته الى الكونغرس الأمريكى في شهر ابريل سنة ١٩٣٨ قال : « إن الغرض هو المحافظة على نظام الجهد الفردى في ميدان الأعمال بإطلاق حرّيته لاستغلال مواردنا في العمل ورأس المال . ثم قال : إن تركيز السلطان في أيدي الأفراد أو الهيئات الخاصة بلغ الآن مبلغاً لا مثيل له في التاريخ . والعبرة الوحيدة التي تستخرج من الحوادث في البلدان الأخرى هو أن حرية دولة ديمقراطية ما لا بدّ أن يحفّ بها الخطر إذا تسامح الشعب في نموّ السلطان الخاص حتى يبلغ مرتبة تجعله أقوى من الدولة الديمقراطية نفسها » .

وقد أشار إلى الموضوع نفسه في ختام الخطبة الأخيرة التي خطبها قبيل انتخاب الرئاسة في شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٦ قال : « لقد تعيّن علينا أن نكافح أعداء السلام : — الاحتكار التجاري والمالى ، والمضاربة ، وأعمال البنوك المتهورة ، والجفاء بين الطبقات ، والاستغلال . هؤلاء — الأعداء — بدأوا يعدّون حكومة الولايات المتحدة الأميركية مجرد ذيل لأعمالهم ومصالحهم . ولم يسبق في التاريخ أن احتشدت

هذه القوَى كما هي محتشدة اليوم ضدَّ مرشح واحد . إن أصحابها مجمعون على مَقْتَى ، وأنا أرحب بمَقْتَهُم ... وإنه ليسرَّنِي أن يقال إن قوَى الأثرة والجشع قد لقيت في رَأْسِي الأولى ندًا لها ، وفي رَأْسِي الثانية سيدها » .

وإِنِّي لأذكر أن مجلة « هاربرز » المشهورة نشرت في أحد أعدادها الصادرة في صيف سنة ١٩٣٦ — وهي السنة التي انتُخب روزفلت في خريفها ثانية للرأسة — مقالا عنوانه « لماذا نمت روزفلت ؟ »

ويروى باسيل وون أحد مؤرخي سيرة روزفلت أنه عاد الى الولايات المتحدة في ربيع سنة ١٩٣٩ ودخل « بار اليتز » في شارع ماديسون فسمع أقوالاً من الأغنياء الذين يختلفون إليه ، في حقَّ روزفلت لم يكذب صدق أنه يسمعها . وكان أحد المتكلمين مليونيراً يصنع زوارق سباقٍ فقال : « إن عيبنا اننا لسنا مقادير . ولو كنا ، لأطلقنا الرصاص على هذا الرجل » فردَّ عليه شيخ وهو مدير مصرف لم يستطع أن يثبت سلامة مصرفه في سنة ١٩٣٣ : « إن إطلاق الرصاص عليه قليل . يجب أن يسلق في الزيت » . فالتفت وون الى صاحبه وقال له : « أيتكلم هؤلاء عن رئيس الولايات المتحدة ؟ » فردَّ عليه وهو سمسار : « أتعنى ذلك — الذي في البيت الأبيض ؟ نعم . ويحسن بك أن تصغى اليهم عند ما يشددون النكير عليه . . » . ويقول ألن مؤلف كتاب « منذ أمس » : إن من الروايات التي كان خصومه يشيعونها عنه أنه مخبول فيقولون مثلاً : « تساوره أوهام العظمة فيظن أنه فرنكلن دلائو روزفلت » . أو أنه شموعي : « إنه يوسف ستالين آخر — ولكنه أسوأ وأضلُّ سبيلاً » أو « إنه خائن طبقته » أو « إن أسرته ثمة دائماً وإن مسز روزفلت تدبّر ما يلزم لتخلف زوجها إلى أن يحين الوقت ليتقلدأ بناؤها الزمام » . وهذه الأقوال هي ما يستطيع نشره من عديد الروايات السخيفة .

فإشارة روزفلت في الفقرة التي تقدّم نصّها واضحة لمن تتبع الحملة الشديدة التي

شنتها عليه هيئات المصالح المالية الكبيرة ، وهي الحملة التي تبلورت في عنوان المقال المشار إليه في مجلة هاربرز .

أما الشركات الكبيرة التي تستغل المرافق العامة كالطاقة الكهربائية والنور الكهربائي فلم تقبل من الحاكم الجديد هذه المبادئ والمشروعات القائمة عليها بغير أن تحرك ساكناً . فكأخفته بكل ما تملكه من وسيلة ، زاعمة أن ما تتقاضاه من الجمهور من أجور ليس مبالغاً فيه . وأشارت إلى كفاءتها في خدمة الجمهور . فكان رد روزقلت على هذا الزعم رداً عملياً ، إذ وضع مشروعاً لتوليد الطاقة الكهربائية من مياه نهر سانت لورنس . وقال إن هذا المشروع سيكون مقياساً لما يتعين على الشركات الخاصة أن تتقاضاه . ولما كانت هذه الشركات تولد خمسة أسداس الطاقة المستهلكة في ولاية نيويورك ، فلا يمكن أن يُعدَّ مشروعه منافساً لها ، ولكنه مرشد ومعياري . وفي هذا العمل إنصاف للشعب وللشركات نفسها .

وسواءً أُنصفاً كان مشروع روزقلت هذا أم غير منصف ، فإن الشركات لم ترضه ، وقاومته مقاومة عنيفة ، وأنفقت في سبيل مقاومته والخط من قيمة روزقلت ، ملايين من الريالات . ولما كانت عاجزة عن اتهامه في استقامته ، اتهمته واتهمت مشروعاته بأنها أوهام تطوف بذهن حالم ، وليس لها أساسٌ عمليٌّ تنهض عليه . ولكن روزقلت أثبت أن حسه العملي أدق من حس خصومه . وإذا كان ، كما زعموا ، من رجال الخيال والأحلام ، فإنهم عجزوا عن أخذه وهو نائم . وعلى الرغم من أن الهيئة التشريعية في الولاية كانت معارضة له ، فإنه فاز في آخر الأمر بالموافقة على المشروع ، وعلى تنفيذ طائفة كبيرة من آرائه ومشروعاته .

وكذلك كانت ولاية نيويورك مجالاً للاختبار في الإصلاح العام . وليس من المبالغة في شيء أن يكون عنوان المجلد الأول المحتوي على أوراقه ورسائله في أثناء هذه السنوات « تحدر نظام التوزيع الجديد » قبل أن وُلد لفظاً « التوزيع الجديد »

واستعملا في السياسة الاميريكية . وكثيراً ما نراه بعد توليه الرئاسة يشير إلى تجاربه في ولاية نيويورك عند ما يريد تأييد ناحية من نواحي مشروعاته العامة الجديدة ، فيقول : « في ولاية نيويورك فعلنا كذا وكيت » أو « علمتنا التجارب في ولاية نيويورك كذا وكيت » .

في خلال هذه المدة وجه روزفلت جانباً كبيراً من عنايته إلى مشكلات الفلاح . وكان مبدؤه أن « الزراعة السليمة ركن هام للنظام الاقتصادي السليم » وكان الفلاح في نيويورك مُهملاً بوجه عام لطغيان الاهتمام بمصالح الهيئات المالية والصناعية المركزة في مدينة نيويورك ورغبة المشتغلين بالسياسة في الفوز بتأييد هذه الهيئات القوية . وليس ثمة ريب في أن حالة الفلاحين هذه ، كان مردُّ بعضها إلى امتناعهم عن التعاون في سبيل المصلحة العامة . ولكن الجانب الأكبر مردُّه الى امتناع الحكومة عن النهوض بالتبعة الواقعة عليها . وإذا كان أسلافه في المنصب قد جعلوا من حالة الفلاح مسألة سياسية للمساومة ، فإن روزفلت ، وقد أدرك في شبابه مشكلات الفلاح — لأنه عالج نواحي منها بنفسه بعد ما تعلمه منها من والده — عزم عزمًا قاطعاً على أن يواجهها مواجهة حازمة . فقرر أن يتبع مبدأين : أما الأول فالأراضي التي لا يمكن استغلالها بحكم طبيعتها استغلالاً اقتصادياً موقفاً ، يجب أن تمنع الزراعة فيها وتحول أراضي للتخريج . وأما الثاني فالأراضي التي يمكن استغلالها بحكم طبيعتها استغلالاً اقتصادياً موقفاً ، يجب أن تشق لها الطرق التي تصل بينها وبين الأسواق التي تباع فيها المحصولات ، وأن تجهز بجميع أسباب الحياة الرضية من طاقة كهربية وخطوط مواصلات تلفونية ومستشفيات ومدارس وما أشبه . فالحكمة الاقتصادية تقضي بالانصراف عن بذل الجهد في أراضٍ لا تغلُّ ، وتمهيد الطرق لاستغلال الأرض الصالحة استغلالاً أوفى .

كان روزفلت في مقترحه هذا على الطريق القويم . ولكن خصومه أبوا إلا أن

يناوئوه مناوأة سياسية عندما عجزوا عن نقد مشروعاته وانتقاصها . ولكنهم وجدوه في المعتك السىاسى أدهى مما كانوا يتوقعون . فروزقات المصلح لم يكن ضعيف الحس السىاسى ، فلم يندفع وراء الاصلاح إلا بعد أن تسلّح بالحقائق . فمسح الأراضى ، ليعرف الصالح منها وغير الصالح . وعند ما ملك الحقائق بين يديه تقدم بها الى الهيئة التشريعية والى الشعب كذلك . فاقترح تعديلاً دستورياً يبيح للهيئة التشريعية أن ترصد عشرين مليوناً من الدولارات لشراء الأرض غير الصالحة ، وتحويلها الى التجرىج ، لأنه من العبث أن يكدّ الفلاح ويضئ فى محاولة استغلالها استغلالاً اقتصادياً موفقاً . ففى محاولة من هذا القبيل تبذير فى طاقة الشعب وصحته وماله .

فارتفعت الصيحة بأن هذا الرجل « اشتراكى مستتر » وأنه يسعى الى جعل نيو يورك قطعة من روسيا . ولكن الإصلاح على طريقة روزفلت لا يعنى فرضه على الشعب فرضاً بل يعنى تعليم الشعب مزاياه ، لأنه يؤمن بأن الديمقراطية لا يمكن أن تستتب إلا إذا فهم الشعب المشكلة التى يواجهها ، وأدرك منافع الإصلاح المقترح . وقد كتب قبلاً « إن الواجب الأول على السىاسى أن يرشد ويعلم لا أن يحكم ويتحكم » . ولذلك عمد روزفلت الى مجلة زراعية فبسط فيها مشروعه . وقد قال فيها ، إن أحداً لن يقسر على الخروج من أرضه بالقوة ، ولكنه ذهب فيها فى الوقت نفسه الى أن طائفة كبيرة تفضل أن تباع أرضاً لا تستطيع أن تستغلها إلا بشق النفس ، لتبدأ حياة جديدة فى مكان آخر يواتيها فيه النجاح والتوفيق . وقد صرح ما توقعه من هذا القبيل . وعند ما نقدت الأسس الاقتصادية لمشروعه ، أثبت أن ما تنفقه الحكومة (حكومة الولاية) فى شراء الأراضى غير الصالحة للاستغلال الزراعى الموفق لن يذهب سدى بل ستسترده أضعافاً من طرق الاقتصاد فى المال الذى ينفق إعانة لهذه الأراضى ، ولصيانة الطرق الممتدة فيها (نحو ألفى ميل من الطرق تكلف صيانة كل ميل منها مائة ريال) وإلغاء مائتى مدرسة وألف ميل من خطوط التلفون والتلغراف والأسلاك

التي تسرى فيها الطاقة الكهربائية في المناطق التي ينتظر هجرها . وليس هذا التوفير هو كل ما تكسبه الحكومة ، بل هناك قيمة الخشب الذي يؤخذ من الحراج . قال : « وهذه خطة من شأنها أن توجه شعبنا الى المواقع التي تتاح لهم فيها أعظم فرص النجاح » ذلك بأن رضاء الفرد ورغده ، هما الألف والياء في كل إصلاح دعا روزفلت إليه .

وثمة ناحية ثالثة تدلك على القالب الذي أفرغ فيه روزفلت . فقد كان المجلسان التشريعيان مناوئين له . فلم ينزل الى استمالتهما عند ما كان الخلاف بينه وبينهما على مبدأ . بل كثيراً ما كان يعمد الى التحدى والهجوم . فالعادة في ولاية نيو يورك كانت قد جرت بأن تعنى لجنة مؤلفة من أعضاء الهيئة التشريعية بوضع ميزانية الحكومة ، ثم تقر وتعرض على الحاكم لتوقيعها . فعمد روزفلت إلى عكس ذلك وطلب إلى الهيئة التنفيذية أن تعد الميزانية (كما يحدث في البلدان البرلمانية مثل بريطانيا ومصر) ثم تعرض على المجلسين للموافقة عليها بعد مناقشتها . فاشتد الاعتراض عليه ، وعمدت الهيئة التشريعية الى تعديلها تعديلاً ، ترك الميزانية الأصلية شبحاً هزيلاً ثم أقرتها بعد التعديل مناوأة ونكائية . فكان رد الحاكم روزفلت ، أن طلب إلى المحكمة العليا في الولاية الفصل في الأمر . وإليها مرّد الفصل في الخلافات الدستورية . فذهل خصومه لجراته ومفاجأته . وحكمت المحكمة بأن ما فعله الحاكم لا اعتراض عليه مطلقاً من الناحية الدستورية . فأذعن المجلسان التشريعيان .

هذه نواح من عمل روزفلت عند ما كان حاكماً لولاية نيو يورك بين سنة ١٩٢٩ و ١٩٣١ وهي تشهدنا على خلقه وأغراضه السياسية العليا . وقد أعرب أهل الولاية إعراباً لا ريب فيه عن موافقتهم على أعمال حاكمهم واتجاهاته ، إذ أعادوا انتخابه حاكماً في نوفمبر سنة ١٩٣٠ بأكثرية فاز بها حاكم ما وهي أكثرية ٧٢٥٠٠١ صوت . بينما كانت أكثريته في الانتخاب الأول لا تزيد على ٢٥ ألفاً . (وهو

يقول ضاحكاً عند ما يتحدث عن نتيجة الانتخاب الثانى : إن ذلك الصوت الواحد فى رقم ٧٢٥٠٠١ إنما هو الصوت الذى ألقاه هو لنفسه) .

عند ما انتُخب روزقلت ثانية (١٩٣٠) حاكماً لولاية نيويورك ، ارتفع مقامه بين أقطاب الحزب الديمقراطى الذى يحتمل ترشيحهم عن الحزب للرئاسة فى سنة ١٩٣٢ . فقد كان من أسرة عريقة شهر اسمها ثيودور روزقلت الرئيس الأسبق . وكان حاكماً لأكبر ولاية بين الولايات الثمانى والأربعين ، وقد أعرب شعبها عن موافقته على سياسته بأكثرية (فى الانتخاب الثانى) لا مثيل لها . وكان خطيباً مجيداً استحدث بين الأساليب السياسية أسلوب توجيه النداء إلى الشعب ومخاطبة أفرادهم على أنهم أصدقاء له ورفاق . فكان من المعقول أن يتجه إليه أقطاب الحزب لترشيحه عن الحزب للرئاسة فى سنة ١٩٣٢ . ولكنهم مع ذلك انصرفوا عن ذلك ، أو انصرف فريق كبير منهم وهو الفريق المنظم ، إلى تأييد آل سميث الذى رشحه روزقلت قبلاً فى سنة ١٩٢٤ فلم يفز بالترشيح الحزبى ، ثم رشحه فى سنة ١٩٢٨ ففاز بالترشيح الحزبى وأخفق فى الانتخاب العام .

كان سميث كاثوليكياً نشأ بائع صحف فى أفقر أحياء نيويورك (الجانب الشرقى — إيست سيد) ثم دخل ميدان السياسة فتدرّج رقيّاً فى هيئة الحزب الديمقراطى بمدينة نيويورك (تامانى هول) ثم انتُخب عضواً فى الهيئة التشريعية فى عاصمة الولاية (آلبنى) فزعماً للهيئة الديمقراطية فيها ، ثم انتُخب حاكماً لولاية نيويورك أربع مرات فكان حاكماً فاز بالولاء والاحترام . ففى سيرته كثير من العناصر التى ترفع من مقام الرجل بين الأميركيين . ولكنه بعد ترشيحه للرئاسة فى سنة ١٩٢٨ وإخفاقه فى الانتخاب عُيّن رئيساً لمجلس إدارة الشركة الكبيرة التى تدير أعلى ناطحات السحاب

في نيويورك (إمبير بلدنج) ومع ذلك لم ينصرف عن السياسة . فبحكم الوضع السياسي الأميركي ظلّ زعيماً رسمياً للحزب الديمقراطي ، كما أن وندل ولُكي هو الزعيم الرسمي للحزب الجمهوري الآن . وهو الذي اختار أعضاء اللجنة القومية للحزب عند ما رشح للرئاسة ، فهم يأتمرون بأمره أو يجارونه على الأقل . فسمت في سنة ١٩٣٠ كان رجلين — أحدهما رجل يُعدُّ بين كبار رجال الأعمال في مدينة نيويورك ورجال الأعمال يوافقون عليه لأنه منهم ، والآخر سياسيُّ عالى المقام في الحزب الديمقراطي ، لا تزال نزعته إلى الرئاسة قوية فيه . وقد حاول سمت في بدء عهد روزفلت في حكم ولاية نيويورك أن يسدى إليه نصحاً بأن لا يشتدَّ في تحدّي الهيئات المالية الكبيرة ، ولكن روزفلت أبى أن يأخذ بنصحه ، فنشأ في البدء فتور بين الصديقين ، ثم لما ظهر مقام روزفلت بعد انتخابه ثانية لمنصب الحاكم ، وبدا أنه يطمح إلى الترشيح عن الحزب للرئاسة في سنة ١٩٣٢ تحوّل الفتور عداءً لدوداً . وقد كان سمت صريحاً في إعلان عدائه . وليس هناك ما يثبت أن روزفلت بادله العداء . ولكنه احتفظ باستقلاله . وقد اتهم روزفلت بإنكار الجميل حيال سمت لأن سمت هو الذي ألحَّ عليه في قبول الترشيح لمنصب الحاكم في سنة ١٩٢٨ . ولكن سمت فعل ذلك ، كما تقدم معنا ، لأنه كان يعتقد أن ترشيح روزفلت يسدى إليه خدمة في انتخاب الرئاسة . وعلى كل حال اتسعت الهوة بين الصديقين . وكان أصحاب سمت من رجال « تاماني هول » وأعضاء اللجنة الديمقراطية يمتقنون روزفلت مقت رجال المال والأعمال الكبيرة إياه . وكانوا يفضلون انتخاب رئيس من الجمهوريين على انتخابه رئيساً . ذلك بأنهم قوم كانوا في ميدان السياسة لجنّى ما يستطيعون جنّيه منه على الأكثر . وأمّا روزفلت فكان مكتفياً بما يملكه من حطام الدنيا ، وإنما أراد السياسة وسيلة إلى خدمة الشعب . فالسياسة في نظره وسيلة ، وفي نظرهم غاية . وعلاوة على ذلك لم يغتفروا لروزفلت أمرين — أولهما إخراج صديقهم « ووكر » محافظ مدينة نيويورك

من منصبه عند ما فضحت أعماله ، وثانيهما أنه اتخذ مستشاريه في الاجتماع والانتقاد من جماعة الأساتذة ، بدلاً من رجال الحزب نفسه . وكان بعض هؤلاء المستشارين من الجمهوريين مثل « وينانت » وهو السفير الأميركي في بلاط سانت جيمز (لندن) . والواقع أن تنكُّر هؤلاء السياسيين الديمقراطيين في نيويورك لروزفلت ، كان مزية له ، على رغم شدة معارضتهم لمطامحه السياسية . ذلك بأن مشروعات روزفلت في آلبنى ، وخطبه ، ومناوأة هذا الطراز من السياسيين النفعيين له ، وجّه إليه أنظار جماعة كبيرة من أصحاب الآراء والأفكار الحرة ، في الاجتماع والاقتصاد والسياسة . ومن كان منهم لا يعرفه ، سعى إلى التعرف إليه . فبعضهم وافق على ما أعلنه من آراء ومبادئ ، ومنهم من رأى فيه زعيماً قد يستطيعون إقناعه بتبني آرائهم ومبادئهم الخاصة ، وبعضهم نزع كما ينزع كثيرون إلى السير في ركاب رجلٍ ماضٍ إلى القمة . أما روزفلت ، فكان يختار الخبراء ويستشيرهم في كل مسألة من المسائل الاجتماعية والاقتصادية المعقّدة التي تعرض له . وكان السواد منهم من علماء الاقتصاد ، لأن معظم المشكلات التي كانت تواجهه ، مشكلات اقتصادية . وبينهم أساتذة من جامعات هارفرد وبرنستون وكورنيل ويال وكولومبيا وغيرها من معاهد التعليم العالي . وهذه الجماعة من الخبراء هي التي أطلق عليها روزفلت أولاً اسم « مجلسي الخاص » ثم وصفها كيران في جريدة نيويورك تيمس بلفظي « أهل الفكر » أو « أهل الرأي » Brains Trust

هذه الهيئة كان قوامها في المقام الأول ريموند مولى وركسفورد تجُول وأدولف برل وهم من أساتذة الجامعات ، ثم روزنمن وأوكونور من رجال القانون ، وهيو جنسن وتوسيج من رجال الأعمال . واستعانة مرشحي الرئاسة أو الرؤساء بأصحاب الرأي ليست شيئاً جديداً في تاريخ الرئاسة الأمريكية . ولكن الشيء الجديد في هذه الهيئة ، أنها لم تضم فيها أحداً من المشتغلين بالسياسة . فمهمتها في نظر روزفلت كانت إعانتة

على التفكير ، وعلى استيضاح الأفكار التي تخطر له ، في شتى المسائل المعقدة التي تمت إلى الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي . وغير صحيح ما يقوله فريق من أن ذهن روزفلت كان مجذباً ، فاستعان بهؤلاء ، ولا ما يقوله الفريق الآخر من أن روزفلت أرادهم — أو أراد معظمهم — أن يكونوا في منزلة سكرتيرين كبار ، يعيدون طبع ما يكتبه من رسائل ويبحثون له في المطولات عن الحقائق والإحصاءات التي يحتاج إليها .

والغالب أن روزفلت كان يقلب في ذهنه ما يخطر له من آراء ، فإذا استجد رأياً منها حدثت زوجه وهاوٍ فيه . وكانت زوجه تعرب عن رأيها فيه من ناحيته الإنسانية ، ومقياسها « ما نفعه ؟ » . أما هاوٍ فكان ينظر فيه من الناحية السياسية العملية ، وهل في الوسع تطبيقه . فإذا خالفه أحدهما أو كلاهما ، حاول روزفلت أن يقنع الخالف أو المخالفين معاً . فإذا عجز عن الإقناع انصرف حيناً عن الرأي ثم يعود إليه . ذلك بأن روزفلت على ثقته بنفسه لم يكن عنيداً أحق . فإذا امتنعت زوجه الذكية أو صديقه الحكيم عن الموافقة على رأى ما ، فلا بد أن يكون هناك اعتراض كبير عليه ، أو خطأ أساسى فيه . وإذا كان هذا صحيحاً ، فجدى به أن ينصرف عنه إلى أن يزيل الاعتراض أو يصحح الخطأ . أما إذا وافقه على الرأي ، فعندئذ يعرضه على الخبراء للنقد والتمحيص والتفصيل .

وقد استعان روزفلت بهؤلاء الأساتذة في أثناء حكمه ولاية نيويورك — في نطاق محدود — ثم في أثناء حملة الانتخاب للرئاسة ، وبعد انتخابه ذهب فريق منهم معه إلى واشنطن ، مع أن المقررين منهم إليه تبدلوا تبديلاً كثيراً .

الفصل الرابع

نظام « التوزيع الجديد »

١ — انتخاب الرئيس في الدستور والعرف

٢ — ترشيح روزقلت وانتخابه

٣ — أزمة . . .

٤ — فلسفة « التوزيع الجديد »

٥ — الرئيس والمحكمة العليا

تختلف دساتير الدول الجمهورية في طريقة انتخاب الرئيس ، ومدة رأسته ، وتجديد انتخابه . فجمهورية فرنسا المعروفة بالجمهورية الثالثة كانت تنتخب رئيسها باقتراع في مجلسي الشيوخ والنواب مجتمعين في هيئة مؤتمر . ومدة الرئاسة سبع سنوات لا مانع دستوري من تجديدها ، ولكن جرى العرف على عدم تجديدها . ومع ذلك فعندما قضت المصلحة بهذا التجديد جددت رئاسة المسيو لبران في سنة ١٩٣٩

وفي جمهوريات أخرى ينتخب الرئيس باقتراع شعبي عام مباشر كما في بعض جمهوريات أميركا الجنوبية ، ومنها ما يحظر دستورها تجديد انتخاب الرئيس بعد توليه الرئاسة مرة واحدة كال مكسيك ، ومنها ما يسمح باعادة انتخابه بعد بقاءه مدة رئاسة كاملة على الأقل خارج الحكم .

أما في الولايات المتحدة الأميركية ، فطريقة انتخاب الرئيس معقدة تعقيداً كبيراً ، لأنها بحسب الدستور انتخاب على درجتين ، ولكنها في الواقع انتخاب مباشر . والطريقة التي يتم بها الانتخاب بحيث يكون مباشراً ولكن بغير أن يهمل النص الدستوري ، هي التي تجعل انتخاب الرئيس الأميركي موضع ظن وتأويل خاطيء عند من لم يتعمق في دراسة النظم الدستورية الأميركية .

ينص الدستور الأميركي على أن وحدة انتخاب الرئيس في الجمهورية الاتحادية هي الولاية ، وفي الجمهورية الأميركية ثمان وأربعون ولاية ، متفاوتة مساحة وعدد سكان ، ولكل ولاية الحق في أن تختار عدداً محدوداً من أبنائها ليكونوا أعضاء في

ما يسمى عندهم « مجمع الانتخاب » Electoral College أى ليكونوا ناخبين للرئيس . وهذا العدد متفاوت لأنه يعدل مجموع الذين يمثلون الولاية فى مجلس النواب والشيخوخ فى العاصمة الاتحادية وشنطن . وأساس التمثيل فى مجلس النواب عدد السكان . أما التمثيل فى مجلس الشيخوخ فجميع الولايات متساوية فيه ، لكل منها ، كبرت أو صغرت ، شيخان يمثلانها فيه .

فلولاية نيويورك مثلاً خمسة وأربعون ممثلاً أو نائباً فى مجلس النواب وممثلان فى مجلس الشيخوخ . فلهذه الولاية أن تنتخب سبعة وأربعين عضواً فى « مجمع انتخاب الرئيس » أى سبعة وأربعين ناخباً للرئيس . ولولاية كاليفورنيا عشرون ممثلاً أو نائباً فى مجلس النواب ومثلان فى مجلس الشيخوخ ، فلها أن تنتخب اثنين وعشرين ممثلاً عنها أعضاء فى « مجمع انتخاب الرئيس » أو اثنين وعشرين ناخباً للرئيس .

ومجموع عدد أعضاء « مجمع انتخاب الرئيس » أى عدد ناخبى الرئيس فى جميع الولايات ٥٣١ عضواً أو ناخباً ، فالأكثرية التى يجب أن يفوز بها مرشح ما للرئاسة ، لكى ينتخب هى ٢٦٦ صوتاً .

والدستور ينص على أنه بعد ما تنتخب الولايات ناخبها يتعين عليهم أن يجتمعوا فى عاصمة الولاية ، وأن يكتبوا اسمى رجلين ليسا من ولاية واحدة ويضعوهما فى ظرف ويختم وينقل الى عاصمة الاتحاد — أى وشنطن — فيفتحه وكيل الرئاسة — وهو بحكم منصبه رئيس مجلس الشيخوخ — والاسم الذى يحرز الأكثرية اللازمة ينتخب رئيساً ومن يليه ينتخب وكيلاً .

فيوم انتخاب الرئيس عندهم — وهو يوم الثلاثاء الأول الذى يلى يوم الاثنين الأول من شهر نوفمبر فى كل سنة كبيسة — هو اليوم الذى ينتخب فيه الناخبون ، أى أعضاء مجمع انتخاب الرئيس .

هذا في نصوص الدستور . ولكن هذه النصوص طرأ عليها تطوُّر لم يعدل حرفها ولكنه عدل طريقة تنفيذها .

ذلك بأن قيام الأحزاب السياسية وتنظيمها جعلاً يوم الانتخاب — وهو يوم انتخاب الناخبين — انتخاباً فعلياً للرئيس .

وبيان ذلك أن في الولايات المتحدة حزبين كبيرين هما الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي . وهناك أحزاب أخرى كالشيوعي والاشتراكي وحزب الفلاحين وغيرها ، ولكن أتباع هذه الأحزاب كانوا حتى الآن قلة لا تقدم ولا تؤخر في انتخاب الرئيس . فالرئيس المنتخب كان حتى الآن مرشح أحد الحزبين الكبيرين .

في صيف سنة الانتخاب يعقد كلٌّ من الحزبين الكبيرين مؤتمراً يضم ممثلي الحزب من جميع الولايات . وتمثيل الحزب في ولاية ما ، قائم كذلك على أساس تمثيلها في مجلس النواب والشيوخ في واشنطن . فولاية نيويورك مثلاً يمثلها في واشنطن خمسة وأربعون نائباً وشيخان ، أي سبعة وأربعون ممثلاً . فلا أعضاء الحزب الديمقراطي فيها أن يرسلوا إلى مؤتمر الحزب ضعف هذا العدد ، أي أربعة وتسعين نائباً ، ولأعضاء الحزب الجمهوري فيها أن يرسلوا مثل هذا العدد من الممثلين إلى مؤتمر الحزب الجمهوري . أي أن عدد الذين يجتمعون في مؤتمر كل من الحزبين يبلغ ألفاً واثنين وستين .

وعند ما يجتمع مؤتمر كل من الحزبين ، تلقى الخطب ، ويوضع البيان الخاص بسياسة الحزب وموقفه من شتى المسائل الداخلية والخارجية . ثم يختار الحزب مرشحه للرئاسة ، ويليه اختيار مرشحه للوكالة . وفي هذا الاختيار يكون للمناورات السياسية بين وفود الولايات المختلفة شأن عظيم . فمن وفود الولاية من يجيء المؤتمر ، وهو مرتبط بتأييد مرشح معين من المرشحين البارزين . ومنهم من يجيئه مؤيداً لأحد أبناء الولاية نفسها ، وإن كان أمله في الترشيح يسيراً . ولكن هذه الخطة تمكن الوفد من المناورة والمساومة عند ما يشتد النضال بين الطامحين إلى الترشيح ، إذ

يتخلى عن تأييد « ابن الولاية » لكي يؤيد أحد المرشحين البارزين رغبة في حسم المنافسة واقتناعاً ببعض الوعود . فوفد ولاية تكساس جاء مؤتمر الحزب الديمقراطي سنة ١٩٣٢ وهو مرتبط بتأييد ترشيح جارنر — وهو من أبناء ولاية تكساس وكان رئيساً لمجلس النواب — فلما ثبت أن الأمل في فوز جارنر ضعيف جداً ، تحول الوفد بعد مساومة الى تأييد ترشيح روزفلت ، على أن يؤيد أنصار روزفلت ترشيح جارنر للوكالة .

وقد يظهر في بدء المؤتمر متنافسان بارزان ولكل منهما فريق قوى من الأنصار . فإذا لم يفز أحدهما بالأكثرية اللازمة للترشيح في الاقتراع الأول ، أعيد الاقتراع ثانية وثالثة ورابعة . وقد أعيد الاقتراع على هذا الوجه في مؤتمر الحزب الديمقراطي في سنة ١٩٢٤ مائة مرة وأربع مرات . فإذا رسخ أنصار كل من المرشحين في تأييد مرشحهم وعجزوا عن استمالة عدد كاف من أعضاء الوفود الأخرى يضمن له الأكثرية ، فعندئذ يجتمع أقطاب الحزب ، ويقترحون الانصراف عن المرشحين كليهما . وترشيح مرشح ثالث في الوسع اتفاق الجميع عليه . وفي مؤتمر الحزب الديمقراطي (١٩٢٤) الذي سبقت الإشارة إليه ، كان المرشحان المقدمان آل سميث ووليم مكادو ، ولم يكن في وسع أحدهما أن يفوز بالأكثرية اللازمة بعد مائة اقتراع وثلاثة اقتراعات ، فاجتمع الأقطاب وانفقوا على ترشيح جون دايشس ، فرشح في الاقتراع الرابع بعد المائة بالإجماع أو بما يقرب منه .

وقد يكون أحد الطامحين إلى الرئاسة ، قد سبق منافسيه في الفوز بتأييد الحزب في غير ولاية واحدة ، فتجىء الوفود الكثيرة إلى المؤتمر وهي مرتبطة بتأييده ، فيختار في الاقتراع الأول ، أو في اقتراع يليه . فسمت رشح عن الديمقراطيين في سنة ١٩٢٨ في الاقتراع الأول ، وروزفلت عن الديمقراطيين في سنة ١٩٣٢ في الاقتراع الرابع ، ولكن بعد مساومة تقدم ذكرها .

وقلما يكون التنافس على الترشيح للوكالة قوياً ، لأن المنصب نفسه ليس مما تصبو إليه النفوس ، ولا سيما نفوس الطامحين إلى ممارسة السلطان في الدولة . إلا أن الوكيل رئيس المجلس الشيوخ بحكم منصبه . وإذا توفي الرئيس حل محله وأتم مدة رآسته . فثيودور روزفلت حل محل مكينلي وقد اغتيل في بدء رآسته سنة ١٩٠١ ، وكلثن كوليدج حل محل هاردينج وقد توفي سنة ١٩٢٣ قبيل انتهاء رآسته . وفي الحالين انتخب كل من ثيودور روزفلت وكلثن كوليدج رئيساً في الانتخاب التالي ، أى في سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٢٤ . وإذا كان الوكيل رجلاً ممتازاً ، وكانت المشكلات التي تتعين معالجتها على الرئيس متعددة عهد إلى الوكيل في أعمال على أعظم جانب من خطر الشأن . فولاس وكيل روزفلت الآن ، عهد إليه — في جملة ما عهد إليه فيه — في إدارة مجلس الحرب الاقتصادية ، وفي مهمة البحث والكلام في أغراض الحرب وأركان النظام الدولي بعدها ، وقد نهض بهذه المهمة على أوفى وجه .

بعد اختيار مرشحي الرئاسة والوكالة تبدأ معركة الانتخاب ، وتستمر وهي آخذة في الاشتداد مدى الصيف إلى الخريف ، إلى أن تبلغ أوجها قبل يوم الانتخاب بساعات قلائل . وقد يشرق المرشحون ويغربون ، ويطوفون في الولايات ، ويخطبون في الجماهير من منصات أعدّها أنصارهم لذلك ، أو من منصة في مؤخرة القطار الذي يقلهم . وهم الآن يعتمدون على الإذاعة اللاسلكية ، ولكنها لم تحل محل التطواف ، فالجمهور يرغب في رؤية المرشح ومصاحفته . ولهم في الدعوة إلى تأييد المرشحين أساليب ومعجائب . وقد روى عن ولكى ، منافس روزفلت على الرئاسة في سنة ١٩٤٠ ، أنه قطع ما يزيد على ثلاثين ألفاً من الأميال في الأشهر التي سبقت يوم الانتخاب ، واجتاز أربعاً وثلاثين ولاية من الولايات الثماني والأربعين . ثم يقبل يوم الانتخاب ، وهو يوم انتخاب الناخبين بحسب الدستور . ولكن الدستور لم يحسب حساباً للأحزاب . فماذا تفعل في هذا اليوم ؟ يختار كل حزب

عددًا من أعضائه — في كل ولاية — يماثل عدد الناخبين الذين يحقُّ للولاية أن تنتخبهم . فيختار الحزب الديمقراطي في ولاية نيويورك سبعة وأربعين عضواً من أعضائه في تلك الولاية . وكذلك يفعل الحزب الجمهوري . وعند ما يبدأ الاقتراع صباح يوم الانتخاب يقترع المقترع ، في الواقع ، وفي كل دائرة انتخابية ، لكشف مندوبي الحزب الجمهوري ، أو لكشف مندوبي الحزب الديمقراطي ، أو لكشف ممثلي أي حزب من الأحزاب الأخرى ، وفقاً لميله . والقانون لا يحتم الاقتراع لجميع مَنْ في كشفٍ ما . ولكن العرف جرى به . ثم ينتهي يوم الانتخاب فتفرز الأصوات ، ويعرف أي الكشوف أحرز الأكثرية . فإذا كانت الأكثرية للكشف الديمقراطي ، فجميع ناخبي الرأسة الذين يمثلون ولاية نيويورك في « مجمع انتخاب الرأسة » يكونون من الديمقراطيين . ولما كان مرشح الحزب معروفاً ، مفروض أن جميع هؤلاء سيقترعون له ، لأنهم حتماً لا يُختارون إلا ممن ثبت ولاؤهم للحزب . وعندئذٍ يداع أن ولاية نيويورك انحازت إلى مرشح الديمقراطيين . فيوضع بجانب اسمه رقم ٤٧ وهو عدد ناخبي نيويورك . وتحصى نتائج الولايات الأخرى ، فيعرف قبل انقضاء أربع وعشرين ساعة على انتهاء الانتخاب أيُّ المرشحين فاز بأكثرية ، فيعرف من ساعتها بوصف « الرئيس المنتخب » .

ومع ذلك فلا بدَّ من احترام نصوص الدستور ، ولو كان الاحترام صورة لا حقيقة فيها . فيجتمع الناخبون ويسجلون على الورق اختيارهم ويرسلونه في ظروف محتومة مع رُسُل خصوصيين إلى العاصمة ويفتحها وكيل الرئيس وتُفرز وتعلن النتيجة . ولكن هذا العمل لا يعدو كونه تسجيلاً لنتيجة معروفة لا أكثر ولا أقل .

وكذلك يصحُّ أن يقال إن انتخاب رئيس الولايات المتحدة الأميركية ، هو بحسب نصِّ الدستور انتخاب غير مباشر ، أي من درجتين ، ولكنه في الواقع انتخاب شعبي مباشر . وهذا الفارق بين النص والواقع يسبَّب أحياناً مفارقات في نتائج

الانتخاب قلما يدركها من ليس أميركياً . فقد يحدث مثلاً أن الفرق بين أصوات « الناخبين » التي يناها كلٌّ من المرشحين الكبيرين يكون كبيراً ، ولكن الفرق بين عدد أفراد الشعب الذي اقترح للفائز منهما قد لا يزيد كثيراً عن العدد الذي اقترح للآخر . وتفسير ذلك أن أكثرية الفائز في بعض الولايات الكبيرة قد تكون يسيرة جداً ، أى أن عدد الناس الذين يقترعون لأحدهما لا يفوق إلاً فوقاً يسيراً العدد الذي يقترح للآخر . ولكن هذا الفوق اليسير كافٍ لجعل جميع أصوات الناخبين (من الدرجة الثانية) في الولاية كلها في صف الأول . ففي انتخاب سنة ١٩٤٠ كانت النتيجة كما يلي :

عدد الأصوات الشعبية	مجم الانتخاب	
٢٧ و ٢٤٣ و ٤٦٦	٤٤٩	روزقلت
٢٢ و ٣٠٤ و ٧٥٥	٨٢	ولكى

هذا هو النظام في خطوطه وقواعده الرئيسية . وهناك وجوه من التفصيل لا يتسع المقام لبحثها في كتاب موضوعه «روزقلت» وليس موضوعه «الرأسة الأميركية» . ومن هذه المسائل مثلاً ما يحدث إن كان هناك مرشحو ثلاثة أحزاب كبيرة ، وتوزعت أصوات الناخبين بينهم ولم يفز أحدهم بالأكثرية المطلقة وهى ٢٦١ صوتاً . والرّد على هذا السؤال الخاص هو أن الدستور احتاط لاحتمال من هذا القبيل إذ منح حق الاختيار لمجلس النواب .

قلنا إن الرئيس ينتخب في أوائل نوفمبر من كل سنة كيمس ، ولكنه لا يتقلد منصبه إلا في السنة الجديدة . وقد كان الرئيس المنتخب لا يتقلد مهام منصبه إلا في يوم ٤ مارس التالى للانتخاب . وسبب ذلك أن فترة من الزمن كان لابد منها قبلاً لاجتماع الناخبين من الولايات المختلفة للنهوض بعمل الانتخاب الرسمى وإرسال النتيجة إلى العاصمة . وهذا كان يستغرق وقتاً غير يسير قبل قرن ونصف قرن من الزمان .

ولكن هذا النصَّ عُدِّل من سبع سنوات ، فقدَّم ميعاد تنصيب الرئيس الجديد من يوم ٤ مارس إلى يوم ٢٠ يناير ، الذى يلي الانتخاب . وقد كان هذا التعديل قبل التنصيب الثانى لفرنكلن روزفلت فى مستهل سنة ١٩٣٧ ، فرأسة فرنكلن روزفلت الأولى (٤ مارس ١٩٣٣ - ٢٠ يناير ١٩٣٧) كانت فى الواقع أقصر رأسة فى تاريخ الولايات المتحدة لأنها امتدَّت من ٤ مارس سنة ١٩٣٣ إلى ٢٠ يناير سنة ١٩٣٧ وكل رأسة سابقة لها وكلُّ رأسة تابعة لها ، مدتها أربع سنوات تماماً .

وفى يوم تنصيب الرئيس ، يسير الرئيس المنتخب -- إذا كان جديداً -- مع سلفه من البيت الأبيض ، فى عربة مفتوحة إلى منصة أمام الكابيتول -- مقر الكونغرس -- حيث يحلف اليمين أمام رئيس المحكمة العليا ، ويلقى خطبة الرئاسة .

فما الصفات التى يجب أن يتصف بها الرجل الذى يرشح للرأسة ؟ وما المناقب التى ترجح فوز مرشح على آخر ؟

القيود الوحيدة فى الدستور هى أن يكون الرجل أميركياً مولوداً فى الولايات المتحدة الأميركية ، وأن يكون قد مضى عليه أربع عشرة سنة وهو مقيم فيها ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة على الأقل . هذا كل ما فى الدستور .

ولكن الاختبار السياسى خلال قرن ونصف قرن من الزمان انتخب فيها الأميركيون اثنين وثلاثين رئيساً ، أضاف إلى هذه القيود الثلاثة الرسمية أوصافاً أخرى .

خذ مسألة العمر . إن معدل عمر الرؤساء السابقين اثنتان وخمسون سنة عند توليهم مسند الرئاسة ؛ فعمر المرشح الذى يغلب ترشيحه يكون قرابة ذلك على المرجح . وليس بين الرؤساء الذين انتخبوا فى السبعين السنة الأخيرة رئيس واحد زاد عمره على ستين أو نقص عن أربعين .

ويجب أن يكون بوجه عام ممن خبروا المناصب السياسية والإدارية في البلاد .
ففي الفترة التي تلت الحرب الأهلية (في العقد السابع من القرن الماضي) دلت التجارب
على أن الرئيس الذي لا يتصف بهذه الصفة قلما يصيب نجاحاً باهراً في أثناء رئاسته .
فهو ثور سلف روزفلت تولى منصب وزير التجارة ثمانى سنوات ، ولكنه لم يكسب
فيه المرونة السياسية لأن العمل كان إدارياً على الغالب . وسلف هو ثور كان كوليدج
وقد تولى وكالة الرأسة وقبلها كان حاكماً لولاية ماسشوسيتس . وولسن كان حاكماً
لولاية نيوجرسي . وقد شذو وكى على هذا لأنه لم يكن عند ترشيحه للرأسة عن
الحزب الجمهورى في سنة ١٩٤٠ قد تولى منصباً ما في حكومة ولاية من الولايات أو
الحكومة الاتحادية . وهو على ما نعلم أمر فذ في تاريخ الرأسة الأميركية .

ويجب أن يكون من المذهب البروتستانتي مع أن الدستور لا يعين صفة دينية
يجب أن يتصف بها الرئيس أو المرشح للرأسة . ولكن جميع الذين انتخبوا حتى الآن
كانوا من أتباع هذا المذهب على اختلاف شيعه . وقد رشح آل سميث عن الحزب
الديمقراطى سنة ١٩٢٨ وهو كاثوليكي ، ولكنه أخفق في الانتخاب ، ويقال إن
جانبا على الأقل من إخفاقه مرده إلى كونه كاثوليكياً .

نعم إن مذهبه الدينى لم يكن وسيلة ظاهرة توسل بها خصومه لمناوئته . ولكن
أكبر ع ضد للحزب الديمقراطي ، قائم في الولايات الجنوبية ، فهي معتقل هذا الحزب
منذ الحرب الأهلية الأميركية . والولايات الجنوبية متمسكة بالمذهب البروتستانتي ،
فكثر التحدث في مذهب سميث ، وانشق بعض الولايات الديمقراطية هذه على إجماعها
التاريخى ، واقترع لهو ثور في انتخاب سنة ١٩٢٨

ويجب أن يكون خطيباً مفعوهاً ، لأن الديمقراطية الأميركية كالديمقراطية اليونانية
في العصور القديمة ، تميل الى الخطيب البليغ وتتأثر به . وقد كان وليم جننغز بريان
خطيباً وُصف بأنه صاحب « الصوت الفضى » وعلى الرغم من خذلانه ، رُشح عن

الديمقراطيين ثلاثاً للرئاسة . ولكنه أخفق فيها جميعاً لأسباب كثيرة . وعلى الرغم من انتشار الراديو — وهو يحتاج الى صفات خاصة في الصوت والإلقاء — لا يزال المرشحون يطوفون في البلاد ويخطبون في الجماهير . وروزقلت ممتاز في الناحيتين ، يستطيع أن يقرب إلى المستمعين أعوص المسائل في أبسط الألفاظ وأقرب الأمثلة المنتزعة من الحياة اليومية ، فيحس كل أن روزقلت يخاطبه خاصة .

ويجب أن يكون من ولاية كبيرة ، موقفها في الانتخاب على العموم مشكوك فيه . لأنه من المفروض أن يحملها الفخر باختيار أحد أبنائها للرئاسة على تأييده . فالولايات الأميركية الجنوبية لم تنجب رئيساً واحداً بعد الحرب الأهلية لأن تأييدها للديمقراطيين كان مضموناً ، فكان الديمقراطيون يبحثون عن ولاية أخرى يهيمون أمرها . أما الجمهوريون فيعلمون أن أملهم في الحياز ولاية جنوبية إليهم ضعيف فيعرضون عنها إلى أخرى .

ويجب أن يكون مشهوراً بالنزاهة والخلق الكريم والحياة العائلية التي لا تشوبها شائبة . وأكثر الذين انتخبوا للرئاسة على هذا ، وإن شذَّ بعضهم ، ولكن هذا البعض نقر قليل .

إن الرجل الذي تجتمع فيه هذه الصفات نادر ، ولكنها جميعاً من المسائل التي ينظر فيها نظراً دقيقاً عند ما تجتمع الأحزاب للترشيح ، ويتأثر بها الجمهور تأثيراً عظيماً في تأييد مرشح ما قبل اجتماع مؤتمر الحزب ، في ما يعرف عندهم بالانتخابات الأولية (Primaries) . ومع ذلك فقد تجتمع في فرد ما جميع هذه الصفات ولا ينتخب أو قد لا يرشح ، لأن تيارات السياسة وعقل الجمهور من الناس ، من القوى الاجتماعية التي لا تقاس ولا توزن .

اجتمع مؤتمر الحزب الديمقراطي في مدينة شيكاغو لاختيار مرشح الديمقراطيين للرئاسة ومرشحهم للوكالة . وكان ذلك في أواخر يونيو سنة ١٩٣٢ . وكان مدير شؤون روزقلت رجلاً يدعى «جم فارلى» وهو من نوابغ ساسة الأحزاب في الولايات المتحدة ، نشيط لا يعييه سفر ، معسول اللسان لا يأباه خصم ، حكيم واسع الاطلاع على شؤون المشتغلين بالسياسة فيعرف كيف يكسب الأصحاب والأنصار . وكان قد مضى عليه فترة من الزمن مشغلاً بشؤون نيويورك السياسي ، وناب عنها غير مرة في مؤتمر الحزب الديمقراطي ، فتعرف الى زعماء الحزب الديمقراطي في سائر الولايات . فلما بزغ نجم روزقلت في ولاية نيويورك ناط فارلى مركبته به . وتبين فيه روزقلت الكياسة وحسن التدبير فندبه أولاً لمهام سياسية شتى ثم عينه مديراً لشؤونه الخاصة بالترشيح للرئاسة ، وهى عادة جروا عليها في الولايات المتحدة ، إذ يختار كل طامح إلى الرئاسة رجلاً يصطفيه ويثق به لتدبير أموره والدعوة له . فطوّف فارلى في الولايات في الأشهر السابقة لمؤتمر الترشيح ، واتصل بهيئات الحزب الديمقراطي وأقطابها واستألمهم إلى روزقلت . فلما اجتمع الحزب واقترع الاقتراع الأول ، ظهر أن روزقلت أقوى المرشحين تأييداً ، إذ نال ٦٦٦ صوتاً ، ولكن هذا العدد من الأصوات ، لم يكن كافياً لترشيحه ، لأن القواعد المتبعة في الحزب كانت تقضى بأن الترشيح لا يتم إلا إذا أحرز مرشح ما أكثرية الثلثين وهى ٧٧٨ فلا بد من الاقتراع ثانية وثالثة وإلى أن يفوز أحد المرشحين بثلثي الأصوات .

وكان آل سمث ، صاحب روزقلت القديم ، أكبر منافس له على الترشيح للرئاسة . نعم إنه رُشح عن الحزب في سنة ١٩٢٨ وأخفق في الانتخاب . ولكنه ما يزال طامعاً بالترشيح ، ولا سيما في هذه السنة — سنة ١٩٣٢ — التى بدا فيها

أن المرشح الديمقراطي كائناً من كان ، سيفوز على هوفر مرشح الجمهوريين لأن الأزمة الاقتصادية التي عانت البلاد شداً لها الصقها الشعب بباب هوفر وحزبه . وكان سمث يعلم أن مرشحين كثيراً ظفروا في الاقتراعات الأولى بكثرة من الأصوات ، ولكن مدّهم تحوّل بعد ذلك جزراً ، ولم يفوزوا بالثلثين اللازمين للترشيح فرشح غيرهم . ومع أنه أدرك قوة روزفلت عند ما رأى نتيجة الاقتراع الأول ، فإنه لم يسلم بالهزيمة ولا قطع حبل الأمل . ولكنه لم يعلم أن فارلى وهافر الداهيتين لم يغفلا فرصة لكسب الأنصار لروزفلت . وقد كان الاعتراض على سمث قوياً من ناحيتين . أما الأولى فمن ناحية صلته بالمؤيدين الكبار . وهذا أمرٌ ياباه فريق الأحرار في الحزب . وأما الثانية فأنخوف من أن يكون تجديد ترشيحه بعثاً للمسألة الدينية المعقدة . وقد رُشح في سنة ١٩٢٨ فعجز عن الفوز في جميع ولايات الجنوب التي تعدّ معقل الديمقراطيين . فكان الحزب يخشى بوجه عام أن انتخاب سمث رئيساً مستحيلٌ ، مهما تكن الفرصة مواتية لانتخاب آخر ، وكذلك يقضى على الحزب إذا رشح سمث ثانية ، أن يبقى في « بادية السياسة » أربع سنوات أخرى على الأقل ، وربما ينشق على المسألة الدينية فلا تقوم له قائمة بعد . وكان في المؤتمر خصمٌ ومنافسٌ قديم لسمث ، هو وليم مكادو . وهو الرجل الذي نازع سمث الترشيح في سنة ١٩٢٤ وبعد مائة اقتراع وثلاثة اقتراعات اضطرّ مؤتمر الحزب أن ينصرف عن كليهما إلى ترشيح دايش . وكان مكادو رئيس وفد ولاية كاليفورنيا ، وعدد أصواته أربعة وأربعون صوتاً . وكان فارلى يقظاً ، متنبهاً لانهاز الفرص . فاخترى بزعماء وفد كاليفورنيا ، وكذلك بزعماء وفد تكساس — وكان مرشح هذا الوفد للرئاسة جازنر رئيس مجلس النواب — فاتفق معهم على أن ينقلبوا إلى تأييد روزفلت ففعلوا ، وكذلك كسب روزفلت الأغلبية اللازمة للترشيح في الاقتراع الرابع ، ثم تحوّلت الأغلبية إجماعاً وهتافاً عامّاً . إلا أن ترشيح روزفلت في مؤتمر الحزب الديمقراطي ، على الوجه الذي تمّ ، لم

يمضٍ بغير ذيل . ولعلّ الذيل كان أشدّ استرعاءً لأنظار الأمة ، وأدلّ بياناً على خُلُق المرشح الجديد والطريق الذي ينوى أن يمضى فيه ، من كل ما حدث في المؤتمر أو سبقه من تمهيد . فقد جرت العادة في الولايات المتحدة أن يعمد مؤتمر الحزب بعد اختيار مرشحه للرئاسة ، إلى اختيار مرشحه للوكالة كذلك . (وقد اختار الحزب الديمقراطي في سنة ١٩٣٢ جارنر مرشحاً للوكالة وكان عندئذٍ رئيس مجلس النواب) ثم تنصرف الوفود من الولايات المختلفة إلى مواطنها . وتعيّن لجنتان من قبل الحزب لتذهب بعد أسابيع إلى داري المرشحين لإنبائهما بأنهما رُشّعا عن الحزب ، فيلقى كلٌّ منهما خطبة يقبل فيها هذا الترشيح ، ويكون ذلك إيذاناً ببداية معركة الانتخاب . وظنّ أعضاء مؤتمر الحزب الديمقراطي في سنة ١٩٣٢ أن هذه العادة ستتبع في إنباء روزفلت وجارنر . ولكن روزفلت من الرجال الذين لا يعبأون كثيراً بالعرف والتقاليد إذا لم يكن في المحافظة عليها خيراً ما . وكان روزفلت في آلبنى عند ما علم من إذاعات الراديو أنه رُشح للرئاسة عن الحزب الديمقراطي ، فقرّر في الحال أن يستقلّ طائرة إلى شيكاغو لإلقاء خطبة القبول في المؤتمر قبل انفضاضه ، لأنه — على قوله — لم يدرك معنى ما ، للتظاهر مدى أسابيع بأنه لم يعلم أنه رشح ، منتظراً إنباءه وفقاً للعرف المتبع . استقبل روزفلت في المطار جمهورٌ كبير من أنصاره والمعجبين به . وعند ما نزل من الطائرة مستنداً إلى ذراع أحد أبنائه ، وقف قليلاً وابتسم ، فارتفعت صيحة الجمهور بالتهليل يتخللها لفظ « الإلغاء » « الإلغاء » ^(١) وما دخل منبر البهو الذي اجتمع فيه المؤتمر حتى هبّ الرجال والنساء إلى الوقوف لتحية هذا المقعد الذي غلب المرض ، وعليه عُقدت الآمال لغلب الأزمة . وعرض عليه رئيس المؤتمر كرسيّاً يجلس فيه ، ولكنه فضّل الوقوف مستنداً إلى المنصة أمامه ريثما تخفت الضوضاء ثم رفع يده وبدأ يتكلم :

(١) إلغاء قانون تحريم المسكرات .

يا حضرة الرئيس ولش ، أصدقائي ! إنني شاكر لكم قبولكم ، بعد ستة أيام من الضنى ، أن تلبثوا هنا قليلاً ، لأنني أعلم ساعات الأرق التي مرّت بكم وبى . ويؤسفنى أننى تأخرت ، ولكننى لا أستطيع السيطرة على رياح السماء^(١) ، وإنما أحمد الله على تربيته البحرية ... إن ظهور مرشح للرئاسة أمام مؤتمر الحزب الذى رشحه قبل إرفضاضه ، ليتلقى الإنباء بترشيحه ، عمل غير مألوف ولا سابقة له ، ولكن هذه الأيام غير مألوفة ولا سابقة لها . وقد شرعت فى النهوض بالأعباء التى تواجهنا بالخروج على تقليد سخيف مؤداه أن يبقى المرشح جاهلاً ، جهلاً مطبقاً ، ما حدث بضعة أسابيع ، الى أن ينبأ رسمياً بذلك . فليكن يا أصدقائي هذا العمل رمزاً لنىتى وعزى على أن أكون صادقاً ، وأن أجنب كل رياء ومواربة ، وأن أصدق عن الازورار عن الحقيقة فى هذه المعركة . لقد رشحتمونى وأنا أعرف ذلك ، وقد جئت إلى هنا لأشكر لكم الشرف الذى أوليتمونى إياه . فليكن خروجى على العرف رمزاً . وليكن همّ حزبنا من الآن الخروج على التقاليد السخيفة . إننا سنخرج على التقاليد السخيفة ، وسنترك لزعامة الحزب الجمهورى الخروج على العهود وهى أبرع فى هذا الفن ... »

وقد راجعت وأنا أكتب هذه السطور ، مراجعة دقيقة هذه الخطبة كما هى منشورة فى المجلد الأول من مجموعة خطب فرنكلن روزقلت وأوراقه الرسمية^(٢) فتبينت فيها كثيراً مما يصحّ أن يعدّ نواة فلسفة روزقلت السياسية والاجتماعية ، علاوة على أساليبه السياسية .

فبعد المقدمة التى نقلت بعض عباراتها ، وصف القواعد التى تقوم عليها مثل الحزب الديمقراطى فى السياسة والاجتماع فقال : « وإذ نخوض المعركة الجديدة ، يتعين علينا

(١) تأخرت الطائرة بسبب عاصفة .

(٢) Public Papers and Addresses of Franklin. D. Roosevelt

أن نولى وجهنا دائماً شطر مثل الحزب العليا . فالحزب الديمقراطي كان بحكم تقاليده ومنطق التاريخ المستمر حامل لواء نزعة الحرية والتقدم ، وفي الوقت نفسه لواء المحافظة على منشآتنا . فإذا عجز هذا النداء عن التأثير في نفوسكم ... فإن عجز زعماء الجمهوريين عن حل مشكلاتنا قد يتحول الى تطرف جامع ... إن هذه الظاهرة الاجتماعية العظيمة التي نصفها « بالضائقة » تختلف عما سبقها في أنها لم تسفر عن مظاهرات تنزع الى الشعب ، وهي المظاهرات التي تصحب عادة مثل هذه الأيام العصيبة . فالتطرف الجامح لم يفز إلا بأنصار قلائل ، وأعظم ثناء نستطيع أن نسبغه على أبناء أمتنا هو شموع روح النظام والرجاء بين ملايين منهم في أيام الفاقة والألم الشديد . فإذا أخفقنا في أن نتيح لهم فرصة جديدة ، فإننا لا نخيب رجاءهم وحسب ، بل نسيء فهم صبرهم . لأننا إذا واجهنا التطرف بالرجعية ، فقد مهدنا الطريق لحدوث الكارثة . فالرجعية لا تقوم حائلاً في وجه التطرف . إنها تحيد له واستفزاز . والطريق الوحيد لمواجهة الخطر هو وضع خطة عملية للتعمير والإنشاء ، والحزب الذي يستطيع أن يفعل ذلك إنما هو حزب طاهر اليدين . وهذا وحده ، ودون غيره ، هو ما يحمي الأمة من التطرف الأعمى في الناحية الواحدة ، ومن التخبط الانتهازي في الناحية الأخرى .

ثم بين روزفلت أن ما يقع على عاتق الحكومة من واجب في المسائل الاقتصادية والاجتماعية العامة ، ينظر إليه من ناحيتين . أما النظرة الأولى فهي امتياز فئة قليلة من الشعب ، على أن يتسرب منها بعض مزايا العيش الرخي إلى الطبقات التي دونها وهي كثرة الشعب . وهذه النظرة ليست نظرة الحزب الديمقراطي . « إن الزمن ليس زمن الخوف أو زمن الرجعية والإحجام . وإن في الأمة رجالاً ونساءً أهملوا إهمالاً في حساب الفلسفة السياسية التي طبقتها حكومتنا في السنوات الأخيرة ، وهؤلاء ينظرون إلينا لإرشادهم وإتاحة الفرص لهم للمشاركة مشاركة أقرب إلى الإنصاف في

الثروة القومية . . . إن في المزارع والمدن الكبيرة والمدن الصغيرة والقرى ملايين من المواطنين عاقدين الأمل على أن معايير معيشتهم وتفكيرهم القديمة لم تزُلْ . ولا يجوز لهؤلاء الملايين أن يخيب أملهم ولن نخيبه . . . فأنا أقطع على نفسي عهداً بنظام « توزيع جديد » للشعب الأميركي .

هنا أصل « الرجل المنسى » في خطب روزفلت التالية خلال معركة الانتخاب . وهنا كذلك أول ذكرٍ رسمي للفظى « التوزيع الجديد » اللذين أصبحا في الولايات المتحدة، خلال رئاسة روزفلت عنوان صفحة جديدة في حياتها الاجتماعية والاقتصادية . ومضت معركة الانتخاب من يوليو إلى الأيام الأولى من نوفمبر ، جَوْل روزفلت في خلالها مشرقاً ومغرباً ، وألقى طائفة من الخطب الكبيرة التي أعدها بعناية عظيمة لأنه عالج فيها أهم الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية التي تشغل الناس ، وألقى كذلك مئات من الخطب المرتجلة ، هنا وهناك . وقد عدتُ الخطب الكبيرة التي ألقاها ، وهي مسجلة في المجلد الأول من مجموعة أوراقه الرسمية ، فاذا هي تسع عشرة خطبة كبيرة ألقاها في ثلاث عشرة ولاية منها نيويورك ونيوجرزي على الساحل الشرقى ، ومنها واشنطن وكليفورنيا على الساحل الغربى ، والمسافة بين الساحلين نحو ثلاثة آلاف ميل . وقد عالج في كلٍّ منها تقريباً ، مشكلة رئيسية من مشكلات الأمة الأميركية علاج محقق يتوخى الحقيقة ومصلح يتوخى العلاج . ومن هذه الموضوعات « قانون تحريم المسكرات » و « إحياء الزراعة » و « منزلة شبكة سكك الحديد في الاقتصاد الأمريكي » و « توليد الطاقة الكهربائية » و « أسس الحكومة » و « فلسفة العدل الاجتماعى عن طريق العمل الاجتماعى » و « مكافحة التخريب والتأخير والخداع والقنوط » وما أشبه .

والغالب عند أهل الرأي من متتبعي السياسة الأميركية والواقفين على دخائنها أن الشعب الأميركي انتخب روزفلت رئيساً في سنة ١٩٣٢ لأنه كان قد ملَّ هوفر

وأُسند إليه ، صواباً أو خطأ ، جميع بلايا الأزمة الاقتصادية . ثم لأنه رأى في روزفلت قائداً جريئاً قد يتمكن من قهر أصحاب السلطان المالى . وقد يميل فريق من الكتاب إلى الإِعلاء من شأن العامل الأول فيقول : « إن هوفر هو الذى انتخب روزفلت » . ويميل فريق آخر إلى القول بأن خطب روزفلت الكبيرة فى أثناء معركة الانتخاب حَوّت وعداً بعهد جديد ، فمالت إليه الكثرة من الشعب . والتقديم والتأخير فى منزلة العاملين فى انتخابه مردُّهما الى وجهة النظر الخاصة .

وأخيراً جاء يوم الانتخاب وكان يوم الثلاثاء ٨ نوفمبر ١٩٣٢ وكان روزفلت مع فريق من أقرب المقرّبين اليه فى حجرة خاصة فى فندق بلتيمور Biltmore بمدينة نيويورك حيث أنشأ الحزب الديمقراطى مقرّه . هناك علم روزفلت أنه انتخب رئيساً ، وأن أكثريته فى مجمع انتخاب الرئيس بلغت ٤٧٢ صوتاً مقابل ٥٩ صوتاً لِنَدّه ومنافسه هربرت هوفر ، وأن جميع الولايات قد انحازت إليه ما عدا ست ولايات .

بين انتخاب روزفلت فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٢ وبين تنصيبه رئيساً فى ٤ مارس ١٩٣٣ تفاقمت الحالة الاقتصادية والمالية فى الولايات المتحدة الأمريكية . فأوصدت بنوك كثيرة أبوابها فى وجوه الذين أودعوا أموالهم فيها ، وتوقفت شركات متعددة عن توفية التزاماتها ، وتردّدت أصدااء هذه الحوادث فى حياة الناس ، فزال شعور الثقة بالمستقبل ، وضاعت أموال التوفير وهى مُعتمِدة الشيوخ والمتقاعدين عن العمل ، ونزعت دور من ألوف الأسر بعد ما عجز أربابها عن توفية أقساطها الرتيبة . وتألفت زُمُر من الشبان والشابات تذرّع البلاد هائلة على وجهها بغير قصد أو غاية ، وأخذت طوائف كبيرة من العمال المتعطلين عن العمل ، تنتقل بين منطقة صناعية وأخرى بحثاً عن عمل غدا كالسرّاب حتى ضاقت بهم القطرات ، وبدرت بوادر العنف

بين الفلاحين في الولايات المتوسطة ، عند ما عجزوا عن بيع محصولاتهم فبادر من بادر إلى مصادرتها استيفاء للديون . وبلغ عدد المتعطلين عن العمل رقماً يتفاوت بين ثمانية ملايين ونصف مليون وبين سبعة عشر مليوناً . وهذا التفاوت مرده إلى وجهة النظر وتعريف التعطل . ويروى غير واحد من الكتّاب ، أنه كان من المتعذر على أحد أن يقطع ربع ميل في مدينة ما بغير أن يلقى من يقول : « قل يا صاح أمستغني أنت عن ربع ريال » .

ماذا دهي هذه الأرض الغنية الخصبة الخيرة حتى يموت الصغار فيها جوعاً ، وينزع أكبر منتجي القمح والذرة في العالم إلى الثورة ؟ لو أن حرباً اجتاحتها أو لو منيت بجفاف جفف ضرعها أو جراد التهم زرعها ، لفهمت ناحية من هذه الأزمة الخائفة ؛ ولكن الولايات المتحدة لم تنزل بها كارثة حرب أو جفاف أو جراد ، كل شيء كان فيها وافراً ، الملبس والمأكل والمال . ولكن المال كان متجمداً في البنوك . و « الاعتماد المالي » وهو في منزلة السيل الحيوى المندفع في عروق الحياة الاقتصادية ، كان محتضراً لأن الثقة ماتت . ومع ذلك فالفلاحون والتجار الصغار وملايين الناس في حاجة إلى النقد في جميع معاملاتهم ، ولكن النقد كان عزيزاً ، أو ممتنعاً . ذلك بأن نظام التوزيع في الأمة ، كان قد أصيب بالشلل ، فالوفاض خالية على مقربة من خزائن المال ، والناس يموتون جوعاً ، يحيط بهم الوفرة من كل جانب .

ولم يكد ينتصف شهر فبراير من سنة ١٩٣٣ حتى بدت في الأفق نذر الانهيار المالي التام . ففي اليوم الرابع من شهر فبراير ساءت حالة طائفة من البنوك في مدينة دترويت بولاية ميشيغن — وهي حاضرة صناعة السيارات الاميركية — سوءاً ، حمل كومستك حاكم الولاية ، على إصدار أمر بمنح بنوك الولاية إجازة مدتها ثمانية أيام . فسرت في طول البلاد وعرضها حملة كانت همساً في البدء ثم ما لبثت حتى تعالى القول فيها حتى أصبح جهوراً وصياحاً . ها هو ذا رجل يقابل صاحبه في الشارع فيقول له

همساً : الحال تنذر بسوء المصير ، ويروى أن الناس يهرعون الى البنك الفلاني في الشارع الفلاني لاسترداد ودائعهم . فخير لك أن تستردّ مالك . وسرى القول بين أصحاب البنوك أنفسهم : « الأحوال تنذر بسوء المصير . فخير لك أن تبيع سنداتك وأسهمك . حوّلها جميعاً نقداً . استردّ ودائعك في نيويورك » . وانتشر بين أصحاب الثروات الكبيرة : « حوّل كل ماتمك إلى نقد . اشترِ ذهباً اذا استطعت » . وقطع القول المحيط الأطلسي إلى أوربا : « بع الدولار . اسحب الذهب من الولايات المتحدة الأمريكية » . وكذلك سرى الجمود في أداة البلاد المالية ، والذعر في النفوس وتطرق إلى الأداة الصناعية والتجارية فشت متناقلة إلى الوقوف . ولم يكن في وسع هوفر أن يفعل شيئاً لردّ الذعر ، فالأرض نفسها كانت تميد تحت قدميه . ودقت ساعة التاريخ ، دقاً متسارعاً ، كما يسرع نبض العليل المشفى .

وفي اليوم الخامس عشر من شهر فبراير ، وهو اليوم الذي تلا إعلان « إجازة البنوك » في مشيغن ، كاد التاريخ الأميركي ، بل التاريخ العالمي ، أن يتغير على يد مغتال مهووس . ذلك أن روزقلت الرئيس المنتخب كان قد ذهب في زيارة إلى بلدة ميامي بولاية فلوريدا وكان يصحبه « شرماك » محافظ مدينة شيكاغو ، وفريق من الصحب ، فتغلغل رجل يدعى « زانجرا » في الجمهور وسدد رصاصة إلى الرئيس المنتخب فأخطأه ولكنه أصاب « شرماك » فوقع مضرجاً بدمه ، فلفظ مع نفسه الأخير وهو شاخص إلى روزقلت مبتسماً : « أنى أصبت خير من أن تصاب أنت » .

هذا الحادث رفع من منزلة روزقلت عند الشعب الأميركي ، ومهد له بعض التمهيد على الأقل ، سبيل السلطان النفسى اللازم لمعالجة الحوادث الخطيرة التي واجهها يوم نصّب رئيساً بعد انقضاء سبعة عشر يوماً على الحادث .

وتوالت الأيام ، مثقلةً مربدةً والهمة مبذولة في مشيغن لإصلاح الحال والتمهيد لفتح البنوك . فاجتمع مديرو البنوك ومديرو مصانع السيارات في دترويت للبحث

في وسائل الانقاذ . وهمهمت أسلاك التليفون بأحاديث أقطاب الصناعة والمال ورجال الحكومة في دترويت ونيويورك ووشنطن ، فلم تفض إلى حل . وفي خلال ذلك كانت السيارات المصفحة تسرى بسرعة من مدينة إلى مدينة ناقلة النقد اللازم إلى البنوك التي حاصرها الجمهور . ودلت أرقام بنوك « الاحتياط الاتحادى » (Federal Reserve) على إقبال الناس على اختزان المال ، وعلى سرعة سحب الذهب من الولايات المتحدة ، فتفاقم الذعر .

وفي اليوم الحادى والعشرين من فبراير ، أذيعت أقوال شهودٍ دعوا إلى الشهادة أمام لجنة من لجان مجلس الشيوخ في وشنطن ، فإذا هي تحتوى على أقوال تبعث على القلق عن سلوك طائفة من أرباب المال والأعمال في الولايات المتحدة . فرجلٌ يدعى « تشارلز متشل » مثلاً — رئيس مجلس إدارة « ناشونال ستى بانك » بنيويورك — كان قد تناول خلال سنوات ١٩٢٧ و ١٩٢٨ و ١٩٢٩ من هذا البنك وفروعه والبنوك المتصلة به ، مبالغ تفوق ثلاثة ملايين من الريالات عمولة ومكافأة ، ومع ذلك توسّل بجميع أسباب وسائل الاحتيال والمداورة ، لكي ينجو من دفع ضريبة الدخل عليها ، ففضحت هذه الأساليب . وظهر في اليوم التالى أن البنك كان قد اتخذ من التدابير ما يحمى كبار رجاله من خطر المقامرة بأسهمه بينما اقتضى من صغار الموظفين آخر فلسٍ ، مع أن الأسهم كانت فقدت معظم قيمتها ، ولم يكن في هذا التدبير إجرام بمعنى المخالفة لحرف القانون ، ولكنه كان خيانةً إجتماعية أخلاقية . فما عرفت هذه الحقائق ، حتى اضطرت الصدور حنقاً على رجال الأعمال والمنشآت المالية الكبيرة ، وكأنَّ ناراً خامدة قد نثر عنها الرماد ، وإذا الشعلة تكاد تكون متلظية ملتهمة .

وفي اليوم الرابع والعشرين من فبراير ، هرع الناس إلى البنوك في مدينة بلطيمور بولاية ماريلند ، فأصدر الحاكم رتشى أمراً بإجازة للبنوك . وفي اليومين التالين

٢٥ و ٢٦ فبراير (وكانا يومى سبت وأحد) استحقفل الذعر فى ثلاث مدن بولاية أوهايو، وفى اليوم التالى استقال متشل من رآسة مجلس إدارة « ناشونال ستى بانك » . فكان أحد أمراء المال قد نزل عن عرشه خشية مدّ متعال من النعمة العامة . وقد أشار روزفلت فيما بعد إلى هذه الحادثة وما كان من قبيلها إشارة بليغة فى خطبة تنصيبه قال — إن أعمال الصيارفة الذين لا ذمة لهم ، مدينة الآن فى محكمة الرأى العام . منبوذة من قلوب الناس وعقولهم . وقال فى مكان آخر من الخطبة نفسها : إن أن الصيارفة فرشوا من مقاعدهم فى هيكل الحضارة فنستطيع أن نقفه وقفاً جديداً على الحقائق الخالدة ، ومدى هذا الوقف مرتبط ، بمدى ما نحله من القيمة الاجتماعية النبيلة محل الرغبة فى النفع المالى .

وانتشر الذعر من ولاية أوهايو إلى ولاية أنديانا فولاية كنتكى فولاية بنسلفانيا . وأقبل اليوم الأول من شهر مارس . فأعلنت ولايتان أخريان « إجازة بنوك » فيهما ، وفى المساء تبعتهما أربع ولايات أخرى . وفى اليوم التالى اقتفت أثرها عشر ولايات غيرها . وظلت البنوك مفتوحة فى المدن الواقعة فى ولايات لم تعلن فيها « إجازة البنوك » ، ولكن فتحها كان مقيداً بقيود دقيقة وأعمالها المالية لم تكن طبيعية . فى ذلك اليوم ذهب روزفلت من نيويورك إلى واشنطن فى قطار خاص . وقضى معظم ساعات الرحلة يتحدث مع فارلى (مدبر شؤونه فى الترشيح وحملة الانتخاب) عن حاجة الناس إلى الإيمان والتدين فى أزمات الحياة . هذا الرجل الذى كانت أعطافه ممتلئة بشاشة وتفاؤلاً وفرحة بالحياة ، كان يعلم وهو فى القطار ، أنه متجه إلى إعصار ، وأنه لا تنقضى ساعات حتى يلقى على كتفيه وشاح الرآسة ، وعلى كاهله تبعه اتخاذ قرارات خطيرة سريعة ، ومهمة توجيه الولايات المتحدة ، فى بحر صاخب من التمرد النفسى الناشئ عن الانهيار الاقتصادى . وكانت معالم هذا التمرد ، اضطراباً أخذاً فى الانتشار بين الفلاحين والمتعطلين عن العمل ، ونعمة متعالية على أرباب

المال ، وشوقاً عميقاً إلى عمل سحري ناجح يرُدُّ الإعصار وينقي الجوَّ فتصل السفينة إلى برِّ السلامة .

وما أقبل مساء اليوم الثالث من شهر مارس — وهو المساء السابق لصباح حفلة التنصيب — حتى كان الإعصار المألَّى يلهب بسياطه الهوج ، مدينتي شيكاغو ونيويورك وهما أمنع المعاقل المالية في البلاد . وفي الساعة الرابعة والنصف من صباح الرابع من مارس ، عنا المقلان للإعصار ، فأعلن « لين » حاكم ولاية نيويورك ، « وهورنر » حاكم ولاية إيلينوى « إجازة بنوك » في الولايتين في وقتٍ واحدٍ تقريباً بغير اتفاق بينهما . وعند ما استيقظ هوفر في الساعة السادسة ، ليتأهب للنهوض بأخر ما عليه من أعباء الرأسة — وهو مرافقه خلفه إلى منصّة التنصيب — قيل له ، وهذا آخر يومٍ من أيامه في الرأسة ، إن النظام المالي في الولاية المتحدة ، قد خبت فيه الحياة فقال : « هذا منتهى الحيلة . وليست ثمة ما نستطيعه بعد »

وكذلك نزل الستار ليرتفع بعد ساعات أمام الكابيتول عن مشهد آخر كانت خطبة روزفلت في حفلة تنصيبه رئيساً يوم ٤ مارس ١٩٣٣ خطبة زعيم ديمقراطيٍّ فعّال . ولم تسكد تنقضى ساعة واحدة على ألقائها حتى تحوّل زعيم الحزب الديمقراطي زعيماً للأمة الأميركية . وليس ثمة ريب في أن الخلود الذي نزل على الحياة الاقتصادية الأميركية في فجر ذلك اليوم ، حمل الناس على الأشرئباب إلى كلِّ قولٍ أو تلميح من الرئيس الجديد ينطوى على معنى الغوث والنجاة . وليس ثمة ريب كذلك في أن روزفلت ، أفصح عن ضمير الناس عند ما قال « الأمة تطلب عملاً وستأخذ عملاً » وأن الأمة تبينت في نبرات صوته ثقة كانت تعوزها .

ولكن وراء هذه الثقة حقيقةً ، إن لم تكن مستترة فإنها لم تعلن . ذلك بأن خطبة روزفلت هذه ، كانت صدّى لخطبة أخرى سبق له إلقاؤها . أما الخطبة الأولى فلم تلق على سمع أحدٍ ، أو على سمع واحد أو اثنين من المقرّبين . وأما الخطبة

الثانية فيقدر عدد الذي سمعوها بخمسة وعشرين مليوناً من الأميركيين . ولكن المعنى كان واحداً في الخطبتين ، مع أن الأولى كانت عبارة واحدة فاضت من القلب على اللسان ، والثانية أعدت بعناية واستغرقت نصف ساعة أو تزيد من الإلقاء .

قال روزفلت يوم ٤ مارس ١٩٣٣ : « واسمحوا لي بأن أعلن يقيني بأن الشيء الوحيد الذي نخافه إنما هو الخوف . . . وإني لأتقلد بغير تردد قيادة هذا الجيش العظيم من شعبنا ، المستعد لهجوم منظم على مشكلاتنا المشتركة » .

كانت العبارات البليغة تتوالى بين شفتيه وعليها سمة الإيمان ولكن قولته أمام زوجته عند ما أقعده المرض (سأقهر هذا الشيء) لم تكن دون هذه العبارات بلاغة وإيماناً . شرّح خطبة التنصيب الأولى ، فلا تجدها تختلف عن قوله سأقهر هذا الشيء إلا في تحويل الضمير من المتكلم المفرد إلى الجمع .

سمع الناس فأعجبوا وآمنوا .

أى استقبال هو هذا الاستقبال التي أعدته المقادير للرئيس الجديد !

البنوك مقفلة الأبواب ، والحياة الاقتصادية مشلولة الأعضاء ، والناس في غمار موجة من الذهول والخوف ! ها هي ذى المرة الثانية ، التي بلغ فيها روزفلت مكاناً من الحياة ، كان يحقُّ له فيه أن يتطلع منه إلى مباحيها . فقد بلغ القمة الآن ، بعد سنوات من الشقاء والنضال والضنى . وكان قد أعدَّ عدته ليطبق بعد دخوله البيت الأبيض ، خططاً تفضى — إذا أُجيد تطبيقها — إلى تجديد الحياة السياسية والاقتصادية في البلاد ، وإلى تعزيز قدرة الأمة على مواجهة الشدائد والمشكلات مدى أجيال متعاقبة ، وبعث إيمانها بنفسها ومنشأتها بعثاً جديداً . فإذا أنصفه الدهر فقد تضعه هذه الوجوه من الإصلاح بين عظام الرؤساء . ومع ذلك فما هو ذا في يوم تنصيبه ، يشهد النظام الذي يريد إصلاحه ، منهراً مغفراً بالتراب . ولما وقف ليلقي خطبته وجد نفسه وارث نظام مالي مهتدم ، ورئيس أمة مشلولة .

ولعله ، بدأ في هذه الدقيقة نفسها ، يستردُّ جزاء ما بذله أيام إصابته وما عاناه من حسرة وضئى . لأنه كان الرجل الوحيد ، بين المشتغلين بالشؤون العامة حينئذ ، الذى بلا الشلل . وفى خلال الحن الصحية التى اجتازها ، أدّرت نفسه قوةً جديدةً فلمّا صاح بقومه « كل ما نخافه هو الخوف » تكلم بلسان من علم وجرب ، فتبينت الأمة المصغية فى كلماته نعم الصدق ورنه الحقيقة فأمنت بها ، و بنفسها .

والغالب الذى فى مرتبة اليقين ، أن ظفر روزقلت الأول على الأزمة كان ظفراً سيكولوجياً . فتحليل القرارات الأولى التى اتخذها خلال الأيام القليلة بعد حفلة التنصيب وخطبته فيها ، لم تغيّر الحال تغييراً يذكر . فقد أصدر أمراً باسم السلطة التنفيذية بإيصاد أبواب البنوك ، ولكنها كانت جميعها موصدة بغير أمر . وأصدر دعوة إلى مجلسى الكونغرس بعقد دورة استثنائية ، ولكن مجرد اجتماع الشيوخ والنواب لم يكن من أثره تبديل الحال وتبديد القتام الخيم . وما كاد يعود إلى البيت الأبيض من حفلة التنصيب حتى أرسل إلى مجلس الشيوخ كشفاً بأسماء من اقترح تعيينهم فى مناصب الوزراء . ومن حق مجلس الشيوخ فى الدستور الموافقة على مقترحات الرئيس التى من هذا القبيل أو رفضها . فوافق عليها فى هذه الحالة بغير مناقشة . ولكن الموافقة لم تكن شيئاً إذاً فإن المجلس يوافق على الغالب على هذه المقترحات ولا يعارضها إلا فى الأقل الأندر .

وعلى ذلك بدا لجميع الناس أن تغييراً كبيراً قد طرأ على الحالة العامة . وما كاد روزقلت ينتهى من إلقاء خطبته ، حتى كانت الأمة جميعاً صفاً واحداً من ورائه ، وكانت مقتنعة بأن أحداثاً كباراً تهيأ فى غيب المستقبل القريب . وقد أقيمت فى واشنطن قبل سنة ١٩٢٣ خطبة كثيرة تجارى بلاغتها بلاغة هذه الخطبة أو تفوقها . ولكن واحدة منها لم تحدث التأثير الكهربى فى نفوس الشعب الذى أحدثته هذه الخطبة . إن سرّاً خفياً فى ألفاظها أو نبرات صوت الخطيب ، أقنع الأمة بأن هذا

الرجل يستطيع أن يستشرف الأنقاض التي من حواليه ، وهي أنقاض آمال أكثر منها أنقاض مادية ، بغير أن يجزع . فلم يقف أحدٌ هنيئاً لتحليل ما حدث ، ولا ألقى الجمهور باله ، إلى العهود التي قطعها الرئيس الجديد ، ولكن الأمة استكشفت في هذه الخطبة ، أن في هذه الأمة الجزعة ، وقف الرئيس غير جازع ولا هيّاب . فلما استكشف الشعب ذلك ، أصبح بين يدي الرئيس الجديد كالصلصال اللين في أيدي الخزّاف .

وليس هذا بالشيء المستغرب ولا الجديد في تاريخ الاجتماع البشري . فالرجل « غيرُ الهيّاب ولا الوجل » ملكٌ في جماعة أصابها الذعر . فينقاد الناس إليه سمعاً و طاعةً ، ولكن الذي يحتاج إلى تفسير ، ليس تأثير شجاعته في الشعب ، بل مردُّ شجاعته . نعم إن روزقلت كان دائماً متصفاً بالشجاعة الجسدية . ففي أثناء الحرب العالمية الأولى اجتاز في مدمرة محيطاً تعيث فيه الغواصات ، وزار ميادين القتال بغير جزع أو وجل . وقبيل تنصيبه جاز امتحاناً أقسى لشجاعته ، عند ما أطلق المعتال المهووس رصاصه عليه ، فأخطأه وأصاب خمسةً من حاشيته وقتل أحدهم ، ولكن روزقلت احتفظ برباطة جأشه خلال الحادث . ويقول « مولى » — أحد المقربين إليه في ذلك العهد — إنه لم يبدُ عليه ردُّ فعل ما بعده . إلا أن الحالة التي واجهها يوم تنصيبه كانت تقتضى شجاعته من لون آخر ، وهو لون قلما يفطر المرء عليه . فقد تكون الشجاعة التي تقى المرء الارتباك والاضطراب والهلوع عند ما يرى مسدّس المعتال مسدّداً إليه ، فعلاً غريزياً . ولكن الشجاعة التي لا بدّ منها للاحتفاظ بالاتزان ورباطة الجأش عند ما يرى جميع خططه وآماله متداعيةً إلى الانهيار والحبوط ، ليست غريزية . إنها شجاعة مكتسبة ، ولا تكتسب عادةً في حياة مفروش طريقها بالورد . إنك لا تتعلّم هذه الشجاعة في المدارس ، ولا تأخذها من الكتب ، ولا تلمح وجهها في قضايا تكسبها في المحاكم ، أو في انتخاب تنضوى فيه كثرة الفاخين تحت

لوائك . قد تكتسبها إذا خضت حرباً وبليت بشدائدها ورفع لك الموت النقاب عن وجهه لمحّة ما ، ولكنّ روزقلت لم يخض الحرب العالمية الأولى ، عندما كان وكيلاً للبحرية ، على هذا المنوال . والغالب ، أنّ المرء لا يتعلم أن « الشئ الذى يجب أن نخافه إنما هو الخوف نفسه » إلا إذا انهدم إيمانه بقدرته التى كان يُدِلُّ بها ، وحدّق فى قرارة هُوّة القنوط بعد أن كان على قمة الأمل أو محلقاً فوقها . عندئذ تتقطّر هذه التجارب فى نفسه قطرةً قطرةً ، وعندئذ يعلم أن « الشئ الذى يجب أن نخافه إنما هو الخوف نفسه » . ومتى خرج المرء بهذه العبرة من تجارب الحياة ، فإنه لن ينساها . وكذلك نجده فى أخرج المواقف التى تخنى ظهر غيره وتبثّ الجزع فى نفوسهم ، رابط الجأش ، بادی الثقة ، قادراً أن يقول فى خطبة عامّة كما قال لزوجته : « إننى سأقهر هذا الشئ »

وقد نكون من الذين يأخذون الألفاظ بمعناها الحرفى ، فنقول أن روزقلت كذب فى الحالىن ، لأنه لم « يقهر هذا الشئ » . فلا هو قهر « شلل الأطفال » الذى أصابه ، ولا « الشلل الاقتصادى » الذى واجهه يوم تنصيبه . فروزقلت لا يزال مضطرباً إلى الاستعانة بعضاً إلى الآن . والنظام الاقتصادى الأمريكى ، ظلّ حتى نشوب الحرب ، أقرب إلى المقعد منه إلى السليم تام السلامة . ولكن روزقلت مشى . والنظام الاقتصادى الأمريكى ، نهض بعد ما سقط ، ومشى ولو كانت مشيته متعثرة . وفى الحالىن ، لم يكن أحد يؤمن بأن روزقلت يستطيع أن يمشى ، ولا أن النظام الاقتصادى الأمريكى يستطيع أن ينهض . ومما لا يداخله الريب ، أنّ لا مشى الرجل ولا نهوض النظام ، كان مستطاعاً بغير عزم صلب ، وشجاعة هى أندر ألوان الشجاعة وأعظمها .

ومن الانصاف للحقيقة ولأعوان روزقلت فى تلك الأيام السود ، أن نقرر هنا أن جانباً كبيراً من الفضل فى أعمال حكومة روزقلت خلال « المائة اليوم » التالية ،

ولا سيما في الأيام العشرة الأولى منها يرجع إلى طائفة من الرجال ، كان بعضهم من الذين يمتقون روزقلت . فأوجدن ملزوزير مالية هوفر ومساعدة آرثر بلانتين ضاهيا وودن وزير مالية روزقلت وأعوانه في الكفاح لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في نظام المصارف الأميركي . فوودن بدأ عمله في « الخزينة » قبل انتهاء رئاسة هوفر ، وملزلبث فيها بعد ما تقلد روزقلت زمام الرئاسة . وإذا كان النضال الحزبي ، بين الجمهوريين والديمقراطيين ، يبلغ أحيانا دركاً سحيقاً ، فإن الجمهورية الاميركية لم تجز الأزمات التي عصفت بها ، ولم توطد مقامها إلا لأن الجمهوريين والديمقراطيين على السواء ، تعاونوا جميعاً في الأزمات ، ففسوا أنهم جمهوريون أو ديمقراطيون ، من اتباع روزقلت (أو غيره) أو من خصومه ، وتذكروا شيئاً واحداً وهو أنهم أميركيون ، وأن كل شيء ما عدا ذلك يأتي في المقام الثاني ما زالت الأزمة قائمة .

قال روزقلت في خطبة التنصيب ، « ان الأمة تطلب العمل ، وتطلبه الآن » وما كاد يعود الى البيت الأبيض حتى بعث إلى مجلس الشيوخ بأسماء الذين اختارهم أعضاء في وزارته ، وحث المجلس على الموافقة عليهم بغير الرجوع الى لجنة أولاً ، وهو العرف المتبع . وما أقبلت الساعة السادسة مساء حتى كان كل وزير قد أقسم يمين الولاء للدستور . وعند منتصف الليل عُقد اجتماع الوزارة الأول وفي اليوم التالي استدعى الرئيس زعماء المجلسين النيابيين (الكونغرس) وطلب اليهم أن يعدوا المعدات لعقد دورة استثنائية حالاً . وانفقوا جميعاً على أن تبدأ الدورة في اليوم التاسع من شهر مارس . واستدعى كبار رجال المال والأعمال بالتلفون في جميع أنحاء البلاد للاجتماع بوزير المالية « وودن » .

وجُهِت الدعوة إلى الكونغرس في « مارس » لعقد دورته في اليوم التاسع من مارس . وإذن فلا يزال أمام الرئيس ومستشاريه أربعة أيام لا غير لأعداد مشروعات القوانين وعرضها عليه . ولكن « أزمة البنوك » لا تنتظر أربعة أيام ، والفوضى

سائدة . ولذلك أطلق روزقلت قنبلته الأولى ، في صباح الاثنين الموافق للسادس من مارس . ذلك بأن الكونغرس كان قد أقر خلال الحرب العالمية الأولى قانوناً خاصاً بالتجار مع العدو . ولكن هذا القانون لم يُلغَ . فاستند إليه روزقلت ، في إصدار أمر بحكم السلطان الذي يبيحه هذا القانون للسلطة التنفيذية ، معلناً إجازة عامة للبنوك أمدها أربعة أيام وحظر سحب الذهب والفضة أو نقلهما ، وجعل عقوبة المخالفة غرامة قدرها عشرة آلاف ريال أو سجنًا أمده عشر سنوات ، وأباح لوزير المالية أن يستثنى منه ما يقتضى الاستثناء بقرار وزاري .

ما كان أحدٌ يحلم أن روزقلت يعتمد إلى مثل هذا العمل السريع الحاسم ، فاغتبط الشعب بحزم الرئيس ، وذهل أعضاء الكونغرس ، فأقرُّوا مشروعات القوانين المعروضة عليهم ، بغير أن يدركوا مغزى معظمها ، وبغير معارضة في كثير من الأحيان . وكان في واشنطن جماعة منظمّة تمثل « المحاربين القدماء » وهي جماعة يخشاها أعضاء الكونغرس لما لها من نفوذ في شتّى الولايات ، فلم يجروا قبلاً على مخالفة رغباتها . ومع ذلك لما طلب الرئيس حذف خمسمائة مليون ريال من الميزانية ، على أن يكون معظم الحذف من المال المرصّد للمحاربين القدماء ، وافق الكونغرس بغير أن يلقى باله إلى هذه الجماعة . وعندما عرض مشروع « قانون طوارئ البنوك » أقرّه الكونغرس في ساعتين . وبعد يومين جلس الرئيس في البيت الأبيض وأذاع حديثه الأول في السلسلة التي اشتهرت عندنا خلال هذه الحرب بعنوان « حديث الموقدة » . وإذا الرئيس الفعّال قد انقلب معلماً يشرح ما تعقّد من شؤون المال في أوجز عبارة وأوضحها ، وصديقاً يخاطب أصدقاءه من القلب إلى القلب . فإيمانه بأن الديمقراطية لا تسلم مما توصم به إلا بإرشاد الرأي العام ، تجلّى في هذا الحديث ، فزكّته النتائج . قال : « اسمحوا لي أولاً أن أشرح لكم الحقيقة البسيطة وهي أنكم عندما تودعون مالكم في بنكٍ ما ، فالبنك لا يضع المال في حرز حريز ، ولكنه يستعمل مالكم في

أنواع شتى من الاعتماد المالى — فى الأسهم والسندات وما أشبه . أى أن البنك يستعمل ما لكم فى ما يحفظ عجلات الصناعة والتجارة دائرة . . . وكل ما فى البلاد من نقد لا يعدل إلا جزءاً يسيراً من مجموع الودائع التى فى البنوك . . . فما حدث فى الأيام الأخيرة من فبراير والأيام الأولى من مارس ؟ نشأ عن تززع ثقة الجمهور أن هرع الفريق الأكبر من شعبنا إلى البنوك ليحوّل ودائعهم ذهباً ، فلم يكن فى وسع أسلم البنوك وأوطدها مقاماً أن يلبي الطلب كله . ولم يكن مستطاعاً على التو ، أن يبيع البنك ما يملكه من سندات سليمة بأسعار خفضها الذعر إلى دون قيمتها الحقيقية . فلما أقبل بعد ظهر الثالث من مارس لم يكديوجد فى البلاد بنك مفتوح الأبواب للعمل . . . »

ومضى الصوت الفخم ، والرنة اللطيفة ، والحجة المعقولة المفهومة ، مضى الرئيس يفسّر (لأصدقائى) ما حدث ، فاصغوا إليه ، وفى إصغائهم إليه ، زالت بقية الذعر من نفوسهم . ذلك بأنهم أدركوا أن لا باعث هناك على الذعر . « فالبنوك السليمة ليست الآن أسوأ حالاً بمقدار ريال واحد مما كانت عندما أوصدت أبوابها . وستفتح البنوك أبوابها . ولكن بعضها لن يفتح أبوابه . والحكومة لن تسمح إلا للبنوك السليمة بأن تفتح أبوابها . »

وكذلك مهدّ روزقلت لأكبر تعديل فى حياة الولايات المتحدة المالية . فإفلاس البنوك الأميركية ، بعد إخضاع « سلامتها » للقانون ، يكاد يكون متعذراً الآن . وقد تمكن روزقلت من إحداث هذا التعديل ، لأنه صرح الشعب بالحقيقة وبيّن لهم ما فعله وما ينوى أن يفعله وختم حديث الموقدة الأول بقول يصحّ أن يوصف بأنه « عقد شركة بين الحكومة والشعب » عند ما قال : « إنها مشكلتكم بقدر ما هى مشكلتى ولن نخفق إذا سرنا معاً يداً بيد . »

في تاريخ الولايات المتحدة الحديث فترة تعرف بفترة « الأيام المائة » وهي تمتد من اليوم التاسع من شهر مارس ١٩٣٣ عندما دعى مجلس الكونغرس الجديد لعقد اجتماع استثنائي ، إلى ١٦ يونيو عند ما أرفض المجلسان . وهي فترة تذكّر « بالأيام المائة » التي انقضت بين فرار نبوليون من جزير البا أو معركة واترلو في سنة ١٨١٥ . ولكنّ الذكرى مقتصرة على الاسم . لأن الفترة النبوليونية كانت فترة جزعٍ في أوروبا المتحالفة على نبوليون ، من فرار الفاتح العظيم والقائد العبقرى وتأثير ذلك في مصيرها . وأما الفترة الروزفلتية فكانت فترة إقبالٍ على سنّ القوانين التي أشار بها روزفلت على مجلس الكونغرس في رسائله المتوالية إليهما ، لمعالجة الأزمة الاقتصادية والبؤس الناشئ عنها ؛ وهذه القوانين هي التي تعدّ الأساس التشريعي لنظام « التوزيع الجديد » .

اجتمع الكونجرس في يوم ٩ مارس ووافق على قانون البنوك .
وفي يوم ١٠ مارس طلب روزفلت خفض الميزانية مقدار ٢٥ في المائة .
ثم جاء يوما ١١ و١٢ مارس (وكانا يومى سبتٍ وأحدٍ) فلم يوجّه الرئيس خلالهما طلباً ما إلى الكونغرس .
وفي يوم ١٣ مارس طلب إلغاء قانون فولستد (قانون تحديد مقدار الكحول في البيرة) .

وفي يوم ١٦ مارس طلب سن قانون « التنظيم الزراعى »
وفي يوم ٢١ مارس طلب سن قانون « فيلق الحفظ الأهلى » .
وفي يوم ٢٩ « طلب سن قانون « الأوراق المالية » .
وفي يوم ٣ ابريل طلب سن قانون « غوث المزارعين »

وفي يوم ١٠ ابريل طلب سن قانون « إدارة وادى تنيسى »
وفي يوم ١٣ ابريل طلب سن قانون « قروض ملاك البيوت » .
وفي يوم ٢٠ ابريل أصدر قرار الخروج عن قاعدة الذهب .
وفي يوم ٤ مايو طلب سن قانون « إعادة تنظيم سكك الحديد » .
وفي يوم ١٧ مايو طلب سن قانون « الانعاش الصناعى الأهلى » وطلب من
الكونغرس إرصاد ٣٣٠٠ مليون ريال للغوث عن طريق الأشغال العامة .
هذه القوانين هى قواعد نظام « التوزيع الجديد » ^(١) وقد عرضت مشروعاتها على
الكونغرس خلال سبعين يوماً ، ومنها مشروعات أقرت حالما عرضت على الشارعين .
وتم إقرارها جميعاً فى أثناء ثلاثين يوماً أخرى وفى يوم ١٦ يونيو فضت دورة
الانعقاد الخاص بعد انقضاء مائة يوم تماماً على بدئها .

وقد شهدت السنوات التى تلت وجودها من التوسع فى هذه الأعمال ، ونواحي
من التعديل فى تفصيلاتها ، ولم يبلغ منها إلا مشروع واحد وهو مشروع الإنعاش
الأهلى . وسيجىء ذكره (فى الفقرة الخامسة من هذا الفصل) . فما مغزى هذه
القوانين من حيث هى أجزاء من نظام « التوزيع الجديد » وما مكانة كل منها فيه ؟
كان لهذا التشريع الاجتماعى والاقتصادى الموسوم بنظام « التوزيع الجديد »
غرضان : أما الأول فالخروج بالبلاد من أشد ضائقة نزلت بها أو بأى بلدٍ صناعيٍّ
آخر فى العصر الحديث — أى الإنعاش Recovery . وأما الغرض الثانى فإدخال
وجوهٍ معينةٍ من الإصلاح Reform على قواعد الحياة الاقتصادية الاميركية .
وقد كان برنامج « التوزيع الجديد » يشمل سلسلة من الأعمال والقوانين غرضها

(١) NEW DEAL استعمل روزفلت هذين اللفظين أولاً : فى الخطبة التى قبل بها الترشيح
لرئاسة عن الحزب الديمقراطى فى ١٩٣٢ وقد بين فيما بعد أن الغرض المنطوى فى هذا الاستعمال
هو أن الحكومة ستشرف على اقتراح أساليب « التوزيع » وتنفيذها

تحقيق الإنعاش ، والإصلاح . ولكن المغزى الأول والأهم المستخرج من هذه القرارات والتشريعات ، إنما هو ما يظهر فيها من تبدل أصيل في موقف الناس والحكام جميعاً من قواعد الحياة الاقتصادية .

ومما لا ريب فيه أن إصدار أحكام عامة على موقف الرأي العام في بلد ما من المسائل الاقتصادية ، أمر كثير المزالق وعلى أعظم جانب من المشقة إن لم يكن متعذراً على الإطلاق ؛ لأنّ الموقف يختلف باختلاف الطبقات والمناطق والأعمال والأفراد . ولكن الصفة الغالبة على الرأي السائد في أميركا في مستهل العقد الثالث من هذا القرن ، كانت صفة « التفاؤل الذي لا مسوغ له » مقترنة بصفة « الإيمان بمزايا النزعة الفردية والمنافسة الحرة في الحياة الاقتصادية » . فالانتاج والثروة كانا يزدادان إزدیاداً مطرداً سنةً بعد سنة . وكان الناس يتوقعون أن يمضي هذا الإزدیاد فلا يقف عند حد . وكانت أسعار السندات والأسهم في السوق المالية ترتفع سنة بعد سنة ، وكان الناس يظنون أن لا حدود لارتفاعها .

وكان في البلاد تعطل من العمل ولكنه كان على نطاق ضيق فلم يعد مشكلة قومية . ومضى رجال الاقتصاد يتناقشون في هل من المحتمل أو الممكن أن يصاب القوم بضائقة أخرى ؟ وكانت العامة (رجل الشارع) تعتقد أن أزمة اقتصادية أخرى غير محتملة بل مستحيلة . وكان بعض رجال الاحصاء يعلمون أن الدخل موزع توزيعاً غير متساو . ولكن جميع الطبقات كان ماضية في زيادة دخلها زيادة ظاهرة فلم تغبأ بقسط الزيادة الذي يصيبه كل منها ، ولم يكن هناك ما يشير إلى احتمال قيام نزاع بين الطبقات . وعزز من هذا الرأي أن اتساع نطاق المضاربة في البورصة ثبت الوهم بأن الأمة الأميركية صائرة إلى أمة من الرأسماليين جميعاً .

طبعاً إن هذا الوصف لا ينطبق بحذافيره على الأمة بأسرها فالمتعطلون عن العمل وسكان المناطق المصابة ، لم يشاركوا سائر القوم في التفاؤل العام .

ففي مستهل العقد الثالث من القرن العشرين كان عدد المتعطلين عن العمل نحو مليونين . وكانت صناعات النسيج وتعدن الفحم مصابة بضائقة . وكان الزراع يشكون هبوط أسعار المحصولات الأساسية . وأفلست بنوك كثيرة في الولايات الغربية المتوسطة ، قبل نزول الضائقة العامة في سنة ١٩٢٩ . وكان كثيرون من الفلاحين ، ولا سيما في الولايات الجنوبية ، يعيشون في فاقة وعوز . ومع ذلك يصح القول بأن السواد من الأميركيين كانوا يعتقدون فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٩ أن البلاد لا تعاني مشكلات اقتصادية أساسية تقتضى العلاج .

وأصبحت البلاد بالأزمة في النصف الثاني من سنة ١٩٢٩ فلما أقبلت سنة الانتخاب (١٩٣٢) للرئاسة ، كانت الأزمة قد أخذت بالحناق ، وفي أواخرها كانت الشدائد قد قضت على البقية الباقية من التفاؤل الرخيص (وكثيراً شجعته حكومة هوفر بقولها : إن الإقبال وراء الباب) إذ هبطت قيمة السندات والأسهم المتداولة في البورصة من ٨٧ ألف مليون ريال في سنة ١٩٢٩ الى ١٩ مليون ريال في سنة ١٩٣٢ أى أن الهبوط كان الى ما دون الربع . وهبط كذلك الانتاج ٣٢ في المائة ودخل العمال ٤٠ في المائة وزاد عدد المتعطلين من العمال الى ١٥ مليوناً . أما ما حدث في الأيام السابقة ليوم تنصيب روزفلت (٤ مارس ١٩٣٣) فقد مر ذكره .

وأدرك كثيرون من المفكرين ، أن في النظام الاقتصادي الأميركي ، ضعفاً أصيلاً ، فأفضى هذا الإدراك إلى محاولة تبين العلة وفهم الضعف . وقد تباين الرأي ، ورأى روزفلت نفسه لم يكن متمسكاً على طول الخط . ولكن جماعة « التوزيع الجديد » التي كانت حوله ، وإليها مردُّ معظم الأفكار الأصلية في التشريعات الجديدة ، كانت ترى أن الشرور الكبرى ترجع إلى شرين : أما الأول — فتركز السلطان الإقتصادي في أيدي فئة قليلة . وأما الثاني — فتناقص

الفرص المتاحة لثمار الجهد والمال . وهذه الجماعة ، إذا قيست بالمتطرفين في البلدان الأوربية لم تعد جماعة متطرفين ، لأنها كانت موقنة بأن في الوسع إستئصال هذه الشرور بغير أن يطرأ تعديل كبير متطرف على النظام الإقتصادي القائم . ولكنها رأت ببصيرتها كذلك احتمال نشوب نزاع بين الطبقات ، إذا لم تستأصل هذه الشرور .

فإلى الشر الأول — أى تركيز السلطان الإقتصادي في أيدي فئة قليلة من الناس — مردّ المشروعات والقوانين التي يقصد منها الإصلاح في المقام الأول . وإلى الشر الثاني — أى تناقص الفرص المتاحة لثمار الجهد والمال — مردّ المشروعات والقوانين التي يقصد بها الإنعاش في المقام الأول

كان لتركيز السلطان الاقتصادي في أيدي فئة قليلة من الناس ، مظاهر شتى . منها إرتفاع نسبة المأجورين من الناس بالقياس إلى نسبة المستقلين ، ومنها سوء توزيع الدخل وسوء توزيع الثروة . ففي سنة ١٩٢٩ أصاب ثلاثة أعشار واحد في المائة من السكان ٧٨ في المائة مما وُزِعَ من ربح الأسهم والسندات . ومنها نمو الشركات الكبيرة التي لا تطاق مزاحمتها . ففي سنة ١٩٣٠ كان واحد في المائة في الشركات يملك نصف ثروة الشركات جميعاً ويدلّ الإحصاء على أن معدل نمو مائتين من هذه الشركات الكبيرة ، بلغ في سنة ١٩٢٠ مبلغاً لو مضى في سبيله مطرداً ، لاستطاعت هذه الشركات أن تملك نصف ثروة الأمة كلها في سنة ١٩٥٠ . وكانت السيطرة على الشركات الصناعية الكبيرة مثل الصلب والسيارات ، والمواد الكيماوية والنفط والسكر واللحم والطاقة المتحركة ، لفريق صغير من الناس ، وكان في وسعهم أن يتحكموا في الإنتاج والمنافسة كما يشاءون . يدل على ذلك أن أسعار المحصولات الزراعية هبطت بين ١٩٢٩ — ١٩٣٢ مبلغ ٦٣ في المائة بينما أثمان الأدوات الزراعية لم تهبط إلا ٦ في المائة وأثمان السيارات ١٦ في المائة . وكانت هذه الشركات الكبيرة

متشابكة ، فالممول الواحد قد يكون عضواً في مجالس شركات كثيرة : وهذا حصر السلطان الإقتصادي والمالي في أيدي قليلة . وإذا اعترض أحدٌ على ذلك بأنَّ أسهم شركة كبيرة مثل شركة « بل للتلفون » كانت موزعةً توزيعاً واسع النطاق حتى بلغ عدد حملة أسهمها ٦٣٠ ألفاً ، وأن هذا التوزيع منافٍ لما يقال عن تركيز السلطان في أيدي فئة قليلة ، كان الردُّ على ذلك بأن هذا التوزيع ، الديمقراطيٌّ في مظهره ، جعل من المتعذر تأليف جماعةٍ ما من حملة الأسهم تستطيع أن تعارض ما يقرره إعطاء مجلس الإدارة . فالسلطة الفعالة كانت في أيدي هؤلاء الأعضاء وهم فئة قليلة أما الشر الآخر الذي رُدت الأزمة إليه فهو « تناقص الفرص المتاحة لتشجيع الجهد والمال » وأسبابه كثيرة ، منها استعمار معظم الأرض الصالحة للاستعمار في الولايات المتحدة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، واضطراب أحوال أوروبا ، وهبوط معدّل زيادة السكان . فالأول لم يتيح مجالاً جديداً للجهد والمال ، والثاني صرف الناس عن تشجيع ما لهم في أوروبا ، والثالث خفض عدد المطلوب بوجه عام من دور السكن وغيرها من المنشآت التي تقتضيها الزيادة المطردة في عدد السكان . وقد رُدَّ الإقبال الذي عمّ البلاد في السنوات الأولى التي تلت نهاية الحرب العالمية الأولى إلى اتساع نطاق صناعة السيارات وما يتصل بها وإلى ضرورة تشييد دور لتعويض ما كان يجب تشييده منها ولكنه لم يشيّد خلال الحرب ، ثم إلى ما أتيح تشييده من المال في أوروبا ولا سيما بعد الاتفاق على تنفيذ مشروع دوز الخاص بالتعويضات الألمانية . فلما زالت هذه العوامل الخاصة الطارئة ، كان لا مفرَّ من ضيق مجال العمل في طائفة كبيرة من الصناعات وميادين العمل ، فضعفت القدرة على الشراء ، فتلاها خفض الإنتاج والتعطُّل .

« فالتوزيع الجديد » لم يكن برنامجاً محكماً الأجزاء . ولكنه كان سلسلة من الأعمال التشريعية ، اقترح بعضها وأقرَّ ، استجابةً لإلحاح فئات شتّى من الشعب . وبعض

هذه الأعمال كان يناقض البعض الآخر . ولكن السمة العامة الغالبة على هذه الأعمال كانت الرغبة في إزالة هذين الشرين : أما تركيز السلطان الاقتصادي في أيدي فئة قليلة من الناس ، فعولج بسلسلة من القوانين غرضها حماية الفلاح والعامل وتعزيز يدهما في معاملة أصحاب الأعمال . وأما تناقص الفرص المتاحة لتشجيع الجهد والمال فعولج بسلسلة أخرى غرضها توفير هذه الفرص توفيراً مباشراً أو غير مباشر ، وزيادة المستهلك من المصنوعات والمحصولات حتى يبلغ الإنتاج مبلغاً عالياً معقولاً ويقل التعطل عن العمل .

والحكم العام على هذه القوانين بعد تطبيقها سبع سنوات أو ثمانى سنوات ، هو أن القسم الأول منها أصاب قسطاً معتدلاً من النجاح . فقد أصلح النظام الاقتصادي في الولايات المتحدة إصلاحاً لا بأس به ، وإن كان في مجموعهِ لا يعدو ما تمَّ من إصلاح من هذا القبيل في طائفة من بلدان أوربا قبل ذلك .

أما القسم الثانى فكان قسطه من النجاح أقل . ففي سنة ١٩٣٩ — أى بعد انقضاء عشر سنوات على بدء الأزمة في سنة ١٩٢٩ — كان عدد العمال المتعطلين عن العمل لا يزال في حدود عشرة ملايين ، ومستوى الإنتاج بالقياس إلى القدرة على الإنتاج ، في الحدود التي كانت قائمة عند ما تقلد روزفلت الرئاسة في سنة ١٩٣٣ أو أعلى قليلاً .

ولست في حاجة إلى دراسة القوانين التي غرضها الإصلاح وفقاً لإقرارها الزمنى . فقد تقدّم معنا هذا الترتيب في الجدول الذى يجده القارئ في صفحة ١٣٩ — ١٤٠ على أن القوانين التي غرضها الإصلاح كانت أربعة أقسامٍ بوجهٍ عام . أما الأول فقوانين « السلامة الاجتماعية » وهى التي غرضها حماية المحرومين ، من مَحَن التعطل عن العمل والمرضى والشيخوخة . وأما الثانى فالقوانين التي غرضها تعزيز اتّحادات العمال وقدرتها على المساومة المشتركة في علاقتها بأصحاب المال . وأما الثالث فالقوانين

التي غرضها عون الفلاح . وأما الرابع فالتقوانين التي غرضها إزالة شرور معيّنة نشأت عن تركيز السلطان الاقتصادي والمالي في أيدي فئة قليلة من الناس .

أما التشريعات الخاصة بالسلامة الاجتماعية فقد جمعت بين التأمين على الشيخوخة، وتأمين معيشة العامل في حالة التعطل عن العمل والتأمين على صحة الحوامل والأطفال وما شابه ذلك . وفي وضعها استرشد رجال « التوزيع الجديد » بما خبرته الأمة البريطانية وحكومتها في هذا الميدان . وقد نصّت هذه القوانين على توفير المال لهذه « الخدمات الاجتماعية » من الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات الثماني والأربعين وأصحاب العمل وأجور العمال أحياناً ، على تفاوت بين قانون وقانون . ومعدّل ما يصيب العامل المتعطل عن العمل بحسب هذه المجموعة من القوانين يبلغ جنهين في الأسبوع مدى ستة عشر أسبوعاً على الأكثر . ولكن هناك اختلاف ، زيادة أو نقصاً ، عن هذا المعدل باختلاف الولايات .

أما التشريع الخاص بتعزيز اتحاد العمال ، فيشمل تحديد ساعات العمل في الأسبوع ، وتعيين مستوى أدنى للأجور ، والاعتراف بحق النقابات أن تفاوض أصحاب العمل باسم الأعضاء . وقد كان التشريع الأول الذي أقرّ لتحقيق هذا الإصلاح يعرف بمشروع الإنعاش القومي (N.R.A.) وكان أساسه الاختيار أو الحكم الذاتي في الصناعة ، أي أتيحت الفرصة للاتفاق بين أصحاب العمل في كل صناعة رئيسية على قواعد معيّنة تحدد حدوداً عليا ودنيا لساعات العمل والأجور وما أشبهه ، وقد اختلفت هذه الاتفاقات اختلافاً كبيراً . ولكنها في المجموع لم تؤت الغرض المقصود بها . وكانت في منزلة تجربة اجتماعية فأخفقت التجربة ، مع أن خفض ساعات العمل أفضى إلى زيادة يسيرة في عدد العمال ، أي أفضى إلى نقص يسير في عدد العمال المتعطّلين عن العمل . ثم تلاه انكفاء وارتفاع في الأسعار فحسر العمال جُلّ ما كسبوه . وحكمت المحكمة العليا بأن هذا التشريع مناقض

للدستور فألقى . وسنعود إلى هذه الناحية عند الكلام على النزاع بين الرئيس روزفلت والمحكمة العليا على تشريعات « التوزيع الجديد » في الفقرة التالية من هذا الفصل .

وقد حلّ محلّ تشريع « الإئعاش القومي » قانون فاغنر (١٩٣٥) ثم عدّل بقانون « الأجور والساعات » (١٩٣٨) . فالأول يقتضى من أصحاب صناعةٍ ما أن يعترفوا بالاتحاد الذى يمثل كثرة العمال أو الموظفين ويتفاوضوا معه . وحظر على أصحاب العمل أن ينشئوا اتحادات خاصة بشركاتهم أو التدخل تدخلاً ما فى اختيار موظفى الاتحاد الذين ينتخبهم الأعضاء . وانشئ مجلس لتنفيذ القانون . والثانى قضى بإنشاء هيئات لتحديد أدنى حد للأجور وأعلى حد لساعات العمل ومنع تشغيل الأطفال . وكان الغرض الذى يتوخاه هذا القانون ، أجراً عاماً يكون على الأقل ٤٠ سنتاً أو عشرة قروش — بحسب سعر النقد الأمريكى الآن — فى الساعة ، على أن يكون أقصى ساعات العمل فى الأسبوع فى الأحوال السوية أربعين ساعة ، وإذا اشتغل العامل علاوة على العدد المعين من الساعات فى الأسبوع استوفى ٦٠ سنتاً على كل ساعة إضافية .

وقد كانت نقابات العمال واتحاداتها فى الولايات المتحدة على جانب كبير من الضعف ، ولكن تحوّل الموقف العام الذى نشأ عن الأزمة ، وقانون فاغنر ، أفضيا إلى تعزيز حركة اتحادات العمال فى تلك البلاد .

أما التشريعات التى غرضها عون الفلاح فكانت متعددة واسعة الحيلة فى معالجة المسائل القائمة ، وكان بعضها أحياناً يناقض بعضاً . أما الغرض الأول فكان رفع أسعار المحصولات الزراعية ، لأن هبوطها كان أعظم جداً من هبوط أسعار المصنوعات . فرجال « التوزيع الجديد » كانوا يرغبون فى استعادة النسبة بين أسعار المحصولات الزراعية والمصنوعات ، التى كانت قائمة قبل نشوب الحرب العالمية الأولى . ومع أنهم

لم يصيبوا نجاحاً تاماً في تحقيق هذا الغرض إلا أنهم قربوا تقريباً يذكر بين قيمة الطائفتين من المنتجات . ففي سنة ١٩٣٢ مثلاً كان كيس من الذرة لا يكفي إلا لشراء نصف الملابس التي كان يكفي لشراؤها في سنة ١٩١٣ . فالغرض كان تقليل هذا الفرق .

وأنشئت « الإدارة الزراعية » وكان من المهام الملقاة إليها أن تتيح « مزايا » للفلاحين الذين يرضون خفض المساحة التي يزرعونها . فثبت أن هذا لا يكفي ، أو أنه غير فعال أحياناً ، واضطرت هذه الإدارة — في بعض الأحوال — أن تقيد المساحة المزروعة ومقدار المحصول ، لأن بعضهم قبل خفض المساحة ، رغبة في « المزايا » ، ثم مال إلى تطبيق مبادئ الزراعة الكثيفة intensive فلم يقل مقدار المحصولات وفقاً لقلة المساحة . وعمدت هذه الإدارة أحياناً إلى الإجبار والعقوبات في معاملة الفلاحين الذين يتجاوزون حصصهم من المحصولات . وكانت القوانين المطبقة تختلف باختلاف المحصولات . ومع أن الحكومة اعتمدت اعتماداً كبيراً على نقص المحصول رغبة في رفع الأسعار ، فإنها لم تهمل كذلك الاهتمام بزيادة المستهلك . فكانت الحكومة تبتاع مقادير وافرة من المحصولات لتوزعها على المحتاجين أو لتخزينها . ومن الأساليب التي استعملت أن أسعار بعض المحصولات ربطت بما يقتض عليها . فسعر بالة القطن لا يهبط دون ما تقرضه الحكومة للفلاح عليها .

ومما يناقض هذه النزعة العامة إلى رفع الأسعار بخفض مقدار المحصول ، أن وزارة الزراعة سعت سعيًا حثيثاً إلى تحسين أساليب الزراعة ، فعينت هيئات خاصة لبحث الوسائل اللازمة لمنع تأكل الأرض بفعل المطر والرياح ، ومقاومة الجفاف ، والحد من تنكس التربة وضعف خصبها ، ونقل الفلاحين من أراضي لا تصلح بطبيعتها للفلاحة الناجحة ، وإقطاعهم مكان أراضيهم هذه ، أراضى أصلح . ومما يلحق بهذا إنشاء السدود الكبيرة في وادي نهر تنيسي وتوليد الطاقة الكهربائية منها

وتوزيعها على الفلاحين بأرخص سعر مستطاع . نعم إن هذا المشروع كان القصد منه أن يكون مقياساً ونموذجاً تحتذيه شركات توليد الطاقة الكهربائية في طول البلاد وعرضها . ولكن إنشاءه ساعد على استصلاح منطقة متأخرة من الناحية الزراعية

وليس في وسع أحد القول إن جميع هذه المشروعات حلت مشكلة الفلاح حلاً دائماً ولكنها حتماً حسنت حالته .

والغالب أن التناقض بين نزعة التقييد في الانتاج الزراعى ونزعة البحث عن الوسائل التى تفضى الى زيادة الانتاج ، مرده إلى أن الحكومة كانت تسعى فى وقت واحد إلى الانعاش والاصلاح . فالنزعة الأولى تعالج حالة قائمة تحتاج الى علاج عاجل ، وهى رفع أسعار المحصولات الزراعية وزيادة دخل الفلاح ، والثانية تمهد لتحسين حالة الفلاح والإنتاج الزراعى فى المستقبل .

بقى فى هذه الطائفة من أعمال الإصلاح ما تمّ على أيدي حكومة روزفلت من أعمال غرضها إزالة شروء معينة ناشئة عن تركيز السلطان المالى فى أيد قليلة . فأنشئت لجنة تشرف على إصدار السندات والاتجار بالسندات القديمة ، والغرض منها منع الغش أو التحايل فى إصدار سندات تفضى إلى خسارة الجمهور الذى يصدق جميع الدعاوى والمزايا الطويلة العريضة التى يسندها إليها مختصون بهذا النوع من الدعوة . وأنشئت إدارة وادى تنيسى لتبيع الطاقة الكهربائية المولدة هناك بأرخص سعر مستطاع ، ولتكون نموذجاً تحتذيه الشركات الخاصة ، فلا تستغل الجمهور استغلالاً غير معقول . وفرضت قيوداً خاصة على تنظيم الشركات المندمجة الكبيرة ، وعلى البنوك التى يسمح لها بمزاولة الأعمال المالية والتجارية ، لكى تكون الودائع فيها فى مأمن من الضياع . ولكن نظام البنوك فى الولايات المتحدة لا يزال — فى رأى فريق من الاقتصاديين — فى حاجة إلى إصلاح حاسم أساسى . وكثيرون من

أرباب « التوزيع الجديد » يعتقدون أن الرئيس روزفلت فوت الفرصة الملائمة لإجراء هذا الإصلاح الأساسى فى سنة ١٩٣٣

إذن هذه هى المشروعات والقوانين التى غرضها إصلاح النظام الاقتصادى الأمريكى . وهو الغرض الأول من نظام « التوزيع الجديد » .

أما الغرض الثانى ، وهو الإنعاش ، فقد عولج من ناحية زيادة قدرة الأمة على الشراء . ومن الأساليب التى اتبعت فى تحقيقه ، فتح البنوك وضمان ما يفتح منها بمنع غير السليم منها عن مزاولة العمل ، وتوسيع نطاق الاعتماد المالى عن طريق بنوك « الفدرال ريزرف » ، وخفض الفائدة ، وتسهيل عقد القروض على أرباب الصناعات عن طريق هيئة خاصة تشرف على إتاحة قروض من هذا القبيل من مال الحكومة . ثم هناك الوسائل المختلفة التى مرّ ذكرها ، وهى التى توسلت بها الحكومة لزيادة دخل العامل والفلاح ، وزيادة الصادر عن غير طريق واحد ، وكان أحد هذه الطرق إخراج « الدولار » عن قاعدة الذهب ، خفض أسعار المصنوعات والمحصولات الأمريكية بالقياس إلى النقد الأجنبى ، وإقبال وزير الخارجية هُلّ على المفاوضة لعقد معاهدات ثنائية غرضها خفض الحواجز الجمركية بين البلدين المتعاقدين ، أى الولايات المتحدة والطرف الآخر ، وإنفاق مبالغ كبيرة على إعانة المحتاجين وعلى تنفيذ مشروع ضخ من الأشغال العامة ، منها المباني والطرق والسدود والخزانات وما أشبهه .

وقد فتحت البنوك وخفضت بنوك « الفدرال ريزرف » معدل الفائدة ، ولكن ذلك لم يجذب إليها المشتغلين بالصناعة والتجارة للاقتراض منها ، ولم تفض الوسائل التى توسلت بها الحكومة واعتمدت عليها فى تشجيع إنشاء مباني السكن إلى نتيجة يصحّ الاكتفاء بها ، وظلّت صناعة بناء المساكن فى مقدمة الصناعات المصابة

بالعسر، ورفعت أجور العمل وأسعار المحصولات الزراعية . فلم يتحقق كلُّ ما أراده دعاة « التوزيع الجديد » من زيادة قدرة الشعب على الشراء . وازداد الصادر من الولايات المتحدة ، ولكنه لم يكن له أثر بين في غلبة الضائقة في الولايات المتحدة نفسها ، لأن تجارة الصادر الأميركية لا تزيد حتى في أحسن الأحوال عن ١٠ في المائة من مجموع التجارة الأميركية ، وما أصابته البلاد من « الانتعاش » كان مردُّ جانب كبير منه إلى ما أنفقته الحكومات من مبالغ طائلة على إعانة المحتاجين ، ومشروع الأشغال العامة ، وقد جمع هذا المال بالاقتراض .

لم تكن الحكومة الاتحادية الأميركية قد أخذت على عاتقها قبل ذلك تبعة إعانة المحتاجين في أنحاء البلاد ، لأن هذه التبعة كانت قبل عهد روزفلت و « التوزيع الجديد » واقعة على الأكثر على حكومات الولايات والمجالس البلدية ، تتولاها بغير نظام عام . وقد نقلت هذه التبعة في عهد « التوزيع الجديد » أو نقل معظمها إلى الحكومة الاتحادية فتولتها ، وليس ثمة ريب في أن المال الذي أنفق على مشروع الأشغال العامة قد عزز النشاط التجاري في البلاد ، ولكنه لم يفض إلى تحقيق « الإنعاش » المطلوب على الوجه المقصود . لأنه لم يحمل الناس على إنفاق ماله على الإنشاء المثمر كمباني السكن والمصانع والآلات ، بل أنفق معظمهم المال في شراء عروض المستهلكين كالطعام والملابس والأثاث .

هذا بعض ما يقال في الناحية الاقتصادية المجردة من مشروعات « التوزيع الجديد » . فقد أقبلت الولايات المتحدة الأميركية على هذه المشروعات وهي متخلفة عن البلدان الأوربية في التشريع الاجتماعي ، فمكنتها التشريعات الجديدة من أن تلحق بتلك البلدان . ومعظم وجوه الإصلاح التي تمت خلال هذا العهد ، ستبقى لا ريب في ذلك ، قائمة في القالب الذي أفرغت فيه أولاً أو بعد تعديل يسير يطرأ عليه . ولكن

هذه التشريعات لم تبني جمعية اقتصادية جديدة^(١) . فالاقتصاد الأميركي في سنة ١٩٤٠ كان لا يختلف اختلافاً أساسياً كبيراً عن الاقتصاد الأميركي في سنة ١٩٣٠ من حيث القواعد الأصلية . نعم إن «بورصة» نيويورك مقيّدة بعض التقييد ، وقوة الشركات الكبيرة محدودة بعض الحد ، ولكن الشركات الكبرى — وهي تعدّ مائتين — لا تزال قوية ، وخمس عشرة منها لا تزال خاضعة لسيطرة ثلاث أسر هي أسردوپون وملون وركفلر . أما العامل والفلاح فقد زادت سلطتهما بعض الزيادة وضمنت سلامة معيشتهم ، وقد أفضى تقلد الحكومة لتبعة الإعانة إلى الحيلولة دون شرور كثيرة كانت اجتاحت البلاد لولا ذلك .

ولعلّ أهم آثار الأزمة وتشريعات «التوزيع الجديد» لم تتجلّ في الحياة الاقتصادية ، بل في موقف الناس من المسائل الاقتصادية والاجتماعية . أي أن الأزمة وتشريعات «التوزيع الجديد» ، أفضت إلى تحوّل فكري . ففي الولايات المتحدة الآن فريق كبير من الناس يؤمن بأنه يتعيّن على الحكومة الاتحادية أن تتدخل في الشؤون الاقتصادية لعون التجار والفلاحين والعمال ، ولتحمي مُثمر ماله في السندات ومودعه في البنوك ، ولتمنع الفاقة ، ولتتيح عملاً للمعطل عن العمل . ولا ريب في أن أحد الحزبين الكبيرين — الحزب الديمقراطي — أصبح مرتبطاً بسياسة اجتماعية اقتصادية تقوم على هذه المبادئ . وأما الحزب الكبير الآخر — الجمهوري — فلا يكاد يجروّ على نقض قواعدها والتنكر لها . فالفرق بعيد بين هذا وبين القول السائد

(١) إن روزفلت نفسه لم يكن ينوي ولا يميل بطبيعته ونشأته إلى إقامة اقتصاد اشتراكي في أميركا . ومن يطالع خطبته الخطيرة التي ألقاها قبل انتخابه الأول في نادى «كومونولث سان فرنسيسكو» يتبين أن هدفه الاحتفاظ بالاقتصاد الرأسمالي بعد إدخال وجوه معينة من التعديل عليه تجعله أسلم بنياناً وأقرب إلى العدل الاجتماعي وأضمن لوائم الطبقات وأحفظ على الأسلوب الديمقراطي في الحكم .

فى مستهل العقد الثالث « بالفردية » المطلقة من ضابط الحكومة وابتعاد الحكومة عن ميدان الأعمال .

والواقع الذى لا يداخله الريب ، أن الجيل الأخير من الأمة الاميركية كان يواجه مشكلتين أساسيتين من مشكلات الحياة الاجتماعية والسياسية ، على ما بين روزقلت نفسه فى المقدمة العامة التى وضعها للمجلدات المحتوية على أوراقه وخطبه الرسمية . أما المشكلة الأولى فهى الاحتفاظ بتلك المثل السياسية فى الحكم التى تواضع الكتاب على وصفها بالأسلوب الديمقراطى . وهذه المشكلة ليست طارئة على الشعب الأمريكى ، بل هى قديمة قدم الجمهورية نفسها ، وان كانت الديمقراطية كما تفهم اليوم تختلف اختلافاً غير يسير عن الديمقراطية كما كان الآباء الأولون الأمريكيون يفهمونها وكما أودعوها فى نصوص الدستور . وهذا التطور فى فهم مثل الحياة الديمقراطية ، وأسلوب الحكم الديمقراطى اقتضى ، حيناً بعد حين ، حركات سياسية واسعة النطاق لتبديل الأوضاع والمحافظة على روح الأسلوب الديمقراطى فى عالم متغير . ففى مسألة الاقتراع نجد هذا الحق مباحاً الآن لأفراد الجنسيتين الذين أدركوا الحادية والعشرين أو عُدوها (إلا فى مناطق قليلة) . مع أنه لم يكن فى عهد واشنطن يشمل إلا الرجال من أصحاب الأملاك على أن تكون أملاكهم كبيرة . ومع ذلك فإن زمام السلطان الفعلى فى الحكومة انتقل فى أثناء إشاعة حق الاقتراع ، الى أيدي فئات خاصة من الناس . نعم فئات خاصة لا طبقات ! أى أن نطاق السلطان ضاق وتحيز بينما نطاق الاقتراع اتسع . أى أن السلطان الفعلى بدأ يتركز فى أيدي عدد يسير جداً من الشعب . والحركات السياسية فى التاريخ الاميركى التى غرضها الاحتجاج على هذا التركيز ليست نادرة ، ولكن بحثها يستغرق فصولاً طويلاً . وحسبنا الإشارة فى القرن العشرين إلى ما بذله ثيودور روزقلت وودرو ولسن لتطهير الأداة الحكومية من الفساد ، وكبح جماح أصحاب المصالح المالية ، الذين لم ينحصر سلطانهم فى الميدان الاقتصادى

بل تعداه الى الميدان السياسى . وكان من رأى فرنكان روزقلت ، أن فترة الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت الولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٩ فرصة سانحة للشروع فى اتجاه سياسى جديد غرضه العودة بالحكم فى الولايات المتحدة الى السيطرة الديمقراطية والابتعاد به عن الروح التى كانت تسوده فى الفترة التى تلت نهاية الحرب العالمية الكبرى ، عند ما كان القول للجماعات الخاصة فى المقام الأول .

أما المشكلة الثانية فليست عريقة عراقلة المشكلة الأولى . ذلك بأن صورة « العدل الاجتماعى » من بنات أفكار العصر الحديث ، لأن الحاجة لم تقتضها فى العهد الذى أنشئت فيه الجمهورية ، والعهد الذى تلاه عند ما توسع الأمريكيون فى استعمار نصف قارة كبيرة وتعميرها من ساحل المحيط الأطلسى الى ساحل المحيط الهادى .

وليس ينكر أن رأى والسعى اتجها فى العهد السابق لمستهل هذا القرن إلى تحسين حال العامل والمعدن والعناية بالصحة العامة وحالة السجون عن طريق حكومة الولاية أو الهيئات المحلية . وليس ينكر كذلك أن سعياً بذل هنا وهناك لتنظيم العمال فى هيئات تتكلم باسمهم وتحمى مصالحهم ، وأن طوائف مختارة من رجال العلم والاجتماع بدأت تعنى عناية كبيرة بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية . وكانت أوربا نفسها قد سبقت إلى الاهتمام بمبادئ العدل الاجتماعى وقطعت فيه شوطاً لا بأس به ، فسنت قوانين شتى لضمان سلامة الشيوخ وغيرهم قبل نشوب الحرب العالمية الأولى . ولما أسفرت تلك الحرب عن انهيار غير واحدة من الحكومات الأوتوقراطية ، اشتدت المطالبة بإصلاح من هذا القبيل ، ولم تكن المطالبة خالية من العنف أحياناً . وكانت الولايات المتحدة تتوفز لإصلاح من هذا القبيل فى عهد ولسن قبل دخول الحرب العالمية الأولى ، فلما دخلت الحرب انقطع الجهد ، ولما انتهت ضاعت الرغبة فى الإصلاح ، فى غمرة الإقبال واليسر التى تلتها ورغبة العودة إلى الحال كما كانت قبلها . وقد كان روزقلت ، أسوةً بغيره من جماعة الأحرار ، يدرك ضرورة الإصلاح ،

ولكنه لم يدرك مدى الحاجة وعمقها . فجاءت الضائقة في سنة ١٩٢٩ كاشفة عن حقيقتيها . ومن حسن الحظ أنه تولى منصب الحاكم في ولاية نيويورك في أول يناير سنة ١٩٣٠ ، فأتيحت له الفرصة الملائمة لأن يلمس بأصبعه إخفاق الجماعات الخاصة التي كانت المسيطرة على الحكومة الاتحادية ، في حل المشكلة الاقتصادية ، أو في العناية بالعدد الكبير المتزايد بين الناس الذي كان في حاجة إليها . فألوان العلاج التي اقترحتها هذه الجماعات كانت غير وافية بالغرض ، ولم تمس أصول المشكلة . وكان في طبيعة أخطائهم معارضتهم لكل إصلاح اجتماعي تقتضيه الحالة .

« فالتوزيع الجديد » في ناحيتيه ، ناحية (الإصلاح) وناحية (الإنعاش) كان محاولة من قبل روزفلت ومعاونيه لحلّ هاتين المشكلتين — أي العودة بالحكومة إلى السيطرة الديمقراطية ، والسعى إلى تحقيق العدل الاجتماعي .

ويعترف روزفلت في مقدمة مجلداته بأن من يسعى إلى استكشاف وجوه التناقض في كل ماتمّ لن يخيب . فهناك تناقض مردهُ إلى البحث عن أساليب حل مشكلات عاجلة وأخرى بعيدة الأمد (كالمساعي المبذولة في سبيل الفلاح انظر صفحة ١٤٨ — ٤٩) . وتناقض مردهُ إلى قلة العلم ببعض المسائل المطروحة للبحث والحلّ . وتناقض مردهُ إلى ضرورة التجريب . ومع ذلك فليس ثمة ريب ، في أنه برغم هذا التناقض ، وبرغم الإخفاق أو قلة النجاح الذي لازم كثيراً من المشروعات والقوانين ، نتبين التيار العام والهدف البعيد . و « التوزيع الجديد » لا يجب أن يحكم له أو عليه الآن . فتأثيره ماضٍ بعد ما يخرج روزفلت من البيت الأبيض ، بل بعد ما يخرج روزفلت من هذه الحياة إلى لقاء ربه . وليس ثمة ريب ، في أن كثيرين من الأميركيين ، عارضوا « التوزيع الجديد » مبدأً وعملاً ، مدفوعين على الأكثر بدافع مصلحة خاصة ، ولكن الكثرة الكبيرة من الشعب الأميركي ، وافقت عليه في انتخاب الرأسة سنة ١٩٣٦ ثم في انتخاب الرأسة في سنة ١٩٤٠ . ففي سنة ١٩٣٦

أعيد انتخاب روزفلت للرئاسة باتفاق ٥٢٣ صوتاً على ثمانية أصوات في مجمع انتخاب الرئيس ، وباتفاق ستٍّ وأربعين ولاية على ولايتين . وكانت أكثريته الشعبية أحد عشر مليوناً أو تزيد . وفي سنة ١٩٤٠ خرج الشعب الأميركي على قداسة التقليد بعدم انتخاب رجل ما ثلاثاً للرئاسة ، وانتخب روزفلت ، فكان أول أميركيٍّ جلس في مقعد الرئاسة أكثر من ثماني سنوات . نعم إن تعكّر الجوُّ الدولي ، وتعدّ المشكلات الناشئة عن الحرب ، وسداد الخطة التي جرى عليها روزفلت أيّدته في هذا الانتخاب . ولكن منافسه ولكي في سنة ١٩٤٠ لم يكن مخالفاً له في القواعد الرئيسية الخاصة بالسياسة الخارجية والحرية . والغالب أن تأييد الشعب لسياسة « التوزيع الجديد » مع ما فيها من أخطاء في التطبيق ، هو الذي رجّح كفة روزفلت حينئذٍ .

ولعلّ العبارة التالية المنقولة من خطبة رآسته الثانية (٢٠ يناير ١٩٣٧) أبلغ ما يساق للدلالة على نزعتِه الانسانية الصادقة . قال بعد ما وصف التحسن في حالة الأمة خلال رآسته الأولى : — أنقف الآن مستدبرين الطريق الذي أمامنا ؟ إنني أرى ثلث هذه الأمة سيء المأوى ، سيء الملبس ، سيء الغذاء . وإذا رسمت هذه الصورة القائمة فلست أرسّمها بريشة القنوط . إنني أرسّمها بريشة الرجاء ، لأن الأمة التي ترى وتدرّك ما فيها من جور ، تنوى صدقاً أن تمحوه . إننا عازمون على جعل كل أميركي موضوع عناية البلاد ، ولن نعد جماعة ما خاضعة للقانون داخل حدودنا ، جماعة متطفلة علينا . إن مقياس ارتقائنا ليس قدرتنا على الإضافة إلى وفر الذين يملكون وفرّاً ، بل أن نتيح الكفاية للذين لا يملكون الكفاية » .
هذا هو المعنى الذي تبلور في ما بعد في قوله : « التحرر من العوز » .

بعدما جدد انتخاب روزقلت للرئاسة في سنة ١٩٣٦ ، ارتكب خطأين سياسيين ، تردد صداهما في طول البلاد وعرضها ، ولكنهما لم يؤثرا تأثيراً يذكر في مشروعات « التوزيع الجديد » وقضيا قضاءً أخيراً على الزعم بأن روزقلت حاكم بأمره (دكتاتور) .

بين مشروعات « التوزيع الجديد » مشروع كان يعرف بعد إقراره بقانون « الإنعاش القومي » (National Recovery Act والحروف التي ترمز إليه NRA) . ومردّه الأول إلى مشروع قدمه إلى مجلس الشيوخ أحد أعضائه — حينئذ — « هوجو بلاك » . ومداره جعل ساعات العمل في جميع الأعمال التجارية بين الولايات Inter-State ثلاثين ساعة في الأسبوع . وإذا كان المجلس لم يقرّه فإن المبدأ الأصيل فيه ، وهو « زيادة عدد العمال العاملين بنقص ساعات العمل » أصبح في حكم المقرر . وعندئذ عمدت « فرانسيس بركنز » وزيرة العمل ، إلى إضافة مبدأ ثانٍ إليه وهو « تعيين حدٍ أدنى للأجور » . ثم أضيفت إليهما مبادئ أخرى ، منها « الاستقلال الذاتي في الصناعة والتجارة » على أن تدبر الهيئات المختلفة شؤونها وفقاً لدرساتها يتفق عليها بين أصحاب العمل ، ويكون هذا التدبير تحت إشراف الحكومة . وقد قرر هذا المبدأ تفادياً لسن تشريع جامد ، قد لا يستطيع تطبيقه أو تتعذر ملاءمته لشتى الأحوال التجارية والصناعية في البلاد . ومن هذه المبادئ زيادة « قدرة الأمة على الشراء برفع الأجور » .

جميع هذه المبادئ ضمنت قانون « الإنعاش الأهلي » . وعيّن الجنرال هيو جنسن للإشراف على تنفيذه ، ونصّ فيه على أن يعهد إلى كل صناعة في وضع دستور للعمل تجرى عليه وتعيّن فيه الحدود العليا لساعات العمل ، والدنيا للأجور ، وقواعد المنافسة

الشريعة القائمة على الإنصاف على أن توافق الحكومة على كل هذا . ولما كان وضع هذه الدساتير من حق أصحاب العمل ، فقد طلبت وزارة العمل أن يُمنح العمال حق تنظيم الهيئات الخاصة بهم لكي تمثلهم ، وكذلك وضع في صلب هذا القانون الفقرة الموسومة (7 a) ونصها : « للعمال حق التنظيم والمساومة المشتركة عن طريق ممثلين يختارونهم وأن يكونوا أحراراً من تدخل أصحاب العمل أو وكلائهم وضغطهم وإرغامهم » . وأنشئت مجالس استشارية لتمثيل العمال والمستهلكين . ووقع القانون في ١٦ يونيو ١٩٣٣

هذا القانون لقي اعتراضاً فيما بعد من ناحيته الدستورية في أثناء التطبيق ، وهل هو يتفق ونصوص الدستور الأميركي أو يخالفها . والهيئة العليا المختصة في الفصل في مسألة من هذا القبيل ، في الولايات المتحدة ، هي المحكمة العليا . فالسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في دستور الولايات المتحدة ، مفصولة إحداها عن الأخرى ، وتقوم كلٌّ منها رقيباً على الأخرى . فإذا أقرّ الكونغرس قانوناً ما ، ووافق عليه الرئيس ، وعارضه أيُّ من الناس ، كان في وسعه أن يرفع قضيةً ، وللمحكمة العليا حق الفصل النهائي في هل القانون مخالف للدستور أو لا . وكذلك أتيح للمحكمة العليا في ٢٧ مايو من سنة ١٩٣٥ أن تصدر حكماً إجماعياً بأن « قانون الإنعاش القومي » مخالف للدستور . فأصاب هذا الحكم مشروعات « التوزيع الجديد » من أساسها .

فسخط روزفلت على هذا الحكم ، ولكن سنة ١٩٣٦ كانت سنة انتخاب للرئاسة ، فقضت الضرورات السياسية بأن يمتنع عن اقتراح تعديل دستوري يمكنه من الاحتفاظ بمزايا تشريعات « التوزيع الجديد » ، لأن كل اقتراح من هذا القبيل قد يفسره خصومه الجمهوريون بأنه سعى إلى إخضاع الأعمال الصناعية والتجارية لسيطرة الحكومة الاتحادية ، أي أن يسموه بالشيوعية .

وبينما كان الحزبان يتأهبان لعقد المؤتمرين اللذين يُختار فيهما المرشحون للرئاسة

والوكالة ، ارتكبت المحكمة العليا خطأ ، ساعد روزفلت في ما يلي . ذلك بأن هذه المحكمة كانت قد قرّرت إلغاء القانون الذي سنه الكونغرس خاصاً بتحديد الأجور وساعات العمل . ثم قرّرت -- وهذا خطأها -- إلغاء قانون خاص بتعيين حد أدنى لأجور النساء ، وكان هذا القانون قد سن في ولاية نيويورك . فذهل الناس . لأن المحكمة حكمت ، بأنه ليس في الدولة كلها سلطة ما مختصة بالتشريع في ما يخص ساعات العمل وحدود الأجور ، لا في حكومات الولايات كل منها على حدة ، ولا في الحكومة الاتحادية . حتى زعماء الحزب الجمهوري المقاومين للتوزيع الجديد لم يستطيعوا أن يبلعوا قراراً من هذا القبيل . وكذلك قرّروا في بيان سياستهم الذي أعده مؤتمرهم أنهم ينوون « حماية النساء والأطفال في ما يخص تحديد حد أدنى لساعات العمل وحد أدنى للأجور وأحوال العمال » ثم أضافوا « ونحن نعتقد أن هذا مستطاع في نطاق الدستور كما هو الآن » . وبعد ما رُشّح الحاكم « لاندون » للرئاسة عن الحزب الجمهوري أنبأ مؤتمره أنه سيطلب تعديل الدستور إذا اقتضى الأمر ذلك للبر بهذا العهد . فأضعف هذا الحادث من تأييد الجمهوريين للمحكمة ضد الرئيس ، وعززت المحكمة بعملها هذا موقف روزفلت .

فلما أعيد انتخاب روزفلت (١٩٣٦) بأكثرية عرفت في تاريخ الرئاسة الأميركية ، ارتكب خطأين سياسيين . أما الأول فمحاولته التغلب على المحكمة العليا ، باصدار قانون خاص بتعديل عدد أعضائها (١٩٣٧) ، والثاني بمحاولته تطهير الحزب الديمقراطي من بعض « شيوخه » الذين لم يؤيدوه في نزاعه مع المحكمة العليا . فأخفق في الحالين .

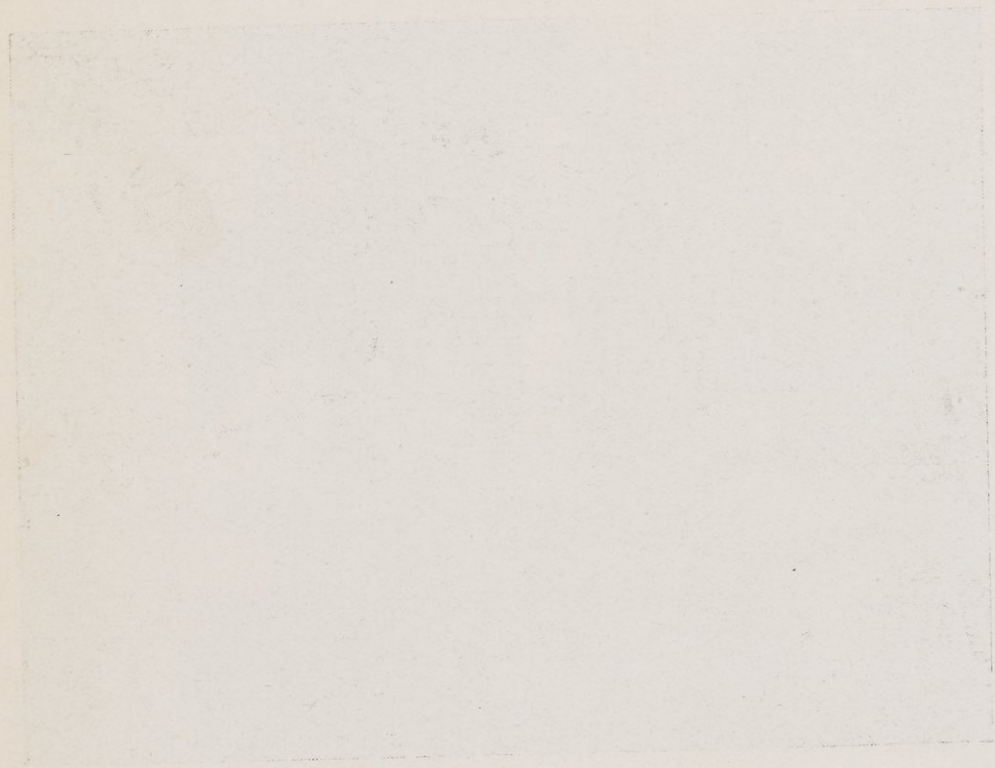
وكان مدار القانون الخاص بأعضاء المحكمة العليا ، أن يسمح للرئيس ، بتعيين قاض في المحكمة ، إلى جانب كل قاض بلغ السبعين ولم يعتزل العمل ، على ألا يزيد عدد أعضائها (وهم تسعة) في حال ما على خمسة عشر عضواً .

واقترح تغيير عدد أعضاء المحكمة العليا ليس جديداً في تاريخ الولايات المتحدة السياسي . فقد غير عددهم خمس مرات قبلاً . ولو كان الباعث على سعيه هذا سياسياً محضاً لما كان مناقضاً للتقليد الأميركي ، وإن كان هذا التقليد لا ينزل في طبقة التقاليد السياسية المحترمة عند الأميركيين . ولكنه لم يتوسل بالسياسة في مقترحه بل بالعجز الذي غالباً ما يلازم الشيخوخة . فالتوسط من الناس قلما يستطيع أن يبذل نشاطاً كبيراً جسدياً أو عقلياً ، بعد ما يجوز السنة السبعين من العمر . وهذا حكم لا ينقضه أن فولتير وغلادستون وبرناردشو وفارس نمر شذوا عليه . ولكن وراء هذا التوسل كانت الحقيقة القائمة أن هذه المحكمة التي قوامها تسعة قضاة معظمهم من الشيوخ ، كانت واقفة سداً منيعاً دون تنفيذ برنامج « التوزيع الجديد » . وكان روزفلت يرى ، مخلصاً في رأيه ، أن المحكمة لم تحكم حين حكمت على « دستورية القوانين » بل على « حكمة » هذه القوانين . أما الأول فمن حقها . وأما الثاني فليس كذلك . وكانت طائفة كبيرة من أحكامها تصدر باتفاق خمسة من القضاة على أربعة . ولذلك رأى أن لا بد من الاحتجاج على هذا العمل ، فأفرغ احتجاجه في قالب تشريع يتيح له تعيين أعضاء جدد في المحكمة العليا ، يرجحون كفة النزعة الحرة في تفسير نصوص الدستور على كفة النزعة المحافظة أو الرجعية .

ويرجع هذا الاقتراح الجديد ، إلى وثيقة كانت محفوظة في وزارة العدل وضعها في سنة ١٩١٣ النائب العمومي مكرينولنز (وهو نفس مكرينولنز الذي غدا — وهو عضو في المحكمة العليا — أعند خصوم التوزيع الجديد) ولباب هذا الاقتراح تعيين قاض في المحاكم الفدرالية من غير الشيوخ جنب كل قاض شيخ بلغ السبعين ولم يعتزل منصبه .

ولم يكن الخطأ الذي ارتكبه روزفلت في هذا الصدد في المقترح الذي اقترحه ، بل في ظهوره مؤيداً له . ففي رأسه الأولى كان روزفلت قد استعدى كثيرين

مجلد ۱۱۱



ة
يا
د
ن
ا
ن
ن
ة
ن
ن
ة
ها
و
ن
م
،
ن



الرئيس روزفلت يخطب
إلى يمينه وكيل الرئاسة « وللاس » وإلى يساره وزير الزراعة « وكرد »
وأمامه أجهزة الاذاعة

عليه . لأن تشريعات « التوزيع الجديد » ، هاجمت الطبقات المميزة بالغنى والجاه من الشعب الأميركي . والمميزون في كل أمة أصحاب مال ونفوذ ولو كانوا أقلية . وكل من يملك المال والنفوذ يستطيع أن يرفع الصوت عالياً من كل ناحية أو أن يستأجر مَنْ يصيح . وإذن فكل صاحب مال أو نفوذ أو دخل كبير ، مسته تشريعات « التوزيع الجديد » كان يتوق إلى فرصة تتيح له أن يطعن صاحبها . ولكنه لا يستطيع أن يظهر أنه مندفع بحب الانتقام وحسب ، فعليه أن ينتظر إلى أن تواتيه فرصة يبدو فيها أنه داع في سبيل قضية مقدسة ، فيلفُ بستارها بواعثه الخاصة . فلما قام النزاع حول المحكمة العليا ، أتاح روزفلت لخصومه الفرصة التي طالما تاقوا إليها . وهذا خطؤه . فاعتنموها ورفعوا الصوت عالياً ، هم وأتباعهم ، بأن كل همّ الرئيس أن يحشد أتباعه في المحكمة ، فتغدو تأتمر بأمره ، وتوافق على كل ما يريد . أين استقلال القضاء ! ليس ثمة ريب في أن هذا التصوير للمسألة كان تصويراً خاطئاً . وكثير من تفاصيل المشروع المقترح لإصلاح القضاء كان في محله وجديراً بالموافقة عليه في رأى العقلاء والمنصفين من الأميركيين . ولكن الفرصة أتيحت للذين يريدون أن يصوروه هذا التصوير الخاطئ . فلم يثنوا وهم يعلمون أن أقوالهم تضرب على أوتار حساسة في نفوس الشعب ، فأفضت إلى سقوط منزلة الرئيس قليلاً ولكنها لم تكن كافية لمنع الديمقراطيين من الفوز في الانتخابات النيابية (١٩٣٨) ولا للحيلولة دون انتخاب روزفلت ثالثة (١٩٤٠) .

ومهما يكن من أمر فقد امتنع الكونغرس عن الموافقة على القانون ، وكان بين معارضيهِ غير واحد من أقطاب الحزب الديمقراطي نفسه . وهذا أفضى بالرئيس إلى ارتكاب خطئه السياسي الثاني . فسنة ١٩٣٨ كانت سنة انتخابات نيابية في الولايات المتحدة (جميع أعضاء مجلس النواب وثلاث أعضاء مجلس الشيوخ) . فوجه روزفلت إلى الشعب نداءً ناشدهم فيه أن يهزموا في الانتخاب المقبل أعضاء مجلس الشيوخ

الذين عارضوا مشروعاته . ففعل هنا ما فعله قبلاً في مسألة المحكمة العليا ، أى حرك
كوامن الشعور الأميركي ، في مسائل أحاطها الزمن بلون من القدسيّة في نفوس
الأميركيين . ذلك بأن في الولايات المتحدة تنكراً شديداً لتدخل البيت الأبيض في
انتخابات الولايات ، وقد جرّبه ولسن في سنة ١٩١٨ عند ما ناشد الأمة الإقبال على
انتخاب مرشحي الحزب الديمقراطي ، فدارت عليه الدائرة ، وواجه مجلسي كونغرس
أكثرتهما من الجمهوريين ، فعجز عن الفوز بإبرام المعاهدة التي عاد بها من مؤتمر
الصلح في أوربا . وميل الرئيس إلى التدخل ميل طبيعي . ولا سيما إذا كان رئيساً
يوليه الشعب ثقته وحبّه . وكثيراً ما تأتيه الوفود من ولاية ما ، فيصورون له الحالة
تصويراً خاصاً ، ويؤكدون له أن كلمة منه تحرف الميزان . وكثيراً ما يصدق التصوير
ويحدث الانحراف المطلوب ، ولكن مقام الرئيس العظيم ، يتيح للرجل الذي يحمل
الرئيس عليه ، عطف العامة من الناس ، لاعتقاد هذه العامة أن النضال بينهما
غير متعادل . فيهرعون إلى تأييد الضعيف . وكذلك حصل في الانتخابات النيابية
في سنة ١٩٣٨ . فقد كان الرئيس يرغب في هزيمة طائفة معينة من أعضاء مجلس
الشيوخ الديمقراطيّين ، وقال ذلك فعمد خصومه حالاً إلى وصف هذا التصريح بأنه
من نوع التطهير الذي يعمد إليه الطغاة . فأنحاز جمهور الناخبين إلى هؤلاء الأعضاء
وأعادوا انتخابهم .

كيف أخطأ روزقلت الحنك هذا الخطأ السياسي ؟ يقول بعضهم إنه عمد إلى
هذا النداء رغبةً منه في انتخاب أعضاء يكفل بانتخابهم تماسك الحزب . وهو تفسير
معقول ، وهذه الرغبة في أمة ديمقراطية رغبة سليمة ، وهذا هو تفسير الأصدقاء .
ويقول بعض آخر إن الرئيس سخط فضل الرشد ، وهذا هو تفسير الخصوم . ولكنه
لا يأتينا بجديد . فروزقلت ليس قديساً لا يغضب ولا يسخط . ومتى سخط فحكمه
ليس بمنجي من الخطأ ، إذ من يكون معصوماً عن الخطأ عند ما يستشيط غضباً !

ولكن مهما يكن التفسير ، فليس ثمة ريب في أن إعجاب الشعب الأميركي بالرئيس روزفلت ، لا يخالف ولا يناقض استقلال ذلك الشعب في أحكامه . فقد مضى على الرئيس عشر سنوات وهو أعلى الأميركيين مقاماً وأعظمهم نفوذاً ، وقد أيده الشعب تأييداً كبيراً في ثلاث معارك انتخابية للرئاسة . ومع ذلك فهذا الشعب لا يُسَلِّم تسليماً أعمى بأن ما يقوله روزفلت مقدس ، ويستطيع عند ما يلزم ، أن يقول له « قف » .

فسرّ الحوادث كما تشاء . فقد كانت خيئته في منازلة الحكمة العليا ، وإخفاقه في تطهير الحزب من بعض أعضائه ، تعنيفاً سياسياً للرئيس ، ولكن متى تمكّن النخبون في ألمانيا أو إيطاليا من تعنيف هتلر أو موسوليني على هذا الوجه ، فتعال وحدثني عن دكتاتورية روزفلت ! إذ ما قيمة دكتاتور لا يستطيع أن يقصى أو يقضى قضاءً سياسياً طبيعياً ، على خصم سياسيٍّ له !

هل في وسع الكاتب أن يتبين تأثير « التوزيع الجديد » في هذه الحرب ؟ قد يكون العمل شاقاً محفوفاً بالمزالق ، ولكن الموضوع جدير بالمحاولة .

إن نظرة عامة إلى ما تقدم من أغراض « التوزيع الجديد » ، وما قيل على لسان روزفلت وهل (وزير الخارجية) وسمندولز (وكيل الخارجية) عن أغراض الدول المتحدة في الحرب ، ولا سيما ما طوى منها في الوثيقة المعروفة بدستور المحيط الأطلسي ، وتصريح الحريات الأربع ، لضمينة باستشفاف الصلة الوثيقة ، بين قواعد السياسة الاجتماعية الداخلية في الولايات المتحدة ، وبين الأهداف المتوخاة في هذا النضال العالمي المستحضر . والصلة تتضح على وجه خاص بعد المقابلة ، بين الأهداف التي أعلنها ولسن في سنة ١٩١٨ ، والأهداف التي أعلنها روزفلت وتشرشل ثم روزفلت وأعوانه في ١٩٤١ و ١٩٤٢ .

كان وودرو ولسن أبلغ ناطق بلسان الحلفاء في سنة ١٩١٨ وأفصح مُعربٍ عن أغراضهم . فقد كان يجيد القول علاوةً على كونه رئيس الدولة الكبيرة الوحيدة المعروفة عند شعوب الأرض بأنها لا تبغى التوسع الجغرافي . ثم إن زملاءه رؤساء الدول الحليفة ، ما كان في وسعهم ، لشدة حاجتهم إلى عون الولايات المتحدة الأميركية ، أن يعترضوا على الأهداف التي أذاعها الرئيس الأميركي ، فاسترعت اهتمام الشعوب . وولسن لم يكن مصلحاً اجتماعياً قومياً كبيراً ، في المقام الأول ، بل كان يهتم بالإصلاح الاقتصادي من ناحية تأثيره في تجارة الأمة الداخلية والخارجية .

وكذلك جاءت « الشروط الأربعة عشر » إعراباً عن عقيدة رجل يمت إلى أحرار القرن التاسع عشر بصلة وثيقة ، فقد كان دستورياً يؤمن بالحرية السياسية والديمقراطية السياسية . ولذلك كانت القواعد التي قامت عليها هذه الشروط : الدبلوماسية الصريحة ، وحرية البحار ، ونزع السلاح ، وتقرير المصير ، والاعتراف بالقومية في أوربا والشرق الأدنى ، وإنشاء « جماعة من الأمم » تضمن النظام الدولي والسلام في المستقبل . فبحسب ولسن كانت طريقة معالجة المشكلات الاقتصادية الداخلية والإصلاح الاجتماعي الداخلي في أمة ما من شأنها الخاص دون الدول الأخرى .

ولكن الرأي في عمل الحكومة ووظيفتها في المجتمع ، كان قد أخذ يتطور حتى عندما كان ولسن يرسل كلماته البليغة التي هزت أوتار النفوس . ففي طائفة كبيرة من دول أوربا ، كانت الحكومات قد أنشأت تشارك مشاركة فعالة في مسائل الصحة وضمان السلامة الاجتماعية وإتاحة فرص العمل وما أشبه . وفي سنة ١٩٣٢ أصبح هذا الرأي في وظيفة الحكومة « قاعدة » أساسية في سياسة الحزب الديمقراطي . وليس يهمننا هنا البحث في حكمة تشريعات « التوزيع الجديد » ، ولكن يهمننا أن نقول إن الشعب الأميركي سلم بالمبدأ العام ، وهو أنه يتعين على الحكومة أن تضمن للشعب شيئاً أكثر من الحرية السياسية .

فمنطق التماسك في رأى روزفلت وخلقه ، وسير الحوادث العالمية ، اقتضيا بحكم الطبع ، أن يبحث روزفلت العالم على قبول هذه الفلسفة الاجتماعية الاقتصادية الجديدة ، هدفاً من أهداف الحرب . ونصوص « دستور المحيط الأطلسي » لا تدع مجالاً للريب في صحة هذا الاستنتاج . فستة من النصوص تحذو حذو أقوال ولسن في شروطه الأربعة عشر ولكن النصين الباقيين يحتويان على عهد مقطوع بالتعاون بين الدول « على رفع مستوى عيش العمال والتعديل الاقتصادي وضمان السلامة الاجتماعية » وعلى تحرير الناس « من الخوف والعوز » . إذن هذا هو « التوزيع الجديد » مفرغاً في قالب دولي . وقد جرى تصريح روزفلت الخاص بالحريات الأربع (يناير ١٩٤١) على الطريق نفسه

ولا يجدينا في هذا المقام ، أن نناقش مسألة ، قد تكون في الصميم من النظام الدولي المرتجى ، وهي : هل يتفق الاستقلال القومي مع السعي الدولي لتحقيق حقوق الفرد في معناها الجديد ، داخل كل دولة ؟ وحسبنا أن نقول إن أغراض هذه الحرب تشمل أغراض « التوزيع الجديد » ، وهذا ظفر كبير لبرنامج قومي ، كما تنقض عليه إلا تسع سنوات أو أكثر قليلاً .

1. *...*
 2. *...*
 3. *...*
 4. *...*
 5. *...*
 6. *...*
 7. *...*
 8. *...*
 9. *...*
 10. *...*
 11. *...*
 12. *...*
 13. *...*
 14. *...*
 15. *...*
 16. *...*
 17. *...*
 18. *...*
 19. *...*
 20. *...*
 21. *...*
 22. *...*
 23. *...*
 24. *...*
 25. *...*
 26. *...*
 27. *...*
 28. *...*
 29. *...*
 30. *...*
 31. *...*
 32. *...*
 33. *...*
 34. *...*
 35. *...*
 36. *...*
 37. *...*
 38. *...*
 39. *...*
 40. *...*
 41. *...*
 42. *...*
 43. *...*
 44. *...*
 45. *...*
 46. *...*
 47. *...*
 48. *...*
 49. *...*
 50. *...*
 51. *...*
 52. *...*
 53. *...*
 54. *...*
 55. *...*
 56. *...*
 57. *...*
 58. *...*
 59. *...*
 60. *...*
 61. *...*
 62. *...*
 63. *...*
 64. *...*
 65. *...*
 66. *...*
 67. *...*
 68. *...*
 69. *...*
 70. *...*
 71. *...*
 72. *...*
 73. *...*
 74. *...*
 75. *...*
 76. *...*
 77. *...*
 78. *...*
 79. *...*
 80. *...*
 81. *...*
 82. *...*
 83. *...*
 84. *...*
 85. *...*
 86. *...*
 87. *...*
 88. *...*
 89. *...*
 90. *...*
 91. *...*
 92. *...*
 93. *...*
 94. *...*
 95. *...*
 96. *...*
 97. *...*
 98. *...*
 99. *...*
 100. *...*

الفصل الخامس

الولايات المتحدة والعالم

- ١ - قواعد سياستها الخارجية
- ٢ - روزفلت وسياسة الجار الطيب
- ٣ - قانونا « الحياد » و « الإقراض والتأجير »
- ٤ - الولايات المتحدة محاربة
- ٥ - روزفلت وهتلر والعالم المرتجى

إن حقائق الجغرافية والتاريخ والاقتصاد هي التي تملئ على كل أمة سياستها الخارجية . وليس في وسع أمة ما أن تتحرّر ، في وضع سياستها الخارجية ، من أحكام موقعها الجغرافي وتطوّرهما التاريخي وحالتها الاقتصادية . والولايات المتحدة الأميركية ، لا تستطيع ، ولو شاءت ، أن تشذ على هذا الحكم .

فالقوة المحركة الأولى في سياسة الولايات المتحدة الخارجية ، هي الرغبة في تحقيق السلامة القومية . وهذه الرغبة ، لا تختلف عن رغبة الدول الأخرى . ولكن وضعها الجغرافي ، ونموّها الاقتصادي ، حملاها على الخروج على كثير من قواعد السياسة الخارجية ، التي جرت عليها دول أوربا بوجه عام . فشواطئ القارة الأميركية الشمالية ، في الشرق وفي الغرب ، بعيدة عن أقرب الدول إليها ألوفاً من الأميال ، وهذه المسافات الطويلة ، كانت في عهد نشوء الدولة الأميركية ، حائلاً كبيراً دون خطر الغزو . فاستطاعت الأمة الأميركية أن تتوسّع في مناطق شاسعة غنية من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي ، من خليج المكسيك إلى منطقة البحيرات الكبيرة ، من غير أن تلقى بالاً إلى خطر غاز أو تهديد فاتح . وبدلاً من أن تجنّد أبناءها وتسلّحهم ، ليكونوا أبداً متأهبين ، لردّ خطر محتمل أو قريب ، انطلقوا أحراراً في غزو الأراضي البكر ، يحولونها حقولاً فساحاً ، وينشئون فيها مدناً بالمئات والألوف ، ويقيمون فيها مصانع تنتج للاستهلاك المحلي أولاً ، ثم للإصدار كذلك . ومضى قرن على الأمة الأميركية ، بعد استقلالها ،

وهي لا تحسُّ حاجةً ما ، إلى إنشاء أسطول كبير ، بينما كانت الدول الأوربية مضطرةً إلى إرصاد مبالغ وافرة من المال للتسلُّح البري والبحري .

ففي قرنٍ من الحياة القومية ، المتسمة بغزو الطبيعة ، واطراد الإقبال ، والبعد الجغرافي عن النزاع الدولي ، والرضى عن الحكم السياسي الذي آثروه ، بعد الثورة والاستقلال ، لا يستغرب أن ينشأ في الأمة الأميركية ميل إلى الابتعاد عن الأمم الأخرى ، بل والتعالى عليها . فالبعد ومشتقة المواصلات يولدان الجهل ، والأميركيون كانوا إلى عهد قريب يجهلون عن العالم الذي خارج عالمهم أكثر مما يعلمون . والنظام الجمهوري الذي اختاروه ونعموا في ظلِّه بالحرية وانفساح فرص الارتقاء للمادى حملهم على النظر إلى سائر الأمم التي لم تجارهم فيه ، نظر الكبير إلى الصغير ، أو رفيع المقام إلى حقيره . وانصرفهم أولاً إلى استغلال موارد بلادهم الغنية وردَّ حدودهم إلى الساحل الغربي ، شغلهم عن الاهتمام بكثير من وجوه النزاع الاقتصادي العالمي . وما ترامى إليهم عن دهاء الساسة في أوربا بذر في نفوسهم بذور النفور منهم وعدم الاطمئنان إليهم . وإذا استثنينا حرب الاستقلال والحرب الأهلية ، فجميع الحروب التي خاضها الأميركيون كانت خارج بلادهم . ومع أن هذه الحروب شغلتهم حيناً من الزمن ، إلا أن موقفهم منها كان على الأكثر موقف المتفرج . فقليل بين الأميركيين من يشعر كما يشعر روبرت بروك الشاعر الانكليزي ، بأن مقبرة في فلاندر فيها جثث جنود انكليز هي زاوية من انكلترا . فالأميركيون لم ينشئوا في فرنسا مدافن لجنودهم الذين سقطوا فيها في الحرب العالمية الأولى ، بل حاولوا استرجاعها إلى بلادهم على الأكثر .

أي ان الولايات المتحدة استطاعت ، خلال جانب كبير من تاريخها ، أن تنصرف عن مناورات « سياسة القوة » التي مُنيت بها بقاع أخرى من الأرض . فليس لها جيران تخشاهم ، والقوة الوحيدة التي كانت تخشاهم إلى مطلع العصر الحديث كانت

القوة البحرية ، ومع ذلك لم يكن في أوربا وآسيا في ذلك العهد ، أمة ما ، مهما تكن مطامعها ومطامحها ، تستطيع أن تستدبر أوربا لتمدّ يدها إلى ما وراء المحيطين الهادئ والأطلسي ، بغير أن تخشى الدول الأخرى في آسيا وأوربا . فالولايات المتحدة جنت بغير أن تعلم ، خيراً كبيراً — من ناحية السلامة والاطمئنان — من سياسة توازن القوى ، التي تركت أوربا منقسمة على نفسها ، وأتاحت للولايات المتحدة مجالاً لتكون قوة عالمية في الطبيعة ، لأنها أتاحت لها فرصة لتحوّل قوتها الكامنة إلى قوة حقيقية فعّالة .

فكان من الطبيعي أن يعدّ الشعب الأميركي الاهتمام بالسياسة الخارجية مدة ما من النوافل . وتاريخ الولايات المتحدة الدبلوماسي إلى القرن العشرين لا يشمل في ماعدا فترات قصيرة ، قصص المناورات السياسية ، بل يشمل على الأكثر ما كانت الحكومة الأميركية تطلبه تعويضاً لأبنائها في روسيا والصين وأرلندة وغيرها ، وكان السفير الأميركي ، أو الوزير المفوض في معظم العواصم ، كأنه فتاة منتحية في بهو الرقص ركناً تطل منه على الرقص — الدبلوماسي — بغير أن تشترك فيه وساعد على هذا الموقف ، أن الشعب الأميركي ، شعب خليط . فالصلات النفسية والبيولوجية القوية ، بين فئات معينة من الشعب الأميركي ، والبلاد الأوربية التي نزحوا عنها ، كانت قوية فلم يكن من الحكمة أن تتخذ حكومة الولايات المتحدة موقفاً معيناً مع فئة من الدول ضد أخرى ، لئلا يفضى ذلك إلى نقل العداوات الأوربية القديمة ، إلى العناصر التي يتقوّم بها الشعب الأميركي في العالم الجديد .

ومع ذلك فهذه الأحكام العامة لا تصدق بغير استثناء ، ففي أيام جورج واشنطن تتبع الأميركيون النضال بين بريطانيا وفرنسا بكل اهتمام . وفي أيام ماديسون ، لم يسلموا من أعاصير الحروب النابوليونية ، وفي أيام مونرو ، لم يقفوا وقفة

المتفرج وحسب من ثورات أميركا اللاتينية وحرب استقلال اليونان . ولعل أول دليل على منزلة الشؤون الخارجية عندهم ، أن الرجل الذي يلي الرئيس منزلة ومقاماً في الحكومة الأميركية ، إنما هو وزير الدولة Secretary of State أى وزير الخارجية .

ثم جاءت سنة ١٩١٤ . فقبل تلك السنة كان في وسع الأميركيين أن ينصرفوا عن الاهتمام بالسياسة الخارجية فترات طويلة . والواقع أن ولسن لم يورد في خطبة تنصيبه الأولى (٤ مارس ١٩١٣) إشارة ما إلى السياسة الخارجية ، وفي رسالته إلى الكونغرس في ديسمبر في تلك السنة ، أشار إشارة عابرة إلى مساعي وزير خارجيته بريان Bryan لعقد معاهدات غرضها أن يتعهد الفريقان المتعاقدان ألا يعمدا إلى الحرب ، مدى سنة كاملة بعد قيام نزاع بينهما ، فيتسع الأمد لبحث النزاع ، ولتهذئة الخواطر ، كما أشار إشارة عابرة أخرى إلى اغتصاب الحكم في المكسيك .

ولكن الأميركيين بدأوا بعد نشوب الحرب في سنة ١٩١٤ ، يتنبهون إلى شؤون العالم وأنشأوا لذلك هيئات ومجالس لدراسة المسائل الخارجية ووضع كتب وتقارير فيها ، مثل « مجلس العلاقات الخارجية » الذي يصدر مجلة « الشؤون الخارجية » Foreign Affairs وهي مجلة ربعية . وهذا مثل واحد من عشرات . ويضاف إلى ذلك اهتمام صحفهم الكبيرة بالشؤون العالمية ، ونبوغ فريق من المراسلين الذين جعلوا همهم إطلاع القراء الأميركيين على سير الحياة في شتى بلدان العالم . وكذلك تحطمت رويداً رويداً طائفة كبيرة من الحوائل التي كانت تفصل شعب الولايات المتحدة عن العالم .

وليس الغرض من هذه الفقرة الأولى ، في هذا الفصل إلا أن تكون توطئة لبحث سياسة الولايات المتحدة الخارجية في عهد الرئيس فرنكلن ديلانو روزفلت . فالجبال

لا يتسع لتتبع التطور التاريخي لهذه السياسة وتأثرها بشتى العوامل الحربية والاقتصادية والسياسية والثقافية . ومع ذلك فلا مفر ، رغبة في الوضوح ، من الإشارة إلى الصفات الخاصة الدائمة — بقدر ما لآراء الناس من دوام — التي تتصف بها السياسة الخارجية الأميركية ، أو نظرة الشعب الأميركي وشعوره حيال مسائل السياسة الخارجية .

١ — إن القاعدة الأساسية الأولى في السياسة الأميركية الخارجية ، هي ميل الحكومة والشعب إلى تأييد النظم الديمقراطية في الحكم والحكومات الشعبية في جميع أنحاء الأرض . فالجمهورية الأميركية ولدت في أحضان الثورة على تحكم انكلترا والملك جورج الثالث . فغرس ذلك في كيانه السياسي والاجتماعي ، الشعور بأن لها رسالة قومية تؤديها ، وأن لباب هذه الرسالة هو بذل ما في الوسع لتعزيز الحكومات الشعبية في جميع الأمم ، فلم تفوت فرصة أتاحت لها ، بغير أن تندد بالحكومات القائمة على التحكم . فالرغبة في الحرية التي حملت الرعيل الأول من آباء أميركا الحديثة على الرحيل من بريطانيا وهولندا إلى العالم الجديد ، ثم الشعور الذي دفع برجال « المستعمرات » إلى تحدى الملك جورج الثالث في سنة ١٧٧٦ ، هو هو الشعور الذي دفع ولسن إلى انتضاء السيف ضد القيصر والعسكريين الألمان في الحرب العالمية الأولى (١٩١٧) ثم دفع فرنكلن روزفلت خلال هذه الحرب إلى الحملة على قوى الطغيان . فاقتناع الولايات المتحدة بأنها يجب أن تكون مثلاً للحرية والديمقراطية ، أساس تلك الخطبة الرائعة التي خطبها لنسكن في ساحة جتسبرج وقال فيها إذا أخفقت هذه الأمة التي « ولدت في مهد الحرية ووقفت على مبدأ التساوى بين الناس » ضاعت ، لأنها لا تستطيع أن تحيا « نصفها عبدٌ ونصفها حرٌّ » وعندئذ تصاب أسس الحرية والديمقراطية في الأرض بصدمة قوية قد تزعزعها . ولذلك كانت الحكومة الأميركية ، سبّاقاً على العموم إلى الاعتراف بالحكومات الشعبية التي تلتها الثورات ، أو إلى تشجيع الشعوب المستبد بها إلى أن يحين وقت تحريرها .

وقد تقلب موقف الشعب الأميركي ، الذي يستند إلى هذه القاعدة ، خلال التاريخ الأميركي . ففي العهد الأول من تاريخ الجمهورية الأمريكية ، كان الأقطاب الأميركيون مدركين ، أن الجمهورية تجربة . فلما أصابت التجربة نجاحاً ، ومالت نظمها إلى الاستقرار ، مالوا هم كذلك إلى عدها منارة تضيء ، ومثالاً يحتذى للأساليب الديمقراطية . وإلى هذا أشار لنكن — في الخطبة التي تقدم ذكرها — عندما قال « إن حكومة الشعب من الشعب للشعب » تمتحن أقصى إمتحان فإذا خرجت من الإمتحان سليمة أثبتت للعالم أنها مما يجدر الموت في سبيله . أى أن الولايات المتحدة ، كانت تحاول أن تضرب المثل على قيمة النظم الديمقراطية ، بنجاح هذه النظم في بلادها . وهو ما مال إليه ستالين ، بعد خلافه مع تروتسكى على أثر وفاة لينين . فستالين ذهب إلى أن نجاح الدولة الاشتراكية في روسيا ، خير قدوة وأفضل دعوة إلى هذا اللون من نظم الحكم . بينما تروتسكى كان يميل إلى الدعوة إلى الثورة العالمية ، حتى قبلما يثبت أن هذا اللون من نظم الحكم آتى ثمره في بلد ما .

على أن ميل الولايات المتحدة إلى تأييد النظم الديمقراطية ، أفرغ في قالب فعال مستند إلى استخدام القوة في عهد ولسن عند ما جعل شعار أميركا في الحرب العالمية الأولى « تأمين العالم للديمقراطية » . ودراسة التاريخ الأميركي والسياسة الخارجية الأميركية ، تسفر عن حكم يكاد يكون ثابتاً ، وهو الولايات المتحدة ، تميل دائماً إلى مناهضة الحكومات المستبدة قولاً وفعلاً ، فتعطف عطفاً قوياً على النزعات الديمقراطية ، ولا تنى عن المشاركة الفعالة ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، في مكافحة الطغیان وتأييد الديمقراطية كما فعلت في ١٩١٧ — ١٩١٨ وفي ١٩٣٩ — ١٩٤٠

ومن نواحي هذه القاعدة في السياسة الخارجية الأميركية ، ناحية الإيمان بآدارة العلاقات الدولية على أساس ديمقراطى ، وهو إيمان يبلغ أحياناً حدود السذاجة والتنكر للفتنة . فالأميركيون يؤمنون بأن كُتِل الشعوب تستنكر الحرب ، وأن

الزعماء الذى لا يمثلون أهمهم تمثيلاً صحيحاً هم الذين يقودونها إلى الصراع ، وهذا الإيمان لا يقيم وزناً صحيحاً للبواعث التاريخية والسيكولوجية ، فى حياة الشعوب وطبائع الحكومات وهى التى يرجع إليها على الغالب نشوب الحروب . ويتصل به استنكار أساليب السياسة الخفية ، والمعاهدات السرية ، وهو الذى حمل ولسن على جعل الشرط الأول من شروطه الأربعة عشر إلغاء « الدبلوماسية السرية » . وليس ثمة ريب فى أن « للدبلوماسية السرية » مساوئ كثيرة ، ولكن ولسن نفسه أدرك ، بعيد إعلان شروطه ، أن المضى فى شرطه الأول إلى نهايته المنطقية ، يجعل المفاوضات الدولية متعذرة .

٢ — أما القاعدة الثانية فى السياسة الأميركية الخارجية فهى اجتناب الاشتباك بغير مسوغ أو حاجة ، مع الدول الأخرى ولا سيما الأوروبية . وهو ما يطلق عليه عادة وصف « العزلة » . وقد كانت هذه القاعدة طبيعية فى العهد الأول من حياة الجمهورية الأميركية إذ كانت جمهورية ناشئة ضعيفة تخشى الاندفاع فى درء المطامع القومية وما يلازمها من نزاع . والأميركيون يميلون إلى القول بأن واشنطن رئيسهم الأول أشار بهذه السياسة فى خطبة الوداع عندما أرخى مقاليد رآسته الثانية . وقد قال واشنطن فى هذه الخطبة ما مؤداه : إن لأوروبا مصالح رئيسية لا صلة لها بنا أو صلتها بنا بعيدة . فهى (أى أوروبا) أبداً مشتبكة فى وجوه من الخلاف والنزاع أسبابها بعيدة عنا . فليس من الحكمة أن نورط أنفسنا فى معترك سياساتها وصادقاتها وعداواتها بإنشاء روابط مصطنعة مع واحدة وأكثر منها . وهذا المعنى نفسه أفرغه نولكن السفير السويدي فى لندن عندما قال لجون آدمز السفير الأميركي « من المسلم به عندي يا سيدى أن الفطنة ستحملكم على مشاهدتنا نذبح بعضنا بعضاً بترفع فلسفى ! » . ولكن واشنطن لم يقل شيئاً عن الامتناع عن « محالقات شابكة » Entangling Alliances وهى العبارة التى يوردها الأميركيون بوجه عام لتسويق امتناعهم عن

الاشتراك في عصبة الأمم في العهد الحديث . وقد وردت في خطبة للرئيس ولسن كذلك .
والواقع أن هذه العبارة وردت أولاً في خطاب للرئيس جفرسن . أما واشنطن نفسه
فلم يحجم عن الإشارة بعقد « محالفات عابرة لأغراض استثنائية » . ومهما يكن من أمر
فإن جميع الرؤساء وأقطاب السياسة في العهد الأول من حياة الجمهورية الأميركية كانوا
مجمعين على ضرورة العزلة . وبعضهم ذهب في تفسير ذلك إلى أبعد حدود الاعتساف .
فمبدأ العزلة — على قول أحد المؤرخين — لم يكن في الهواء ، ولكنه كان الهواء
الذي يتنفسه المشتغلون بالسياسة الأميركية . وجون آدمز الذي تولى السفارة الأميركية
في فرنسا وهولندا وانكلترا ثم كان وكيلاً للرئاسة رئيساً أشار بامتناع الولايات المتحدة
عن عقد معاهدات تحالف مع دولة أوروبية ما وبالإحجام عن كل تعاقد إلا أن يكون
تعاقداً تجارياً ، وأن تنفصل على قدر الطاقة ومدى المستطاع عن كل أوربا وسياساتها
وحروبها . ويقول مؤلفو كتاب « علاقات أميركا الخارجية » إن الدستور الأميركي
أقر مبدأ انتخاب الرئيس بوساطة « مجمع انتخاب » خاص لأن واضعي الدستور
كانوا يخشون أن يعهدوا في انتخابه إلى الكونغرس لئلا يكون الكونغرس مجالاً
للس الدول الأجنبية بنية اختيار رجل يعطف على سياستها ومصالحها .

ويقولون كذلك إن قاعدة إبرام المعاهدات في مجلس الشيوخ بأكثرية
الثلثين — وهي من العوائق التي تعترض العلاقات الخارجية الأميركية — مردّها
كذلك إلى الرغبة في الحيلولة دون إفساد مجلس الشيوخ عن طريق الدس الأجنبي .
ثم إن الرجل الذي يتولى الشؤون الخارجية في الهيئة التنفيذية دعى للغرض نفسه
« وزير الدولة » لكي لا يؤخذ وصفه « وزير الخارجية » دليلاً على الخروج على
مبدأ العزلة .

ولعلّ السياسي الأميركي الكبير الوحيد بين أقطاب ذلك العهد ، الذي لم يلزم
سياسة العزلة دائماً هو بنيامين فرانكلن ، ولكنه كان يعلم أنه الشذوذ الذي يؤيد

القاعدة العامة . إلا أن الاتجاه بدأ يتغير رويداً رويداً بعيد منتصف القرن الماضي .
ففي سنة ١٨٦٢ كتب سيورد (وزير خارجية لنكن) إلى الوزير الأميركي في
كوستاريكا كتاباً ذهب فيه إلى أن واشنطن لم يقترح ما اقترحه قاعدة لسياسة ثابتة
دائمة وأنه على الضد من ذلك كان يريد لها سياسة للجمهورية إلى أن يشتد ساعدها
وتتوطد وحدتها وقوتها . وفي سنة ١٨٧٥ اقترح الوزير « فش » على الدول الأوربية
الاشتراك مع الولايات المتحدة في التدخل لتوطيد السلام في كوبا الثائرة على أسبانيا .
وقد فعل هذا برغم أن سلفه « أفريت » أبى (١٨٥٢) أن يشترك مع بريطانيا
وفرنسا في ضمان كوبا لأسبانيا وذلك (لنفورنا من الحالفات السياسية مع الدول
الأوربية) على حد قوله . وفي سنة ١٨٨٤ — ١٨٨٥ أوفدت الحكومة الأميركية
وفداً إلى مؤتمر برلين لبحث موضوع حوض الكونغو في أفريقية . وتأيد هذا الاتجاه
عندما اشتركت الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا في إنشاء حماية مشتركة على
جزائر صاموي في المحيط الهادي . ثم في سنة ١٩٠٦ اشتركت الحكومة الأميركية
— في رئاسة ثيودور روزفلت — في مؤتمر الجزيرة . ومن الطف ما يروى في هذا
الصدد أن عضو الشيوخ هنري كابوت لودج — وهو أعند خصوم ولسن في مسألة
عصبة الأمم — وقف في مجلس الشيوخ في سنة ١٩٠٦ ودافع عن عمل الحكومة
في اشتراكها في مؤتمر الجزيرة ، فقال إنه إذا كان واشنطن قد أشار بامتناعنا عن
عقد محالفات قد تفضي إلى زجنا في حروب أوربية لا شأن لنا بها ، فإنه كان أعقل
وأحصف من أن يشير بالامتناع عن الاشتراك في اتفاقات مع دولة ما أو مجموعة ما
من دول أوربا ، إذا كانت فائدتها عظيمة لنا وللعالم أجمع .

ولم يقتصر هذا الاتجاه على صلة الولايات المتحدة بأوربا بل شمل صلتها بشؤون
الشرق الأقصى ، ففي سنة ١٨٦٤ اشتركت مع بريطانيا وفرنسا وهولندا في تعنيف
اليابان في حادثة معينة لها تاريخها ، وفرضت غرامة ، وقد ردت الولايات المتحدة

الغرامة باختيارها . في سنة ١٨٨٣ . وخرجت الولايات المتحدة خروجاً نهائياً على قاعدة العزلة في ما يتعلق بشؤون الشرق الأقصى بعد احتلال الفيليبين في أواخر القرن الماضي ، ثم اشتركت مع الدول الأوروبية في التدخل في ثورة البوكسر بالصين سنة ١٩٠١ وفي سنة ١٩٠٥ توسط ثيودور روزفلت ساعياً بالصلح بين اليابان وروسيا . ولا يخفى أن سياسة « الباب المفتوح » من وضع وزير الخارجية الأميركية هاي في سنة ١٨٩٩ وأن معاهدة الدول التسع (١٩٢٢) أفرغت في قالب دولي رسمي قواعد السياسة الأميركية في الشرق الأقصى وقد وضعت في مؤتمر شنطن^(١) . أما الحرب العالمية الأولى ، فقد خاضت الولايات المتحدة غمارها ، خارجةً خروجاً ظاهراً على العزلة ، وإن كان الارتداد إلى قوقعتها قد أعقب هذا الخروج في سنة ١٩١٩ عند ما أبقى مجلس الشيوخ أن يبرم المعاهدة التي عاد بها ولسن . وأيد الشعب ذلك الارتداد في انتخابات الرأسة المتوالية في ١٩٢٠ و ١٩٢٤ و ١٩٢٨ فكانت هذه الفترة والجانب الأول من عهد فرنكلن روزفلت سنين غلب فيها روح العزلة السياسية حيال أوروبا على روح الاشتراك في مسائل العالم ، وإلى هذا قصدت عند ما أوردت في آخر الفصل الثاني عبارة « الارتداد من جنيف » .

٣ — أما القاعدة الثالثة في السياسة الخارجية الأميركية فهي « قاعدة مونرو »

وما يتصل بها من فكرة « الجامعة الأميركية » Pau-Americanism

وقد وضعت قاعدة مونرو وأذيعت في رسالة الرئيس مونرو إلى الكونغرس في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٢٣ عند ما كان الخطر الأوربي الرجعي يحف بأمركا اللاتينية . وهذه القاعدة قررت مبدأين : أولهما أن القارتين الأمريكيتين لا يجب أن تعدّا مجالاً لاستعمار أوروبية بعد ذلك العهد . وثانيهما أن كل تدخل في الجمهوريات الأميركية

(١) مبادئ هذه المعاهدة قطع العهد باحترام وحدة الصين الجغرافية وسلامتها والتسليم

بمبدأ « الباب المفتوح » في العلاقات الاقتصادية معها

اللاتينية الجديدة للسيطرة عليها أو الاستبداد بها تعدُّ الولايات المتحدة عملاً غير ودى نحوها . ومن الواضح أن صيغة القاعدة قابلة للتأويل تأويلاً واسعاً . فإذا حاولت ألمانيا أو إيطاليا أو اليابان مثلاً ، إنشاء صلة بجماعات الألمان أو الطليان أو اليابانيين المقيمين في هذه الجمهوريات على وجه يجعلهم في نظر هذه الدول مستعمرين ، لقي العمل مقاومة شديدة من الولايات المتحدة . ومن هذا القبيل سعى إحدى هذه الدول لإنشاء « طابور خامس » في هذه الجمهوريات بالضغط الاقتصادي أو الدعاية السياسية . فالعمل في الحالين تنظر إليه الولايات المتحدة كما تنظر إلى انزال جيش غاز في العالم الجديد .

وعامة الأميركيين تنظر إلى هذه القاعدة نظراً غامضاً ، ومن المرجح أن قليلاً منهم أطلع على نصوص القاعدة نفسها وإنما يعدّونها إنذاراً بالابتعاد عن العالم الجديد ، وسوراً يحمى الولايات المتحدة ويصون سلامتها ، ويأبون كل ما يوهنها . ومن القصص التي تروى في هذا الصدد قول أحدهم « إنني لا أعلم على وجه التدقيق ما معنى القاعدة ولكنني أخشى بحياتي مرتاحاً في الدفاع عنها » .

وليس ثمة ريب في أن هذه القاعدة كانت في الصيغة التي أفرغت فيها أولاً والزمن الذي أذيعت فيه ، غاية في الحكمة والفائدة . فقد جنت منها الجمهوريات الأمريكية اللاتينية فائدة عظيمة لأنها أطلقتها من خطر التيارات السياسية الأوربية . وجنت منها الولايات المتحدة فائدة عظيمة كذلك لأنها حمت جناحها الجنوبي . ولكن مما يؤسف له أن فريقاً من الرؤساء الأميركيين توسع في تفسيرها تفسيراً لا يتفق وروحها واستعمل هذا التفسير ستاراً لأعمال لا مسوِّغ لها . وعند ما بلغت الجمهوريات الأمريكية اللاتينية الكبيرة نضجها القومي والسياسي استنكرت معنى الحماية المفروضة عليها من قبل الولايات المتحدة . وكان رأيها أن الدفاع عن نصف القارة الغربي لا يجب أن يكون من شأن العم سام وحده ، بل من شأن الجمهوريات جميعاً بالاشتراك .

الرئيس كليفلند مثلاً ذهب إلى أنه إذا قام نزاع بين دولة أوربية ، لها ممتلكات في العالم الجديد ، وبين جمهورية أميركية لاتينية ، على حدود ، وتعذر عليهما تسوية النزاع بالحسنى ، فللولايات المتحدة الحق في أن تتدخل وتعيّن الحدود . والرئيس ثيودور روزفلت ذهب كذلك إلى أنه إذا اضطرب الحكم في جمهورية ما من هذه الجمهوريات ، اضطراباً يستفز دولة أوربية إلى التدخل لصون رعاياها في تلك الجمهورية فللولايات المتحدة ، التي لا ترضى التدخل الأوربي ، أن تتدخل هي ، وتنهض بعبء صون الأمن . وقد استعمل هذا التفسير غير مرة ستاراً لتدخل لم يكن له دائماً مسوغٌ حقيقي .

وفي وسعنا الآن أن نقول ، إن هذا الخروج على روح قاعدة مونرو ، قد زال ورُدَّتْ القاعدة إلى نصابها الحقيقي ، وأن الرئيس فرنكلن روزفلت ، قد عاد بالقاعدة إلى الوضع المعقول المقبول في سنّة خطّة « الجار الطيّب » وسيجىء الكلام عليها في الفقرة التالية من الفصل وفيه يندمج الكلام على نزعة الجامعة الأميركية .

٤ — أما القاعدة الرابعة والأخيرة من قواعد السياسة الخارجية الأميركية فهي قاعدة « حرية مخر البحار في الحرب والسلام » وهي المشهورة بلفظي « حرية البحار » وقد جعلها ولسن الشرط الثاني في شروطه الأربعة عشر . وإذا استثنينا فترتين قصيرتين في تاريخ الولايات المتحدة ، فقد جرت حكومتها طوال تاريخها على التمسك بهذه القاعدة والدفاع عنها .

والسبب بسيط . فالولايات المتحدة دولة تجارية بحرية ، لها أسطول تجارى كبير ، وتجارها الخارجية ، عنصر ذو شأن في كيانها الاقتصادي ، وقد كانت مرّة بعد مرّة الدولة المحايدة الكبيرة ، في عالم مزّقت الحرب أوصاله . فكان من الطبيعي أن تؤيد حق الدول المحايدة — أى حقها — في أن تذهب سفنها إلى كل مكان على سطح الأرض بغير أن تفرض عليها قيودٌ غير معقولة ، من قبل الدول الحاربة .

وقد خرجت الولايات المتحدة على هذه القاعدة عند ما أقر الكونغرس الأميركي قوانين الحياد الأميركي في ما بين سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٧ غير عابئ بتحذير روزفلت . وسيجيء الكلام عليه بالتفصيل في الفقرة الثالثة من هذا الفصل . وحسبنا هنا أن نشير إلى ما قاله وزير الحرب ستيمسون في هذا الخروج على قاعدة حرية البحار في خطبة أذاعها في شهر مايو من سنة ١٩٤١ ، قال : إن تشريع الحياد (وهو غير الحياد بحسب القانون الدولي) كان انتهاكاً لأقدس وأهم تقليد في سياستنا الخارجية ، أي حرية البحار . ووصفه نو كس وزير البحرية بأنه « خطأ كبير » . وكلا ستيمسون ونوكس من أقطاب الحزب الجمهوري . وقد قبل دعوة روزفلت الديمقراطية إلى الاشتراك في حكومته تحقيقاً للوحدة القومية . وستيمسون ، كان قبل هذا ، وزيراً للحربية في عهد تافت ووزيراً للخارجية في عهد هوفر ، فقله حجة في موضوع « حرية البحار » والسياسة الخارجية الأميركية .

وفي الخطبة التي خطبها روزفلت في اليوم الحادي عشر من شهر سبتمبر ١٩٤١ قال في هذا الصدد : « إن أميركا حاربت جيلاً بعد جيل دفاعاً عن السياسة العامة المعروفة بحرية البحار . وهذه السياسة غاية في البساطة ، ولكنها أساسية . ومعناها أنه لا يحق لأمة ما أن تحوّل المحيطات الواسعة على مسافات شاسعة من مناطق القتال البري الفعال ، خطراً على تجارة الأمم الأخرى . وقد كانت هذه السياسة سياستنا ، خلال تاريخنا . وما فتئت تطبق منذ العهد الأول للجمهورية وهي لا تشمل المحيط الأطلسي وحسب ولكنها تشمل المحيط الهادي كذلك وجميع المحيطات الأخرى . فحرب الغواصات المطلقة من كل قيد في سنة ١٩٤١ تحد واعتداء على هذا السياسة الأميركية التاريخية [و بعد ما أشار إلى حوادث الاعتداء على السفن الأميركية الحربية والتجارية قال] : وهذه الحالة ليست جديدة . فالرئيس الثاني للولايات المتحدة جون آدمز أصدر الأمر إلى الأسطول الأميركي بأن يظهر

مياه بحر الأنтил ومياه أميركا الجنوبية من سفن القرصان وسفن الدول الأوربية التي كانت تعتدى على التجارة الأميركية . والرئيس الثالث للولايات المتحدة ، توماس جفرسن ، أصدر أمره إلى الأسطول الأميركي ، بأن يضع حدًا لاعتداء قرصان أفريقية الشمالية على السفن الاميركية وغيرها . فالواجب على ، يمليه التاريخ ، وهو واضح ولا مفرّ منه^(١) .

ولقاعدة حرية البحار ناحية أخرى أصبحت في منزلة قاعدة لسياسة أميركا الخارجية وهي قاعدة «الباب المفتوح» . وسياسة «الباب المفتوح» اقترحتها الحكومة البريطانية أولاً ، ولكن هاى وزير الخارجية الأميركية فى أواخر القرن الماضى ، تبنى الفكرة وحث الدول على الأخذ بها (مذكرة ٦ سبتمبر ١٨٩٩)

ومعناها العملى العام هو انه يحق للأميركيين أن يبيعوا بضاعتهم وأن ينشئوا صناعات فى كل بلد على قدم المساواة مع الأجانب الآخرين . والمبدأ ينطبق على كل دولة ولا يقتصر على الصين ، وإن كان قد اشتهر مقروناً باسم الصين . فكل تمييز ضد الأميركيين فى الأرجنتين أو سويسرا ، يؤثر الألمان مثلاً ويخصهم بمزايا تجارية وصناعية معينة ، يثير سخط الأميركيين ويعدونه مخالفة لهذه القاعدة . وقد أودع هذا المبدأ — فى ما يخص الصين — فى حماية الدول التسع التى وقعت «معاهدة الدول التسع» فى سنة ١٩٢٢ . ولكن الباب أوصد والدول التسع لم تتمكن من منع إيصاده حتى الآن غير أن الأميركيين يعدون هذا الإخفاق أمراً عابراً لا غير . والولايات المتحدة قد قررت بالاشتراك مع الحكومة البريطانية أن تلغى جميع الامتيازات التى لها فى الصين ، فسياسة الباب المفتوح فى المستقبل ستقوم على أساس من التعاقد الحر .

(١) إن موضوع النزاع على « حرية البحار » ، وحقوق الدول المحايدة والدول الحاربة ، بحسب القانون الدولى ، موضوع واسع متشعب فى تطوره التاريخى ودقائقه القانونية وليس هنا مجال بحثه بحثاً وافياً .

في خطبة التنصيب الأولى التي ألقاها روزفلت في ٤ مارس سنة ١٩٣٣ ، أشار إلى علاقة الولايات المتحدة بالدول الأجنبية عامة وبجمهوريات أميركا المتوسطة وأميركا الجنوبية على وجه خاص بالقول التالي : « وفي ميدان السياسة العالمية ، أقف هذه الأمة على سياسة « الجار الطيب » — الجار الذي يحترم نفسه احتراماً صادقاً وباحترامه نفسه يحترم حقوق الآخرين — الجار الذي يحترم الواجب عليه وكذلك قدس اتفاقاته في عالم من الجيران وفي صلته بهم » .

وفي المقدمة التي كتبها للمجلد الثامن من مجموعة أوراقه الرسمية وخطبه العامة (سنة ١٩٣٩) أجمل روزفلت ما أقدمت عليه حكومته ، تحقيقاً لهذه السياسة فقال إن الولايات المتحدة ارتبطت ، في نصف الكرة الغربي بمبدأ الجار الطيب وطبقته تطبيقاً دقيقاً متماسكاً وفقاً لإملاء ضميرها ، فاشتركت في اتفاقات الجامعة الأميركية التي تنطوي على مبادئ عدم الاعتداء ، وتخلت مختارة عن « تعديل پلات » الذي كان يبيح لها التدخل في شؤون جمهورية كوبا الداخلية ، وسحبت فصائل فرقة البحارة الأميركية ، بعد انقضاء سنين على نزولهم في جمهورية هايتي ، وعقدت معاهدة جديدة مع جمهورية بناما قائمة على أركان ترضى الفريقين المتعاقدين ، وكان لها نصيب في جميع مؤتمرات الجامعة الأميركية والاتفاقات العديدة التي أسفرت عنها ، وعقدت اتفاقات تجارية كثيرة ، لتبادل المصلحة التجارية مع البلدان الأميركية الأخرى ، وساهمت في فض نزاعات حدود مختلفة بين أمم أميركية ، تلبية لما وجه إليها من نداء ، فأسفرت هذه الأعمال جميعاً ، وأخرى من قبيلها ، عن اتجاه كل عضو من أعضاء أسرة الدول الأميركية ، إلى الولايات المتحدة ، اتجاهه إلى جاره الطيب . ثم قال : إن غرضنا أن يكون من شأن هذه السياسة إقامة التماسك بين

دول نصف الكرة الغربى على أساس سلمى وطيد ، ونحن ماضون فى سبيل تحقيق هذا الغرض . وكان رجاؤنا معقوداً ، على أن يكون التعاون بين إحدى وعشرين جمهورية متفاوتة المساحة والموارد ، مثلاً له تأثيره فى سائر أمم العالم . ومما يؤسف له أن هذا الرجاء قد خاب^(١)

هذا النهج الذى نهجه روزفلت فى سياسة أميركا الخارجية تجاه جمهوريات العالم الجديد ، صحح موقف الولايات المتحدة ، الناشئ عن قاعدة مونرو وتفسيرها تفسيراً معتسفاً فى بعض الأحيان ، وعزز فكرة الجامعة الأميركية .

فقد مرّ معنا أن بعض الرؤساء الأميركيين مثل كليفلند وثيرودور روزفلت خرجوا على مدلول قاعدة مونرو كما أريدت أن تكون عند وضعها وإعلانها ، وتوسلوا بها الى التدخل فى شؤون الجمهوريات الأميركية اللاتينية ، تدخلاً حمل على امتعاض هذه الجمهوريات ولا سيما الكبيرة منها ، وعلى عدّهم الولايات المتحدة ، دولة تحاول أن تنتحل الوصاية على نصف الكرة الغربى كله . وهذا فى نظرها لا يتفق وسيادتها القومية . (انظر صفحة ١٧٧ — ٧٩ من هذا الكتاب) . فالرأى العام فى الجمهوريات الأميركية اللاتينية ، استفزته وأثارته وحركت الريبة فيه حوادث من قبيل تشجيع ثيودور روزفلت للثورة فى جمهورية بناما (١٩٠٣) لى يتوسل بها الى عقد الاتفاق الخاص بانشاء ترعة بناما ، والتدخل الأمريكى فى جمهوريات بحر الانتيل لوضع النظام فى نصابه ، وتعقب الجنرال برشنغ الأمريكى فى عهد الرئيس ولسن (١٩١٦) « لپانشوقيا » المكسيكى بعد اغارته على مدينة أميركية ، وكاحتلال مدينة فيراكروز المكسيكية (فى سنة ١٩١٤) لضغط الدكتاتور المكسيكى « هوارثا » الذى انتزع الحكم فى المكسيك بأساليب لم ترق الرئيس ولسن . وعزز هذه الريبة ما أطلق عليه وصف « سياسة الدولار » وهى تشمل على

(١) ليست هذه العبارات ترجمة حرفية لقول روزفلت ولكنها تؤدى المعانى المقصودة تأدية دقيقة

العموم الفترة الممتدة بين (١٩٠٨ — ١٩١٣) أى مدة رئاسة تافت . والمقصود « سياسة الدولار » تدخل وزارة الخارجية الأميركية فى شؤون البلدان الأميركية اللاتينية لفتح الطريق أمام المال الأميركي لاستغلاله وتشهيره فى تلك البلدان . والتغلغل المالى على هذا الوجه أفضى الى طلب مزايا خاصة ، وكان الطلب كثيراً ما يؤيد بالتهديد بالقوة . وكذلك الاشتداد فى اقتضاء الدين من بعض الجمهوريات الأميركية اللاتينية ، كالمعاهدات التى عقدت مع نيكارا جوى وهندوراس ، لتوفية دينهما بإشراف مالين أميركيين . ولكن رأى العام فى الولايات المتحدة ، كان شديد الاستنكار لهذه الأساليب ، ومجلس الشيوخ أبى إبرام المعاهدتين اللتين عقدتا مع نيكارا جوى وهندوراس لتوفية الدين . وعند ما تقلد ولسن الرئاسة خلفاً لتافت أنكر « سياسة الدولار » ، ولكنه مع ذلك أبقى على بعض رمقها ، فى ما يتعلق بنيكارا جوى . جميع هذه الحوادث على رغم ما يقال فى مسوغاتها — وبعض هذه المسوغات كان حقيقياً — تركت أثراً غير مستحسن فى نفوس الشعوب الأميركية اللاتينية وساستها ، فكانوا ينظرون بوجه عام ، نظرة ازدراء واستنكار الى سياسة الولايات المتحدة حيال جاراتها اللاتينية .

فلما وصل فرنكلن روزفلت إلى البيت الأبيض فى سنة ١٩٣٣ كان الطريق قد مهد قليلاً لتصحيح هذا الموقف وإزالة ذلك الأثر . فحكومة الرئيس كوليدج (١٩٢٣ — ١٩٢٩) كانت اتفقت مع المكسيك وحكومة هوثر (١٩٢٩ — ١٩٣٣) كانت سوت بعض المسائل السياسية القائمة . وكذلك أتيح لروزفلت أن يستهل عهداً جديداً فى تاريخ هذه العلاقات ، أحسن غاية الإحسان فى إطلاق وصف « الجار الطيب » عليه .

فقاعدة مونرو ، أصبحت بفضل هذا النهج الجديد ، قاعدة لسياسة جمهوريات القارتين الأمريكيتين ، لا لسياسة الولايات المتحدة وحدها . وكل ما حدث فى

هاتين القارتين خلال رئاسة فرنكلن روزفلت ، مما كان قبلاً يفضى إلى تدخل الولايات المتحدة فيه بحكم قاعدة مونرو ، عاجله الرئيس روزفلت ووزيره هل على أساس أميركي مشترك . وقد حدث هذا غير مرة ، فزال كثير من الريب الذي كان يساور جمهوريات أميركا اللاتينية حيال أغراض الولايات المتحدة ونياتها ، فمهد هذا التحول ، إلى أطراد نمو فكرة الجامعة الأميركية .

إن حركة الجامعة الأميركية Pan-American غرضها توثيق أواصر الصداقة بين الجمهوريات الأميركية ، لتعزيز الصلات التجارية والثقافية ، والمشاركة في ضمان السلامة وتوطيد السلام . وقد وكان نمو هذه الحركة إلى ما قبل عهد روزفلت بطيئاً ، لأسباب كثيرة تمت إلى التاريخ ، أكثر مما تمت إلى الرغبة القائمة . فالأواصر الثقافية والأدبية والاقتصادية التي كانت تربط الجمهوريات الأميركية اللاتينية بأوروبا كانت أوثق من الصلات التي كانت تربطها بالولايات المتحدة . ثم إن تدخل الولايات المتحدة في بعض العهود في شؤون طائفة من هذه الجمهوريات حرك فيها الريب والخوف . حتى الآن ، بعد انقضاء عشرين سنوات على رئاسة روزفلت وسياسة الجار الطيب ، لا يزال في موقف هذه الجمهوريات بقية باقية من آثار السياسة السابقة . ويضاف إلى هذا أن المثل العليا السياسية ، في الولايات المتحدة من ناحية وفي هذه الجمهوريات من ناحية أخرى ، متباينة على رغم التشابه في النظم الجمهورية ، ولذلك كان يشق على الممثلين المجتمعين في مؤتمرات الجامعة الأميركية التفاهم على أساس فهم واحد للمثل والنظم السياسية . وأخيراً هناك الاختلاف الأصيل في طبائع الشعوب . فأمركيو الولايات المتحدة يرون في جيرانهم في الجمهوريات الأميركية اللاتينية شعوباً تميل إلى التراخي والحفاظة والطباع الحادة غير المستقرة ، بينما الشيليون والأرجنتينيون يرون في الأميركيين الشماليين ، شعباً مادياً دنيوياً

عقد مؤتمر الجامعة الأميركية الأول في واشنطن سنة ١٨٨٩ وقد دعا إلى عقده

« بلاين » وزير الخارجية الأميركية ، وكان أمله معقوداً على إنشاء اتحادٍ جمركي أميركي ، يفضي إلى زيادة التبادل التجاري بين الأمم الأميركية ، وإلى نقص تجارتها مع أوروبا . واقترح كذلك مشروعاً للتحكيم في جميع أنواع النزاع بين الأعضاء . فرفض المقترحان لشدة التحاسد بين الدول ، والريبة في نيات الولايات المتحدة . وعجز رجال المؤتمرين الثاني والثالث عن التقدم خطوة واحدة في مشروع التحكيم ، لخلاف بين فريقين : فعلى رأس الفريق الأول كانت الأرجنتين ، وكان رأيه التحكيم الإجباري . وعلى رأس الفريق الآخر الولايات المتحدة والبرازيل وكان رأيه إلى التحكيم الاختياري أميل . ولم يعالج المؤتمر الثالث سوى مسائل ثانوية . وعقد المؤتمر الخامس في سنة ١٩٢٣ وكانت الطائفة الكبرى من الجمهوريات الأميركية اللاتينية أعضاء في عصبة الأمم بينما الولايات المتحدة لم تكن عضواً فيها . وكانت واشنطن قد تدخلت في شؤون طائفة من جمهوريات الأنтил ، فريبة الجمهوريات الأميركية اللاتينية كانت شديدة في سياسة الولايات المتحدة . ولما عرض ممثل جمهورية أوروغواي — الدكتور بروم Brum — تحويل قاعدة مونرو قاعدةً تشمل سياسة القارتين الأمريكيتين ، أبي ممثلو الولايات المتحدة الموافقة على الاقتراح . والواقع أن نتائج هذا المؤتمر كانت بالقياس إلى ما تم في ذلك العهد في أوروبا — لوكارنو وما أشبه — تبعث على الأسى العظيم .

ومع ذلك لم يكن أحدٌ ينكر أن في فكرة الجامعة الأميركية فائدة وحياة ، إذا أحسن توجيه الفكرة ، ونجح الحكماء والخيرون من رجال السياسة في إزالة ما لازمها من مساو . فلما عقد مؤتمر الجامعة الأميركية السادس في هاغانا سنة ١٩٢٨ افتتحه الرئيس كولدج بنفسه فكان لذلك أثر مستحسن في نفوس الأعضاء . وعند ما عقد المؤتمر التالي ، في ١٩٣٣ في مونتيفيديو ، أتاح لحكومة روزفلت الجديدة فرصة لبسط ما تقصده بسياسة الجار الطيب . فلما اقترح القرار التالي : « لا يحق لدولة ما أن تتدخل

في الشؤون الداخلية أو الخارجية لدولة أخرى » أيده الوزير هل وأقر بالإجماع. وهذا ، بالقياس إلى ما تم من تدخل الولايات المتحدة قبلاً ، كان المرحلة الخطيرة الأولى في النهج الجديد ومستهل عهد جديد في سياسة الجمهوريات الأميركية . وفي سنة ١٩٣٦ قال روزفلت في رسالته إلى الكونغرس : إن سياسة الجار الطيب حقيقة حية لازمة وفعالة ، ثم اقترح على أعضاء الجامعة الأميركية عقد مؤتمر خاص لحفظ السلام فعقد في بونس ايرس عاصمة الأرجنتين ، وسافر بنفسه لحضور حفلة افتتاحه . وكان هل رئيس الوفد الأميركي . ومع أن موقف الأرجنتين بدت عليه دلائل التنكر لزعامة الولايات المتحدة ، فقد تمت أعمال المؤتمر في جوٍّ من الصداقة وحسن التفاهم وانتهت إلى نجاح لأن المؤتمر اتفق على مبداء «التشاور العام إذا مسَّ خطر الحرب العالم الجديد» سواءً أمرّد هذا الخطر كان إلى حرب في أوربا أم إلى حرب بين جمهوريتين أميريكيتين أو أكثر . وفي هذه الوثيقة نجد نواة التحول الذي اقترحه بروم قبلاً في نقل قاعدة مونرو من أساس سياسة خاصة بالولايات المتحدة إلى أساس سياسة عامة تمثل جمهوريات العالم الجديد جميعاً . وعند ما اجتمع (مؤتمر ليا ١٩٣٨) كانت غيوم الحرب ملبدة في جو أوربا وكان يهمُّ الوزير هل أن تنشأ جبهة متحدة في العالم الجديد ضد المعتدين ، فعارضت الأرجنتين في كل عمل حاسم من هذا القبيل ، ولكن المؤتمر انتهى بعد بحث شاق طويل إلى الإجماع على قرار مؤداه إعلان إيمان الجمهوريات الأميركية بالديمقراطية وتعهدها بالمشاورة والمشاركة بعض المشاركة في العمل ضد كل خطر خارجي يهددها .

ومنذ ما نشبت الحرب عقد مؤتمر الجامعة الأميركية ثلاثة مؤتمرات . أما الأول فكان مؤتمر بناما (١٩٣٩) حيث اتفق ممثلوا الجمهوريات الأميركية على إصدار تصريح (تصريح بناما) أيدوا فيه حق هذه الجمهوريات في أن تبقى مياهما المستعملة للمواصلات البحرية الأميركية « حرة من كل عمل اعتداء تعمله دولة محاربة غير أميركية »

وعينوا لذلك منطقة سموها باسم « منطقة الأمان » وجعلوا حدودها ثلاثمائة ميل من الساحل الأميركي على أن تمتد من نقطة مقابلة لحدود كندا الأميركية إلى رأس هورن وهو طرف قارة أميركا الجنوبية . ولما نشبت معركة لابلاتا بين البارجة الألمانية « جراف سي » وبين الطرادات البريطانية داخل منطقة الأمان أمام ساحل أوروغواي احتجت الجمهوريات الأميركية في لندن وبرلين على ذلك .

أما المؤتمر الثاني فعقد في هافانا (يوليو ١٩٤٠) بعد سقوط فرنسا وأسفر عن « قرار هافانا » وهو خطوة واسعة إلى إحلال قاعدة أميركية عامة محل قاعدة مونرو ، وفي معناها الأصلي ، وكان الغرض من هذا القرار صون الممتلكات البريطانية والفرنسية والهولندية في العالم الجديد من استيلاء النازي عليها أو على أحدها . وأساس القرار أنه إذا هدد خطر ما إحدى هذه الأراضي فعندئذ تبسط الجمهوريات الأميركية ظلها عليها بالاشتراك أو الانتداب وتدير شؤونها إلى أن تعاد إلى أصحابها أو تنظم دولاً مستقلة . ووافق هذا المؤتمر على مبدأ آخر لبابه أن محاولة كل دولة غير أميركية أو غير أوربية الاعتداء على سلامة أحد هذه الممتلكات ، أو على استقلال دولة أميركية ، يُعدُّ اعتداءً ضد جمهوريات العالم الجديد جميعاً . وكذلك أصبحت قاعدة مونرو ، أخيراً ، قاعدة دولية ، تشمل إحدى وعشرين جمهورية أميركية .

فلما اعتدت اليابان على الولايات المتحدة الأميركية في ٧ ديسمبر ١٩٤١ دعى مؤتمر الجامعة الأميركية للاجتماع في ريوده جانيرول لاتخاذ القرارات اللازمة لتنفيذ القرار السابق الذكر . فعقد في ١٥ — ٢٨ يناير ١٩٤٢ وحضره وزراء خارجية الجمهوريات الأميركية أو من يمثلهم وكان سمنر ولز وكيل الخارجية الأميركية ، ممثلاً لحكومة الولايات المتحدة . ولكن قبل التثامه — كانت تسع جمهوريات أميركية — علاوة على الولايات المتحدة في حالة حرب نتيجة لاعتداء اليابان .

وقد وصف سمنر ولز نتيجة هذا المؤتمر بقوله « إن غرض الاجتماع كان تقرير

وسائل الدفاع المشترك ضد أعداء الديمقراطية ؛ والجمهوريات الأميركية أجمعت على تأييد المبدأ الديمقراطي وأعلنت رسمياً قرارها المشترك بتوصية حكومات هذه الجمهوريات بقطع العلاقات السياسية بين الأمم الحرّة في نصف الكرة الغربي وبين دول اليابان وألمانيا وإيطاليا ، رادّة بذلك ردّاً لا يحتمل التأويل على اعتداء اليابان . فهذا التوكيد وهذا الإجماع ، ينزلان من التاريخ منزلة العمل السياسي الخطير الأول الذي اتخذته الجمهوريات الأميركية بالاشتراك . نعم إن الأرجنتين لم تقطع علاقتها السياسية بدول المحور . ولكن ما حدث كافٍ لإقامة الدليل ، على حكمة النهج الجديد الذي نهجه روزفلت — نهج الجار الطيب — وتطبيقه تطبيقاً قائماً على صدق النية وفهم المصلحة العامة بأوسع معانيها .

والكلمة التالية ترجمة فقرات من خطبة لروزفلت أجمل فيها الروح المسيطرة على المرحلة الجديدة من التعاون بين دول القارتين الأمريكيتين وهي من خطبة له في ١٥ إبريل ١٩٤٠ قال :

إن السلام يشمل الآن نصف الكرة الغربي ، لأن أمننا حرّرت نفسها من الخوف ، وليس في وسع أمة أن تحيا في سلام حقيقي إذا هي كانت تعيش في ظلّ الإرهاب والغزو . والعالم الجديد قد حرّر نفسه من أعظم أسباب الحرب وأبسطها ، بالاستناد إلى أسلوب بسيط هو ، الاتفاق على أن تحترم كل أمة سلامة الأمم الأخرى واستقلالها . إن ضبط النفس والتسليم بحقوق متساوية لجميع جيراننا ، دليل على حسن النية ، وقد منحنا السلام الذي تمتعنا به وهو سلام سنحافظ عليه ما دمنا نستند إلى هذه القاعدة الأدبية العليا ونصونها .

فالسلام يشملنا لأننا اتفقنا كجيران على أن يعنى كل منا بشؤونه . وقد نزلنا جميعاً ، عن كل حق في التدخل في الشؤون الداخلية الخاصة بكل منا ، معترفين بأن الأمم الحرّة المستقلة ، يجب أن توجه مصائرهما وأن تحدّد معالم طرقها في الحياة .

إن السلام شملنا لأننا عزمنا على تسوية كل نزاع ينشأ بيننا بالمفاوضة الودية وفقاً لقواعد العدل والنصفة بدلاً من تسويته بالقوة . وقد أنشأنا أداة فعالة لهذا الغرض . وأقمنا الدليل على رغبتنا في الاعتماد على هذه الأداة .

إن السلام يشملنا لأننا اعترفنا بصحة مبدأ مؤداه أن العلاقات الاقتصادية الدولية المتبادلة النفع ، تتيح بكل منا المواد والفرص اللازمة لرفع مستوى الحياة في شعوبنا جميعاً . ونحن نسعى بكل وسيلة عملية ممكنة إلى تحقيق هذا المبدأ الحيوي .

فنحن في نصف الكرة هذا ، لا حاجة بنا إلى البحث عن نظام دولي جديد . فقد وجدناه . ونحن لم نجدناه عن طريق الصيحات الهستيرية ، أو تحريك الجيوش بالعنف . إننا لا نمنحو الشعوب من وجه الكيان المستقل ولا نأسر الحكومات ولا نستأصل جذور الناس من البيوت التي بنوها . إننا لا نخترع مذاهب سخيفة عن « تفوق السلالة » إن النظام الأميركي لم يبنَ على الخوف والإرهاب . ولكن طريقه مهّد بأيدي رجال خلصت نياتهم فوضعنا الأساس لحياة مئات من الملايين وقد وحدنا بين حياة هؤلاء الناس بالولاء المشترك لنظام أدبي سام .

وهذا السلام القائم على التعاون لم يخلق بالتمنى ، وصونه يحتاج إلى أكثر من الأقوال . ففي هذه الجماعة من الأمم ، كل من يمس أحداً يمسنا جميعاً ، ونحن لم نطلب من سائر العالم إلا أن يمشينا في طريق السلام . ولكننا لا نستطيع أن نبقى ذلك الطريق ممهداً إلا إذا كنا متأهبين لمقابلة القوة بالقوة ، إذا جاءنا التحدي يوماً ما .

بين حياد الولايات المتحدة الأميركية بحسب القواعد المرعية الجانب في القانون الدولي ، وبين قانون حيادها فرق .

عند ما تنشب حرب بين دولتين أو أكثر يفرض على الدول التي لا تشترك فيها ، الامتناع عن أعمال لها صلة بالأعمال الحربية ، من شأنها أن تسدى خدمة ما إلى أحد الفريقين المتحاربين . فصلات الصداقة التي تربط الدول في أثناء السلام تبقى قائمة بين المحايدة والحاربة بعد نشوب الحرب . ولكن بقاءها قائمة يفرض على الدول المحايدة واجبات معينة ويبيح لها حقوقاً معينة ، يحددها القانون الدولي . وفي نطاق هذه الواجبات والحقوق ، تعلن دولة ما عند نشوب حرب أنها دولة محايدة . ولكن القواعد وتفاصيل العرف التي تحكم هذه المسائل ، ليست جميعاً محددة تحديداً رياضياً ، فالخلاف عليها محتمل . فالدولة المحايدة قد تكون دولة صناعية كبيرة ، ويحق لرعاياها بحسب القانون الدولي ، أن يمشوا في صنع ما يشاؤون من المصنوعات وأن يبيعوها للدول المتحاربة . ولكن هذا الحق يحد منه خضوعه لحق آخر ، تتمتع به الدول الحاربة ، وهو حق الحصر البحري ، وما يتبعه من زيارة السفن (Visit) وتفتيشها (Search) ومصادرة ما قد يكون من شحنها معدوداً من المواد الحربية الممنوعة (contraband) . وليس هناك إجماع بين الدول على تفاصيل هذه الحقوق ، وهل يجوز تطبيقها بغير استثناء ، وبغير نظر إلى جنسية السفينة ، وجنسية الشحن ، وجنسية الثغر الذي أقلعت منه السفينة ، أو الثغر الذي تتجه إليه . ولكن من المتفق عليه ، ولا شذوذ له ، أن الحصر البحري يجب أن يكون فعالاً (effective) ليكون شرعياً ، أى أنه لا يجوز لدولة محاربة ما ، أن تعلن حصر دولة تحاربها إلا إذا

كانت تملك القوة البحرية التي تمكنها من تنفيذ الحصر في الحدود المتفق عليها .
ومن هنا تتبين أن « الحصر البحري » بالغواصات ليس شرعياً . لأن الغواصات
عاجزة عن النهوض بالواجب على السفينة الحربية المحاصرة وفقاً للقواعد المرعية في
القانون الدولي .

وقد كانت الولايات المتحدة ، مدى مائة سنة تقريباً — بين مستهل القرن
التاسع عشر وسنة ١٩١٧ عند ما خاضت غمار الحرب العالمية الأولى — الدولة المحايدة
الكبيرة ، ولذلك كانت دائماً تصرُّ على احترام حقوق المحايدين ، وتدفع عنها جهدها
وان كان موقفها في جميع هذه الأحوال لا يخلو من ملام .

فلما نشبت الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ نظرت جميع الدول المحايدة ،
السكندينية والجمهوريات الأميركية اللاتينية ، إلى الولايات المتحدة لتتقلد زمام
الدفاع عن حقوق المحايدين ، نخب ظنهم من ناحية في ما تطلَّعوا إليه لأن تقاليد
العزلة الأميركية ، حالت دون إقدام الحكومة الأميركية على عمل مشترك مع دول
أخرى ، في نصف الكرة الغربي أو القارات الأخرى . ولكن مع امتناعها عن
الاشتراك في إصدار بيان مشترك دفاعاً عن حقوق المحايدين وتماسكهم ، لم تن عن
الدفاع عن هذه الحقوق قبل الحكومات المحاربة . وقد بلغ هذا الدفاع أحياناً
وفي مستهل الحرب ، مبلغ الجفاء بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، لما نشأ
خلاف على تفسير بعض حقوق المحايدين وحقوق المحاربين . فلما أطلقت ألمانيا
القيصرية حرب الغواصات من كل قيد وشرط — وإطلاقها مخالف لأسس حقوق
المحايدين مخالفة أصيلة في المبدأ والتطبيق — كان ذلك أحد الأسباب التي حملت
الولايات المتحدة على انتضاء السلاح . وليس هذا المقام مقام تفصيل جميع البواعث
التي حملت الولايات المتحدة على خوض غمار تلك الحرب ، ولا مقام الحكم في هل
كان القرار صائباً أو خاطئاً ، ولكن لا ريب في أن الشعب الأميركي سلم بأن

حرب الغواصات وضرورة الدفاع عن حرية البحار كانت سبباً لدخول الولايات المتحدة الحرب ومسوّغاً له .

فلما وضعت الحرب أوزارها ، حدث ردُّ فعل قوى في نفوس الأميركيين نتيجة خيبة آمالهم في النتائج التي اسفر عنها مؤتمر الصلح . وقد يكون هذا الشعور في محله ، وقد لا يكون . ولكنه كان حقيقة واقعة . وهي التي أملت على الشعب الأمريكي الرغبة في العودة إلى سياسة العزلة . وكان الرأي في دوائر الذين يذهبون هذا المذهب أن قوة الولايات المتحدة يجب أن تكون كافية لتقيها خطر الاشتراك في حرب أخرى ، ولا سيما في حرب أوربية . ويقابل هذا الفريق من الناس ، فريق آخر ذهب إلى أن مبادئ « السلامة المشتركة » تجعل موقف « الحياد » التقليدي مناقضاً للنظام العالمي الجديد ، القائم على مبادئ « السلامة المشتركة » وقواعد دستور العصبة . بل تطرف بعضهم إلى القول بأن موقف « الحياد » مناف للخلق الدولي العالمي . وفي الحالين ، بنى الفريقان رأيهما ، على أن نشوب الحرب غير محتمل ، فأهمل كذلك بحث موضوع الحياد ومقتضياته ، على ضوء التطور العالمي خلال الحرب العالمية الأولى وبعيدها .

ولكن وهم الفريقين ، بدأ يتهاوى بين أيديهم ، في سنة ١٩٣١ عند ما غزت اليابان منشوريا . وتوالت حوادث ، كانت كل منها ضربة أصابت مبدأ « السلامة المشتركة » في الصميم ، ومن هذه الحوادث وفي طليعتها قيام الحكم النازي في ألمانيا ، وإخفاق مؤتمر نزع السلاح في سنة ١٩٣٣ وخروج ألمانيا منه في شهر أكتوبر من تلك السنة ، وخروج ألمانيا من العصبة ، وبدور بوادر العودة الى السباق في التسلح بين الأمم . فكان لا بد في هذه الحالة ، من أن يعمد الأميركيون إلى بحث موضوع الحياد ، لأن خطر حرب كبيرة كان بادياً على الأفق ، ولأنهم كانوا عازمين على الامتناع عن خوضها .

وعزز من هذه الفروض ما كشفه بحث دقيق عن أعمال «تجار السلاح» في الولايات المتحدة تولاه السناتور «ناي». فرسخ في ذهن الأميركي العام أن مناورات تجار السلاح، وأرباب المال، من الأميركيين، هي السبب الذي زج بالولايات المتحدة الأمريكية في غمار الحرب العالمية الأولى. ولذلك عزم الأميركيون بتأثير كل هذا، أن يحاولوا بالتشريع، دون التكرار. وإلى هذا مرجع «تشريع الحياد الأميركي» أو تشريعات الحياد الأميركي — لأن القانون الأول عدل غير مرة — وغرضه ليس ضمان حقوق الولايات المتحدة من حيث هي دولة محايدة، في حالة نشوب حرب، ولكن غرضه الحيولة دون انسياق الولايات المتحدة إلى خوضها، بالنزول عن بعض هذه الحقوق من تلقاء نفسها. وكان الباعث المعجل على إقرار نصوص قانون الحياد الأميركي الأول في أغسطس من سنة ١٩٣٥ نشوء الأزمة الإيطالية الحبشية في صيف سنة ١٩٣٥ وخریفها. وكان الرأي الأميركي الغالب المستند إلى ما كشفته لجنة ناي، أنه إذا نزل الأميركيون عن حقوقهم — بحسب منطوق الحياد في القانون الدولي — في الاتجار مع الدول المتحاربة، فعندئذ يمنع كل سبب من شأنه أن يزج أميركا في الحرب، لأنه يمنع كل باعث على خلاف بينها وبين الدول المتحاربة. ولذلك كانت النصوص الرئيسية في هذا القانون ما يلي (أولا) حظر إصدار السلاح والذخيرة وأدوات الحرب من الولايات المتحدة أو ممتلكاتها إلى موانئ محاربة، أو إلى موانئ محايدة بقصد نقلها منها إلى إحدى الدول المحاربة. وتنفيذ هذا النص يبدأ حالما يعلن الرئيس «قيام حالة حرب». فإن إعلان «قيام حالة حرب» ترك للرئيس، ولكن التنفيذ لا مفر منه بعد إعلانها (ولهذه النصوص الأصلية تفصيلات لا محل لها هنا). ويلزم كذلك — بحسب هذا القانون — عن إعلان الرئيس «قيام حالة حرب» إمتناع السفن الأميركية، عن نقل السلاح والذخيرة وأدوات الحرب، إلى المرافئ المحاربة أو المرافئ المحايدة بقصد نقلها بعد ذلك إلى دولة محاربة. وفي نص آخر من نصوص هذا القانون، أن

الأميركيين الذين يسافرون بسفن دولة محاربة ، بعدما يعلن الرئيس «قيام حالة حرب» ، يتحملون تبعه عملهم . وجعل أمد هذا القانون إلى ٢٩ فبراير سنة ١٩٣٦ . وقد عدل هذا القانون تعديلاً يسيراً في فبراير سنة ١٩٣٦ ، وشمل التعديل الأحوال التي يجوز للرئيس فيها ، أو يتعين عليه فيها إعلان «قيام حالة حرب» . وكذلك حظر عقد قروض أو فتح اعتمادات مالية للدول المتحاربة أو التعامل بسنداتها على أن ينفذ هذا الحظر عند ما يعلن الرئيس «قيام حالة حرب» . وأدخل تعديل آخر ، يستثنى من كل هذا كل جمهورية أميركية تحارب دولة غير أميركية ، إلا إذا كانت تلك الجمهورية تتعاون في الحرب مع دولة غير أميركية أو أكثر .

وجعل أمد القانون المعدل إلى أول مايو سنة ١٩٣٧

خلال هذه الفترة اتسع نطاق البحث العام في قانون الحياد الأميركي ، ونشبت الحرب الأهلية الإسبانية ، وظهر أن القانون لا يحوى نصاً ما خاصاً بما يجب في حرب أهلية ، فلما انتهى أمد القانون السابق ، جدد بعد تعديل بعض نواحيه

ففي « قانون الحياد » الصادر في مايو ١٩٣٧ أدخل مبدأ « ادفع وانقل » Cash and Carry على أن يشمل المواد والبضائع عدا الأسلحة والعتاد وأدوات الحرب . أى أن الدولة المحاربة ، أيّاً كانت ، يحق لها أن تشتري هذه المواد والبضائع (عدا الأسلحة والذخيرة وأدوات الحروب) على أن توفى ثمنها فوراً وأن تنقلها بسفن غير أميركية . ولرئيس تعيين هذه المواد ببيان يعلن . وأضيف في هذا القانون نصٌّ يدخل الحروب الأهلية في عداد الحروب التي يطبق عليها قانون الحياد . وأضيف إليه كذلك نصٌّ يحظر تسليح السفن التجارية الأميركية ، في حالة ما يعلن الرئيس قيام حالة حرب (دولية أو أهلية) . ونصٌّ آخر عدّل به النصُّ الخاص بسفر الأميركيين في سفن دول محاربة . ففي القانونين الأولين كان يحق للأميركيين هذا السفر ، على أن تكون تبعه عملهم واقعة عليهم فلا ينتظروا حماية ما من الحكومة

الأميركية إذا أصيبوا بمكروه ، ولكن النصّ الجديد في قانون ١٩٣٧ حظر عليهم هذا السفر .

فواضح من هذه الخلاصة الوجيزة ، أن غرض تشريع الحياد الأميركي ، كان إقصاء الولايات المتحدة عن كلّ حادث من شأنه أن يفضي إلى انسياق الولايات المتحدة إلى خوض حرب لا تريدها ، وذلك بنزولها عن حقوق يبيحها القانون الدولي للدول المحايدة . فمنع إصدار الأسلحة وما كان من قبيلها ، وإصدار المواد والمصنوعات التي لا تعدّ في حكم الأسلحة ، في سفن أميركية ، وحظر سفر الأميركيين في سفن دول محاربة ، كل هذا كان في نظر أنصار هذا التشريع ، مانعاً لحوادث دبلوماسية قد تكره الحكومة الأميركية على الدفاع عن حقوقها ، في ما يخصّ تجارة رعاياها أو حياتهم أو العلم الأميركي ، وقد يفضي هذا الدفاع إلى خوض الحرب ، كما حدث في سنة ١٩١٧ بعد إغراق اللوزيتانيا وانطلاق حرب الغواصات . وحظر عقد القروض وفتح الاعتمادات المالية للدول المحاربة ، يحول دون انسياق أصحاب المال المقرض والاعتمادات ، في تيار الدعوة إلى تأييد الدول التي اقترضت منهم ، فيمنع هذا تهيج الشعور الأميركي وإثارته إلى تأييد فريق دون آخر من الدول .

هذه النظرة إلى « الحياد » و « الحرب » وموقف الولايات المتحدة بينهما ، نظرة أكاديمية ، تتجاهل حقائق الحال ، ولا تقيم وزناً لمسألة المعتدى والمعتدى عليه . ولا لقيمة الحياد في عالم بدرت فيه بوادر الانتفاض على العهود . ولذلك ذهب فريق كبير من الكتاب الأميركيين ، إلى أن إقرار هذا القانون شجع الدول التي تبيّت النية على الاعتداء ، لأنها وهي المتأهبة للحرب ، تعلم أن هذا القانون يمنع الولايات المتحدة من إمداد خصومها غير المتأهبة لها . ولذلك قال روزفلت وهو يوقع قانون الحياد بعد ما تجاهل الكونغرس رأيه في معارضته : إن هذا القانون قد يكون أبعث على الحرب منه على منعها .

فلما نشبت الحرب في أوروبا في سبتمبر ١٩٣٩ دعا روزفلت الكونغرس إلى عقد اجتماع استثنائي ، في ٢١ سبتمبر للنظر في تعديل قانون الحياد . كان روزفلت قبل ذلك ، خلال الأشهر السابقة من السنة قد حث على تعديل النص الخاص « بحظر إصدار الأسلحة » . ولكن خصومه السياسيين وأنصار العزلة ، والسلام عن طريق الحياد ، أبوا الاستجابة ، إلى حثه المقرون بانذاره وإنذار الوزير هل ، بما كان يتهيأ للانفجار في أوروبا ، خلال شهرى فبراير ومارس ١٩٣٩ . وفي ٢١ مارس اقترح السناتور پتمان — رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ — اقتراحاً رسمياً بتعديل قانون الحياد ، بحيث يباح إصدار جميع الأسلحة وأنواع العتاد وأدوات الحرب ، إلى الدول المتحاربة على أساس « ادفع وانقل » . ولكن السناتور بوراه وأنصاره عارضوا الاقتراح وتأخر البت فيه . وأقبلت أشهر الصيف — بعد احتلال تشيكوسلوفاكيا في مارس والبنانيا في ابريل — ونذر الحرب تزداد تجمعا ، وأفق السلام تلبداً بغيوم الحرب . فبذل روزفلت وهل جهداً أخيراً لإقناع زعماء الكونغرس بتعديل القانون . وعقد اجتماع في البيت الأبيض ، فأفضى فيه هل إلى الحاضرين ، ما عند وزارة الخارجية الأميركية من أسباب تحملها على الاعتقاد أن خطر الحرب في أوروبا أصبح قريباً . ولكن السناتور بوراه رد على الوزير هل ، بأنه يملك كذلك مصادر للأخبار ، وإنها أصح وأصدق من المصادر التي تعتمد عليها وزارة الخارجية ! وكذلك اضطر روزفلت إلى التسليم باستحالة تعديل القانون حينئذ .

فلما دعا الكونغرس إلى اجتماع استثنائي ، بعد قيام الحرب في أوروبا ، ذهب بنفسه إلى اجتماعه الأول وتلا الرسالة الموجهة إلى مجلسيه للدلالة على ما يعلقه من شأن عظيم بهذا التعديل ، وبني رسالته على القواعد الأصلية في السياسة الخارجية الأميركية ، وهي حرية البحار واللوز بالقانون الدولي ، قال « ويؤسفني أن يكون الكونغرس قد أقر هذا القانون (قانون الحياد الأميركي) ، وأنى وقعتة » (١) .

(١) مع أنه عارض فيه أثناء مناقشته ولكنه لم يستعمل حقه الدستوري في نقضه .

وأقرّ التعديل ووقع الرئيس القانون المعدّل في يوم ٤ نوفمبر ١٩٣٩ وأهمّ تغيير فيه ، إباحة اصدار الأسلحة وأنواع العتاد الى جميع الدول المتحاربة بغير استثناء على قاعدة « ادفع وانقل » . فعدا هذا التعديل عوناً مباشراً لبريطانيا وفرنسا ، لأنهما دون المانيا كانتا تملكان القدرة على توفية ما تشتريان من أموالهما في الولايات المتحدة ، ولأنهما دون المانيا كانتا تملكان القدرة على النقل ، إذ كان زمام السيادة البحرية في أيديهما .

كانت سنة ١٩٤٠ سنةً سوداء في نظر أنصار الحلفاء وما يمثّلونه . وكانت كذلك سنة انتخاب الرأسة في الولايات المتحدة الأميركية .

فالأشهر التي أعقبت اجتياح بولونيا ، كانت أشهر سكون . فمال فريق كبير من الأميركيين الى وصف الحرب بأنها « حرب هازلة » Phoney ولكن الضربات الألمانية المتلاحقة بين ابريل ويونيو ، صدمتهم صدمة عنيفة . فالبلدان المشهورة بحبها السلام والتزامها الحياد الدقيق كالندمارك والنرويج وهولندا اجتاحت وعنت لكابوس الفاتح . وانهارت المقاومة الفرنسية في أكثر من شهر قليلاً ، وانكشفت بريطانيا لخطر الغزو . فبدأ الأميركيون يحسون فساد رأى الذين يريدون السلام بالاعتماد على الحياد ورأوا شبح الخطر يدنو من شواطئ العالم الجديد . فأدركوا أن روزقلت صدقهم النصح ، فأقبل كثيرون من أقطابهم على التفكير في وجوب انتخابه ثالثة للرأسة وهو ما لم يقع خلال تاريخهم .

ويروى أن السناتور نورس — وهو شيخٌ محنك وقد عارض إعلان الحرب في سنة ١٩١٧ — ذهب إلى البيت الأبيض وقابل الرئيس ، وقال له إنه يجب عليك أن تقبل الترشيح للرأسة ثالثة ، فقال الرئيس للسناتور الشيخ : « أيها العم جورج إن أربع سنوات أخرى هنا تقتلني » . فقام الشيخ من مقعده وأخذ قبّعته وخرج وهو يقول : « ولو ! » .

في خلال تلك السنة اشتدَّ العطف الأميركي على بريطانيا الباسلة ، وتحجّر الرأي على وجوب بذل العون لها إلى أقصى حدٍّ مستطاعٍ دون الحرب . فلما اجتمع مؤتمر الحزبين لترشيح مرشحيهما للرئاسة والوكالة ، خرج الحزب الجمهوريُّ على كل تقليدٍ سابق ، ورشّح ونُدل ولكي للرئاسة ، وهو ليس من أقطاب سياسة الحزب وليس له هيئات منظمة تؤيده ، وإنما نال تأييد الكتلة من ممثلي الحزب ، فعنا السياسة لهذا التأييد . وخرج الحزب الديمقراطيُّ كذلك على قاعدةٍ كانت تقليدًا يحوطه الاحترام والجلال ، وهو تقليد الامتناع عن انتخاب رئيس ما لرئاسة ثلاثة ، فرشّح روزفلت ، ودارت معركة الانتخاب بينما كانت معركة بريطانيا على أشدها . وكان المرشحان الكبيران متفقين — بغير تبادل الرأي بينهما — على القاعدة الأساسية في موقف الولايات المتحدة من الحرب ، وهو بذل العون لبريطانيا إلى أقصى حدود البذل دون الحرب . ومَرَدُّ هذا الاتفاق إلى أن انهيار بريطانيا يضع الولايات المتحدة وسائر جمهوريات العالم الجديد أمام خطرٍ عظيمٍ يهدّد كيانها وطريقتها في الحياة . وبينما كانت معركة الانتخاب دائرة ، أعلن الاتفاق الخطير الذي عُقد بين بريطانيا والولايات المتحدة ، وهو الاتفاق الذي أساسه إعطاء بريطانيا خمسين مدمرةً أميركيةً ، مقابل إعطاء الولايات المتحدة حقوقاً في إنشاء قواعد بحرية وجوية ، في طائفة من الجزائر البريطانية في غربى المحيط الأطلسي وبحر الأنتيل . وكان المبدأ الذي عُقد الاتفاق على أساسه مبدأ الدفاع عن الولايات المتحدة . فتحويل خمسين مدمرة أميركية إلى بريطانيا يعزّز قدرتها على الدفاع . وإنشاء قواعد أميركية في الممتلكات البريطانية في العالم الجديد يعزّز قدرة الولايات المتحدة على الدفاع . وتعزيز قدرة بريطانيا على الدفاع يطيل الأمد المتاح أمام الولايات المتحدة للتأهب . والأمر الذي يستوقف النظر في هذا التبادل أنه تمَّ من الجانب الأميركي ، بقرار من الرئيس بغير استشارة الكونغرس . ولذلك حصر ناقدو الرئيس مجال النقد في هذه

المسألة القانونية ، مع أنهم في تقديم كشفوا عن عَنَت أكثر مما كشفوا عن حكمة وحسن إدراك ، إذ لا ريب في أن الشعب الأميركي كان موافقاً على هذا التبادل . ولكن لو عُرض على الكونغرس لكان هناك تأخير في إقراره ينطوي على خطرٍ على الأقل . وقيل في نقده انه عملٌ غير محاييد . وهذا صحيحٌ من ناحية تقاليد الحياد الأميركية . ولكن جميع الذين يواجهون الحقائق ولا يزورون عنها كانوا يعلمون أن الحياد بمعناه القديم قد زال . وعدَّ هذا العمل عملاً حريياً أولاً كان في هذه الحالة يرجع إلى برلين أكثر مما يرجع إلى واشنطن . ومن المحتم أن الحكومة الألمانية كانت عازمةً على تجاهل العمل الأميركي ، مادام ذلك يوافق مصلحتها وحاجتها ، ولو كانت ألمانيا النازية ترى مصلحة في الاعتداء على الولايات المتحدة ، لما انتظرت عملاً من هذا القبيل لتتوسل به إلى ما تريد . وقد أفصح الرئيس روزفلت عن هذا المعنى في غير خطبة واحدة من خطبه ، والشعب الأميركي أيده .

وأقبل يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ وهو يوم انتخاب الرئيس ، أو يوم انتخاب ناخب الرئيس — إذا أخذ بحرف النصوص الدستورية — فأسفر الانتخاب عن فوز روزفلت باتفاق ٤٤٩ صوتاً على ٨٢ صوتاً في مجمع الانتخاب ، وبأكثرية شعبية قدرها خمسة ملايين . ففرنكلن دلانو روزفلت هو الرئيس الأميركي الأول الذي انتخب رئيساً ثلاث مرات . وكان عدد الولايات التي انحازت إليه ٣٨ ولاية من ٤٨ ولاية ، وكان عدد الأصوات الشعبية في جانب روزفلت ٤٦٦ ، ٢٤٣ و ٢٧ وفي جانب ولكي ٧٥٥ و ٣٠٤ و ٢٢ .

ولما كان المرشحان الكبيران ، روزفلت وولكي ، متفقين اتفاقاً تاماً على قواعد السياسة الخارجية التي يجب أن تجرى عليها الدولة الأميركية حيال أخطار الحرب ، وهي التأهب للدفاع ، وتأييد بريطانيا بكل عون مستطاع دون الحرب ، والامتناع عن ممالاة الطغاة . فالنتيجة التي أسفر عنها الانتخاب تشير إلى أن الشعب الأميركي

فضل إبقاء رُبانٍ مدربٍ مجربٍ ممسكاً بدفة سفينة الدولة ، على التمسك بعُرْفِ جَرَّت به التقاليد ولا يمنعهُ الدستور ، وهو الامتناع عن انتخاب رجلٍ واحد ثلاثاً للرئاسة .

ثم إن السياسة التي اتفق عليها روزفلت وولكى بغير تفاهم خاص بينهما عليها ، كانت مرتبطة باسم روزفلت أكثر من ارتباطها باسم ولكى . ومما لا ريب فيه أن دُعاة الطغاة في أوربا بذلوا غاية الجهد لهزيمة روزفلت في الانتخاب وتأليب الشعب الأمريكى عليه مع علمهم أن ولكى يرى رأيه ، وقد فعلوا ذلك ليقينهم أن خذلان روزفلت يمكن استغلاله استغلالاً قوياً ، فترة ما على الأقل ، فيصوّرُ هزيمة سياسية وأدبية لبريطانيا وحلفائها

ويجب أن يضاف إلى ما تقدّم أن تجديد انتخاب روزفلت جاء عملاً موفقاً ، لأن الفترة بين الانتخاب وتنصيب الرئيس الجديد ، أى بين ٥ نوفمبر و٢٠ يناير التالى ، تقتضى فى مثل هذه الأيام العصيبة تصريف أمورٍ خطيرة مستعجلة ، ورئيسٌ يعلم أنه خُذِل فى الانتخاب وحزبه معه ، قد يتعذر عليه البتُّ فى مسائل كثيرة . وقد حدث هذا بعد انتخاب روزفلت سنة ١٩٣٢ وقبل تنصيبه فى مارس ١٩٣٣ إذ عجز هوفر عن النهوض الى مستوى سلطة الرئيس العظيمة . فديب التراخى يدبُّ فى أعمال الحكومة فى هذه الفترة

وأخيراً إن أساس النظام الدستورى الأمريكى هو التعاون بين الرئيس (السلطة التنفيذية) وبين الكونغرس (السلطة التشريعية) . والرئيس لا يُعزَل إلا بعد اتهامٍ ومحاكمة . فإذا كان الرئيس من حزب وأكثر الكونغرس أو أحد مجلسيه من حزب آخر ، كان التعاون متعذراً أو شاقاً المشقة كلها على الأقل . ولو فاز ولكى لكانت أكثرية مجلس النواب من الجمهوريين (حزب ولكى) على الأرجح ، ولكن مهما يحدث فالأكثرية فى مجلس الشيوخ كانت باقية حتماً للديمقراطيين لأن

ثلث أعضاء المجلس انتخب حينئذ (١٩٤٠)، ولو كانت أكثرية هذا الثلث الساحقة من الجمهوريين لظلت أكثرية المجلس نفسه من الديمقراطيين . فتجديد انتخاب روزفلت من أى النواحي أتتته كان ، على حد ما قاله لى يومئذ الوزير الأميركي المفوض فى مصر، برت فش : — « خيراً للأميركا — وللعالم أجمع » .

بين تجديد انتخابه فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ وحفلة تنصيبه الثالث فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ واجه روزفلت وحلّ أعقد معضلة اقتصادية حربية واجهتها بريطانيا والأمم الديمقراطية فى هذه الحرب . ذلك بأن بريطانيا كانت قد أوشكت أن تستنفد كل ما لها من مالٍ فى الولايات المتحدة ، أو كل ما تستطيع تحويله إلى دولارات لشراء السلاح والعتاد من الولايات المتحدة ، وتوفية ثمنها نقداً وفقاً للقانون القائم . ولكن الحرب لا تزال فى بدئها ، والحاجة ملحة إلى مقادير عظيمة من السلاح والعتاد لتضمها إلى ما تخرجه مصانعها . وقانون جنسن الأميركي يمنع عقد القروض فى الولايات المتحدة لدولة لم توف كل ما عليها من ديون الحرب الماضية ، وقانون الحياذ الأميركي يحتم توفية الثمن نقداً وفوراً . فإذا لم تُكشف طريقة تمكن بريطانيا من أخذ ما تحتاج إليه من السلاح والعتاد ، فقد تعجز عن مواصلة الحرب ، وإذا انهارت بريطانيا انكشف العالم الجديد — أى الولايات المتحدة نفسها — للخطر ، لأن هتلر يملك حينئذ موارد أوربا المادية والصناعية ، ومن المرجح أنه يشترك حينئذ مع اليابان فى ضغط أميركا من الشرق ومن الغرب ومن الجنوب ، لأن قارة أميركا الجنوبية تصبح عندئذ ميداناً مباحاً له بغير قتال . فالولايات المتحدة يهملها أن تشتري وقتاً للتأهب ، وليس ثمة غير بريطانيا تستطيع أن تبيعها هذا الوقت . فعون بريطانيا أيّاً كانت طريقته ، مصلحة دفاعية أميركية عُلّيا .

فكيف يكون العون ؟

عند ما اجتمع روزفلت بالصحفيين فى ١٧ ديسمبر ١٩٤٠ كان الرأى الغالب بينهم

أن خير أسلوب لتحقيق هذا العون هو إلغاء قانون جنصن والسماح لبريطانيا بأن تعقد في السوق الأميركية قروضاً بفائدة يسيرة ، فتنفقها في شراء ما تحتاج اليه من منتجات أميركا الحربية على نحو ما فعلت في الحرب العالمية الأولى . ولو كان روزفلت رجلاً ضعيفاً قليل التبصر لاختار هذا الطريق السهل في هذه الساعة القائمة ، ولو اختاره لتراكت على بريطانيا ديون تفضى بعد الحرب الى غير قليل من المنازعة والتناز على توفيتها وأساليب التوفية ، والى أزمة اقتصادية عالمية ، ولو هنت العروة التي يجب أن تربط بين بريطانيا والولايات المتحدة ، وبها يناط معظم الأمل في تحقيق السلام والتعمير بعد الحرب .

ولكن فرنكلن روزفلت الواقف حارساً على باب الزمان ، لم يكن ينوى أن يعيد الأخطاء التي ارتكبت في الحرب العالمية الأولى . وكان حين واجه أولئك الصحفيين يُجِيل في ذهنه حلّاً فاق في سعة أفقه ، ونبل غرضه ، وبُعْد مرماه ، كل ما كان منتظراً . ولكنه لم يقه إلا بتلميح عنه للصحفيين ، وذهب في رحلة استجمام بحرية إلى بحر الانتيل ، أحكم خلالها المشروع الذي يفرغ فيه هذا الحل . وبعيد عودته ، وجه إلى قومه من « جانب الموقدة » في البيت الأبيض الخطبة المشهورة الآن بعنوان خطبة « ترسانة الديمقراطية » ٢٩ ديسمبر ١٩٤٠ ومما قاله فيها : « هذا حديث عن الدفاع القومي إن حضارتنا لم تتعرض مطلقاً منذ جيمزتون و بليموث روك (الإشارة إلى نزول النازحين الانكليز في أميركا في القرن السابع عشر وإنشائهم مستعمرة هنا) لمثل الخطر الذي تتعرض له إن سادة ألمانيا النازيين أوضخوا أنهم لن يكتفوا بالسيطرة على الحياة والفكر في بلادهم ، بل ينوون استعباد أوروبا قاطبة ثم الاستناد إلى مواردها للسيطرة على بقية العالم إن فريقاً من شعبنا يوم نفسه بأن الحروب في أوروبا وآسيا ليست من شأننا . ولكن من المسائل الحيوية التي تهمننا بوجه خاص أن يُصدّ مثيرو الحرب في أوروبا وآسيا ، عن السيطرة على

الحيطات المفضية إلى نصف القارة الغربى هل يعتقد أحد صدقاً أنه يجوز أن نخشى الاعتداء ما دامت بريطانيا قائمة جارة لنا . . . ؟ هل يعتقد أحد صدقاً أننا نستطيع أن نطمئن إذا كانت دول المحور جاراتنا هناك ؟ وإذا هَوّت بريطانيا فإن دول المحور تسيطر على قارات أوربا وآسيا وأفريقية وأستراليا وما يتبعها وعلى البحار كذلك ، فتصبح فى منزلة تمكّنها من أن تحشد موارها الحربية والبحرية ضدّ نصف الكرة هذا . وليس من الغلوّ فى شىء أن نقول إننا نغدو جميعاً فى القارتين وكأننا نعيش على فوهة مدفع . . . إن أماننا خطراً يجب أن نتأهب للقياء ، ولكننا نعلم أننا لا نستطيع أن ننجو من الخطر أو من الجزع الذى يبثّه فى النفس ، بتسلّلنا إلى الفراش وتعطيه رؤوسنا إننى إذ أفكرّ فى مسائل اليوم والغد ، أصارح أمّتى بأن احتمال بقائنا خارج نطاق هذه الحرب يزداد إذا نحن بذلنا تأييدنا الآن للدول التى تدفع عن نفسها هجوم المحور ، غير مسلمّين بهزيمتها ، ولا مُدْعين فى لينٍ وذُلٍّ لظفر المحور ، منتظرين دورنا . . . ولا بدّ من أن نرسل إليها هذه الأسلحة فى مقادير وافية . . . فليمتنع دُعاة الهزيمة عن اليول بأن الوقت قد فات . فليس فى الوسع الإفراط فى التبكير . واليوم أبكرُ من الغد . . . الخ . . .

ولما اجتمع بالصحفيين بعد ذلك ضرب لهم مثلاً على ما يريد ، فقال : « إذا شَبَّت النار فى دار جارك ، وخشيت أن تمتدّ إلى دارك ، فهل تساوم جارك ، المحتاج إلى خرطوم الماء ، على ثمنه وطريقة توفية الثمن ؟ » . ولكنّ تفصيل المشروع لم يُعرَف حتى اليوم السادس من شهر يناير سنة ١٩٤١ إذ وجّه إلى الكونغرس رسالة قال فيها عن الحلفاء : « اقترب الوقت الذى سيعجزون فيه عن توفية الثمن (ثمن العتاد) نقداً . ونحن لا نستطيع أن نقول لهم ، ولن نقول لهم ، يجب أن تستسلموا ، لأنهم عاجزون الآن عن دفع ثمن أسلحةٍ نعلم أنهم فى حاجة إليها . وأنا لا أشير بأن نعقد لهم قرضاً بالدولار . بل أشير بأن نتيح لهم فرصة المضيّ فى الحصول

على موادّ الحرب في الولايات المتحدة ، مُوقِّعين بين طلبهم وبرنامجنا (برنامج الدفاع الأميركي) . . . وما نرسله خارج بلادنا سيوفى ثمنه في أمدٍ معقول بعد انتهاء القتال إمّا موادّ مشابهة للموادّ التي أصدرت ، أو لنا أن نختار بضائع أخرى يستطيعون أن يصنعوها ونحتاج نحن إليها .

هذه العبارة هي لباب مشروع الإقراض والتأجير ، وبها ذلّل روزفلت بضربة واحدة من القلم ، أعظم عقبة تحول دون التعاون البريطاني الأميركي بعد الحرب - عقبة التنافس الاقتصادي .

إلا أن مغزى المقترح ، من حيث صلته بمواصلة الحرب ، حجب هذا المغزى الإنساني البعيد ، حينئذٍ .

وقع المشروع الذي اختاره الرئيس لحلّ هذه العقدة الحربية المالية أحسن وقع عند جمهور الشعب الأميركي ، فكتب في الصحف كتابةً متحمسٍ له ، لا مجرد كتابةٍ موافقةٍ عليه . فقالت جريدة « كرسيتيان سينس مونيتور » - وهي جريدة لها أعلى منزلة عند الطبقات العالية في الولايات المتحدة الأمريكية ولا سيّما طبقة المشتغلين بالتعليم والتربية والصناعة والصحافة - ما يلي : « منذ أشهر أخذت الولايات المتحدة تدرك أنها لا تستطيع أن تعيش في عالم دكتاتوري ، فأحسّت بدافعٍ من فطرتها السليمة أن عليها أن تقاوم . . . وعزّمتها هذا يجد الآن إعراباً بليغاً فعلاً في أقوال الرئيس ومشروعه . . . إنه يمزّق لفائف التفكير المشوّش ، معترفاً بأن الأمر الحيويّ في المسألة كلّها إنما هو السرعة في نقل الأسلحة إلى حيث تكون أفعل ما تكون »

وكتب ولتر ليمان - وهو كاتبٌ قرأت مؤلفاته فتعلّمت أن أحترم سداد رأيه واستقلاله ، ثم لما عرفته من سنوات في القاهرة عزّز الخُبْرُ الخبر ، ومقالته اليومية تُنشر في صحيفة « هيرالد تريبون » النيويوركية ثم تنشرها مئات من الصحف في طول البلاد وعرضها - فقال : إن الرئيس ينتقل بإذاعة مشروعه من الأقوال إلى

الأفعال . وهو مشروعٌ سليمٌ قائمٌ على مبدأ صريح ، وهو مبدأ عَوْن بريطانيا كل العون المستطاع دون الحرب . وهو مشروعٌ فعّالٌ لأنه يعزّز الدفاع الأميركي بتعزيز خط الدفاع الأول عبْر المحيط . وهو مشروعٌ حكيمٌ بعيدُ أفقِ النظر ، لأنه يضمن للولايات المتحدة أفعل وسائل الدفاع في أثناء الحرب وبعدها ، ولأنه يرفع صنع الأسلحة وبيعها فوق مستوى الصفقات التجارية . . . إنه مشروع رئيس الولايات المتحدة الأميركية مدبّر سياستها الخارجية والقائد العام لجميع قوّاتها المسلّحة ! » .

وكان وندل ولكي بعد خذلانه في انتخاب الرأسة قد ذهب في رحلة إلى بريطانيا ، فاستدعى من رحلته هذه ليقدم شهادته في هذا المشروع في لجان الكونغرس المختصة ، فقال في لجنة مجلس الشيوخ ، إنه ليس في وسع أحده أن يحكم في هل تستطيع بريطانيا أن تنتصر في هذه الحرب بغير عون الولايات المتحدة . ولكننا نعلم أنها إذا غلبت على أمرها ، فالدول الدكتاتورية تبسط سيطرتها على العالم ، ولا تقتصر سيطرتها على أوربا ومعظم أفريقيا بل تتعدّاها إلى المحيط الأطلسي . وفي هذه الحالة يرجح أن تشن ألمانيا حملة اقتصادية وعسكرية على أميركا اللاتينية . واليابان على جزائر الهند الشرقية . فتصبح الولايات المتحدة وكندا مطوّقتين ، تطوقهما دول دكتاتورية تستعمل أساليبها المعروفة في التجارة والاقتصاد . متكررة للولايات المتحدة ، غير محجمة عن القتال إذا دعا الأمر . هذا هو المعنى الذي يجب أن نعلقه بمشروع عون بريطانيا . ليس الغرض أن نعمل لأجل بريطانيا ، بل الغرض أن نعمل مع بريطانيا للدفاع عن نطاق الحرية .

وقال : إن سياسة العون الكامل لبريطانيا تتيح لأمركا أفضل فرصة — وفي رأي آخر فرصة — لحماية الحرية بغير أن تخوض أميركا الحرب . وليس هناك من يستطيع أن يضمن أن سياسة عون بريطانيا لا تفضي إلى اشتراك أميركا في الحرب . ولكنني مقتنعٌ باننا إذا بذلنا لبريطانيا عوناً فعّالاً ، كان بذلنا هذا أفضل ضامنٍ

لنا اجتناب الحرب ، إذا كان اجتنابها ممكناً على الإطلاق . إن هتلر سيحاربنا ويحارب أصدقاءنا وحلفاءنا في نصف كرتنا هذا متى شاء واستطاع . هذا هو سجله . ولكن عدوانه يبقى مقموماً ما دامت بريطانيا ثابتة .

— وبعد مناقشة طويلة حرة ، وبحث حرٍّ مستفيض في لجان الكونغرس ومجلسيه ، أقر قانون « الإقراض والتأجير » ووقعه الرئيس روزفلت في ١١ مارس ١٩٤١ فقطعت عند ذلك الولايات المتحدة « نهر الروبيكون » في هذه الحرب كما فعل قيصر من قبل عند ما زحف على روما ، أو أشعلت النار في السفن وراءها كما فعل طارق ابن زياد . فكانت هذه الخطوة ، كما قلت حينئذٍ في إذاعة من القاهرة « خطوة حاسمة في هذه الحرب ، وعندى أنها خطوة حاسمة كذلك في مستقبل العلاقات البريطانية الأميركية وفي تنظيم العالم المرتجى بعد الحرب » .

فلماذا خطت الولايات المتحدة هذه الخطوة ؟ انك تجد الجواب مفصلاً في ما تقدم من صفحات هذا الفصل ، ولكن خذه مجملًا في قول الصحفي مارك صليشن — وهو شيخ المكاتبين السياسيين في العاصمة الأميركية — قال : اننا لا نخشى إلا من بعيد ، غزوة ألمانيا مباشرة لأرضنا ، ولكن الخطر الصحيح الذي يواجهنا ، هو في نظر أصحاب الفكر والرأي ، خطر القضاء على النظام الأميركي بغير غزوة مباشرة . أما كيف يتم هذا القضاء بغير غزو ونخطوطه الرئيسية كما يلي : إذا تغلبت ألمانيا على بريطانيا ، أصبحت سيدة البحر وصاحبة حول وسلطان على العالم ما عدانا (أميركا الشمالية) ، ثم تفرض ألمانيا نظامها « الكلى » على العالم بالسلاح أو بالتهديد بالسلاح أو بالضغط الاقتصادي . وتبدأ في جميع البلدان بتحويل الصناعة والتجارة وإخضاعهما لحكمها وتديرها . وتنشئ من تجارة العالم وصناعاته كتلة واحدة ، ألمانيا قلبها ، ومقرها في برلين . فتقول لبلد ما ، عليك أن تنتج قمحاً وتصدره الى حيث أئين لك ، وتقول لآخر عليك أن تنسج منسوجات ، ولثالث أن تتوفر على صناعة السيارات .

وتحتفظ هي لنفسها بالصناعات التي تعد مفتاح القوة الحربية في هذا العصر، كصناعة الأسلحة على اختلافها والدبابات والطائرات . وتحتفظ بصناعة السفن أو تبسط سيطرتها التامة عليها في بلدان أخرى، بحيث تكون الأساطيل التجارية جميعاً رهن إشارتها . ولا يبعد أن تمنع البلدان الأخرى من بناء سفن تجارية إلا إذا كانت دون تفريغ قليل معين . وكذلك تغدو جميع مراكز الانتاج وجميع طرق العالم التجارية سدًى ولحمةً في نسيج واحد تحرّكه يد واحدة، حتى لكان العالم مصنع واحد ومتجر واحد، كلمته العليا في برلين .

« ونحن الأميركيين نخشى أن نعجز، بعد ما يتم كل هذا، بل قبل أن يتم، عن البقاء خارج هذا النظام العالمى، وبمعزل عنه . ونخشى أن تغدو مضطرين برغم أنوفنا إلى الأخذ بالنظام الكلى فى صناعتنا وتجارتنا . وعندئذ، لأمحيص لنا من أن يتبع حكمنا واجتماعنا ذلك النظام . هذا هو لباب الرأى الذى حفزنا إلى العمل، ومهما يكن لون الخطر الذى يهددنا من ناحية ألمانيا فإن بريطانيا خير واق لنا منه، فإذا ثبتت بريطانيا فليس فى وسع هتلر أن يهاجمنا مباشرة، وإذا ثبتت بريطانيا فليس فى وسع هتلر أن يفرض نظامه هذا على العالم » .

أما ولتر ليبمان فيقول : « ليست المسألة : هل قليل من العون لبريطانيا يبقينا بمنجى من التعرض للحرب ؟ أو هل مزيد منه يحتم علينا خوضها ؟ ولكن المسألة هى : هل نستطيع، قبل فوات الأوان، أن نخطو الخطوات اللازمة لمنع هذه الحرب — التى لم نطالب حتى الآن بخوض غمارها — من أن تتحول حرباً لا بد لنا من أن نخوضها ونسفك دماءنا فيها وقد نكون فيها وحدنا حينئذ ؟

هذا هو وصف الباعث الأنانى على الموقف الأميركي، ولا حرج فى وصفه، ولا عيب فى اذاعته، فالباعث الأنانى، أقوى البواعث لأنه أوثقها صلة بالدفاع عن النفس وحفظ الكيان . ولكن باعثاً آخر يصطحبه، مداره تتعلق بصورة معينة من الحياة،

ويقابله في عالم الطبيعة الحيّة التعلق بزوج أو حبيب . قد تكون مزايا تلك الصورة من الحياة قائمة في عالم الوهم والخيال ، أو مستنزلة من صميم الحقيقة نفسها ، ولكن سواء ، أهذه كانت أم تلك ، فإنها مرتبطة بالانفعال والشعور ، ولذلك فهي تدفع إلى العمل . وقد مضى على الأميركيين ثلاثة قرون ، منذ نزلت أفواجهم الأولى في العالم الجديد من سفينة «المايفلور» وهم يرعرعون قواعد هذه الصورة من الحياة ، في البيت والمدرسة والحكومة ، في خطب الأقطاب وروايات الأدباء وأشعارهم ، وفيما يختارون دراسته من أدب الإغريق القدماء وتاريخ الأمة الانكليزية وأدبها وعلمها وفلسفتها من ثمانية قرون إلى الآن .

وما هي هذه القواعد ؟ هي أن السلطان والحرية غير متنافيين ، وأن في وسع الإنسان التمتع بالحرية بغير أن تعمّ الفوضى ، وأن الحكومة تستطيع أن تمارس السلطان بغير أن ينتشر الاستبداد ، وأن الثقة بكلمة المتعاقدين والقدرة على الاستناد إلى وعد الرجل المستقيم ، أساس لاغنى عنه للاجتماع الاقتصادي ، وأن الناس سواء أمام القانون ، فمصيرهم ليس متعلقاً بنزوة حاكم طارئة أو شهوة شرطى سرى . وهذه جميعاً مردّها إلى الاعتقاد في أن الإنسان الفرد شأنًا في بناء الحضارة ، والإيمان بالعقل ، والإصرار على أن للمرء المفكر كرامة في ذاته . أى أن المبدأ الأساسى في هذا النظام الاجتماعى الاقتصادى قوامه أن الفرد غاية في ذاته ، وليس مجرد آلة أو أداة تحركها قوة فرد آخر أو حفنة من الأفراد . وهذا القول ينطوى على وجوب منح الفرد بضع حريات أساسية لكي يتاح له النمو العقلى والروحى المتسق ، وفي مقدمتها الحرية ليزن ويحكم ، والحرية ليمحّث ويناقش ، والحرية ليعرب عن رأيه ، والحرية ليؤمن ويتعبد . فالحرّيات المدنية والدينية هي روح الحضارة ، هي لباب هذه الصورة من الحياة النازلة في الصميم من شعور الأميركي وانفعاله ، فتعرّضها للبوار يحرك عقل الأميركي وانفعاله معاً ، فإذا أضيف إلى ذلك شعوره بأن كيانه ، بأن سلامته

مهددة ، فأظن أن السبب الذي حمل الولايات المتحدة على وقوف هذا الموقف يغدو واضحاً .

عندما أُقرَّ قانون « الإقراض والتأجير » تجلّى حالاً التناقض بين منطقته ومنطق قانون الحياد الأميركي حتى بعد تعديله في أكتوبر وأوائل نوفمبر من سنة ١٩٣٩ . فقانون الحياد يفرض حياد الولايات المتحدة حياًداً تاماً ، ويحاول أن يجتنب بالتشريع ، جميع الحوادث التي قد تفرض عليها الخروج عليه ، ولو كان في ذلك نزول عن حقوق المحايدین الأساسية التي طالما دافعت عنها الولايات المتحدة . صحيح أن للدول المتحاربة أن تبتاع ما تشاء من أميركا ولكن عليها أن توفى الثمن فوراً ، وأن تنقل ما تبتاعه بسفن غير أميركية . وحُظر على السفن الأميركية أن تدخل مناطق عرّفها الرئيس بحسب قواعد القانون ، وأطلق عليها اسم « مناطق القتال » . وصحيح كذلك أن المزية التي يبيحها هذا القانون للدول المتحاربة على السواء ، مقتصرة على بريطانيا لأنها دون ألمانيا ، كانت تستطيع أن تشتري ما تشاء وتوفى ثمنه إلى أن قلّ معيها من الدولارات ، وأن تنقله لأنها مهيمنة على مياه المحيط الأطلسي . فمنطق قانون الحياد يعني أن الولايات المتحدة مُنتحية من الحرب شُرفة تطل منها عليها ولا تشترك فيها .

ولكن قانون « الإقراض والتأجير » ينص على أن الولايات المتحدة ستدفع ثمن السلاح والعتاد الذي تحتاج إليه بريطانيا من مال أبنائها وبناتها ، لأن الدفاع عن بريطانيا أتمّ دفاع عن أميركا . فمنطق قانون « الإقراض والتأجير » يعني أن الولايات المتحدة أصبحت مساهمة في الحرب ، ولو لم تشترك في القتال اشتراكاً فعلياً والمنطقان متناقضان .

وإذا صحَّ عزم الولايات المتحدة حقاً على أن تنفذ قانون « الإقراض والتأجير » فمنطق تنفيذه يقتضي منها أن تسهر على وصول ما تصنعه من سلاح وعتاد بحكم هذا

القانون ، إلى بريطانيا أو غيرها من الدول التي يشملها . إذ ما تجنى الولايات المتحدة من صنع السلاح وإباحته بغير ثمن ، إذا كانت بريطانيا لا تملك السفن الكافية لنقله ؟ أو إذا كانت تملك السفن ، ولكنها لا تستطيع أن تقاوم الغواصات مقاومة وافية تمنع إغراق جانب كبير مما تأخذه من أميركا ؟ أى ماذا تجنى أميركا إذا صنعت السلاح ثم كان مصيره التكدُّس على الأرصفة أو الغرق في قاع اليم ؟

فمنطق قانون « الإقراض والتأجير » كان مُفضياً حتماً ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى إلغاء نصوص قانون الحياد الخاصة بحظر النقل بسفن أميركية ، وبحظر دخول السفن الأميركية مناطق القتال ، والامتناع عن تسليح السفن التجارية الأميركية فهل يُقِيلُ الشعب الأميركي على إلغاء هذه النصوص في قانون الحياد ؟ أى هل في الوسع إقناعه بقيام التناقض بين القانونين على رغم صخب أنصار العزلة ودعاة حفظ السلام بالتشريع ؟

لم يستعجل روزفلت الحوادث ، مع إدراكه أن العجلة لازمة . ولكنه ، وهو السياسيُّ الحنك ، فضل شيئاً من البطء على كثيرٍ من الانقسام الداخلي . ومع ذلك لم يقف مغلول اليدين .

ففي اليوم الثاني عشر من شهر ابريل سنة ١٩٤١ كانت معركة شرق أفريقيا قد أوفت على نهايتها ، إذا استثنينا بضع مناطق مقاومة باقية في الحبشة ، فأصدر روزفلت قراراً ، بما له من سلطة ، مؤداه أن البحر الأحمر لا يُعدُّ بعد صدور القرار منطقة قتال أى أنه أباح للسفن الأميركية أن تدخله . وفي اليوم نفسه أعلن أن هل اتفق مع وزير الدنمارك المفوض على أن تتولى الولايات المتحدة حماية جزيرة جرينلندة ، مدى الحرب ، فأتاح هذا الاتفاق حماية إضافية لخطوط القوافل من الغرب إلى الشرق ، لأن الطائرات الأميركية المستندة إلى قواعد في جرينلندة تستطيع أن تتولى مهمة الدوريات . وفي أواخر يونيو أعلن أن حكومة الولايات المتحدة قبلت دعوة حكومة اسلندة ،

واتفقت مع حكومة بريطانيا على إنزال قوة أميركية في تلك الجزيرة المعدودة لازمة للدفاع عن العالم الجديد . وشاع بُعيد ذلك أن فريقاً من الفنيين وصل إلى إيرلندة الشمالية « للعمل في مشروع لازم للدفاع الأميركي »

ثم أخذت الحوادث تتوالى في المحيط الأطلسي ، وهي حوادث إعتداء على السفن الأميركية الحربية والتجارية . وقد وصف روزقلت هذه الحوادث في خطبته التي ألقاها يوم ١١ سبتمبر ١٩٤١ فقال : « إن وزارة البحرية أبلغته أن المدمرة الأميركية « جرير » كانت في صباح اليوم الرابع من سبتمبر ماضية في رائعة النهار صَوَّبَ جزيرة اسلندة ، حاملةً بريداً أميركياً إلى تلك الجزيرة ، وكانت قد بلغت موقعاً إلى الجنوب الشرق من جزيرة جرينلندة ، وكان عَلمُها الأميركي خفاً ، وجنسيَّتها الأميركية بادية ، لاريب فيها ، فاعتدت عليها حينئذٍ غواصة . وألمانيا تعترف بأنها كانت غواصة ألمانية . وقد أطلقت عليها قصداً طور بيدا أتبعته به آخر . وبرغم ما لفقته دُعاة هتلر ، وبرغم ما تفضّل أية هيئة معارضة أميركية أن تصدّقه ، أقول لكم الحقيقة الصريحة ، وهي أن الغواصة الألمانية أطلقت النار أولاً على المدمرة الأميركية بغير إنذار ، وبقصد إغراقها .

« كانت مدمرتنا حينئذٍ في مياه أعلنت الحكومة الأميركية أنها مياهٌ ضرورية للدفاع عن النفس تحيط بمخافر أمامية أميركية لحماية المحيط الأطلسي . وقد أنشأنا في شمالي المحيط الأطلسي مخافر في اسلندة وجرينلندة ولبرادور ونيوفندلند . وفي هذه المياه تمخر سفنٌ كثيرة تخفق عليها أعلام كثيرة . وهي تنقل طعاماً وغيره من المواد اللازمة للمدنيين . وهي تنقل موادَّ حربية تنفق الولايات المتحدة على صنعها ألوف الملايين من الدولارات ، وهي موادُّ أقرّ الكونغرس الأميركي رسمياً أنها ضرورية للدفاع عن بلدنا .

« فالمدمرة الأميركية كانت ، عند ما اعتدى عليها ، ماضيةً في مهمة شرعية . فإذا

كانت المدمرة مرئية من الغواصة عند ما أطلق الطور بيد ، فلهجوم عليها كان محاولةً مُتعمَّدةً من قِبَل النازي لإغراق سفينة حربية أميركية بادية الجنسية . وإذا كانت الغواصة غائصة تحت سطح البحر ، وتوسلت بأجهزة الصوت لإطلاق طور بيدها في اتجاه صوت المدمرة الأميركية ، بغير أن تُعنى بمعرفة جنسيتها ، كما يشير البلاغ الألماني ، فالاعتداء كان أبعث على السخط والاستنكار . لأنه يدلُّ على خطَّة عنف تطبق بغير تمييز على كل سفينة تمخر اليم ، محاربةً كانت أو غير محاربة .

« هذه قرصنة ، قرصنة من الوجهتين : الشرعية والأدبية . وهذا الاعتداء لم يكن أول عمل قرصنةٍ عمدت إليه الحكومة النازية ضدَّ العلم الأميركي في هذه الحرب ولن يكون آخرها فلهجوم تلا الهجوم » .

ومضى روزفلت على هذا المنوال يعدّد حوادث الاعتداء على السفن الأميركية ، وهي الحوادث التي سبقت الاعتداء على المدمرة « جرير » وبينها إغراق السفينة التجارية الأميركية « روبن مور » في وسط المحيط الأطلسي الجنوبي ، والسفينة التجارية « سسا » الرافعة علم جمهورية بناما ، والسفينة « ستيل سيفارر » الأميركية في البحر الأحمر على مائتي ميل وعشرين ميلاً إلى الجنوب من السويس .

وخلص روزفلت من ذلك إلى القول بأن الاعتداء على المدمرة « جرير » ليس عملاً حربيّاً منعزلاً عن غيره في شمالي المحيط الأطلسي ، بل هو « خطوة مقصودة نحو إنشاء نظام عالمي قائم على القوة والارهاب والقتل . . . إننا لعازمون على حفظ طرق التجارة المشروعة مفتوحة في مياه لازمة لدفاعنا مهما يكلفنا الأمر . فنحن لم نسعَ إلى تبادل النار مع هتلر ، ولا نسعى إليه الآن . ولكن رغبتنا في السلام لم تبلغ حدّ الرضى بالسماح له بمهاجمة سفننا الحربية والتجارية بينما هي ماضية في مهامها المشروعة . وإنني لأفرض أن الزعماء الألمان غير مهتمين الليلة ، ولا يهتمهم ، في وقت ما ، ما يقوله أو ينشره الأميركيون الأقحاح أو الحكومة الأميركية عنهم . وليس في

وسعنا أن نهدم النازية بتبادل القذع عن بُعد . ولكن عند ما تشاهدون الحية ذات الأجراس مُقْعِيَةً للانقضاض ، فإنكم لا توجّلون ضربها إلى ما بعد انقضاضها ، والغواصات والمغيرات الألمانية هي الحيات ذوات الأجراس في المحيط الأطلسي . «
ها هي ذى سنة ١٩١٧ تعود . ولكن صوت روزقلت أقوى من صوت ولسن ، وحكمه أصدق . فهو لن يعتمد على تبادل المذكرات السياسية كما فعل سلفه ، لأنها على قوله « لا تجدى مطلقاً مع هؤلاء الخارجين على القانون الدولي الذين يغرقون سفننا ويقتلون أبناءنا » . وبعد ما أعاد موقف الولايات المتحدة التاريخي من مبدأ « حرية البحار » قال : « فإذا عزمنا على حماية البحار اللازمة للدفاع الأميركي ، فذلك ليس عملاً حربياً من جانبنا . إن الاعتداء ليس اعتداءنا . إنما نحن ندافع . وليكن هذا التحذير واضحاً . فإذا دخلت بعد الآن سفنٌ حربية ألمانية أو إيطالية مياهنا نعدّ الدفاع عنها ضرورياً للدفاع الأميركي ، فإنها تتحمل خطر فعلها . وبوصف كوني قائداً عاماً لجيش الولايات المتحدة وأسطولها أصدرت الأمر إليهما بتنفيذ هذه السياسة في الحال . إن التبعة واقعة على ألمانيا وحدها ، فلن يكون هناك إطلاق نارٍ إلا إذا مضت ألمانيا في السعي إليه ... ولا يساورني وهمٌ ما حيال خطر هذه الخطوة . وأنا لم أخطئها في تسرعٍ أو خفة . إنها نتيجة أشهرٍ وأشهر من التفكير المستمر والقلق والابتهاال . فلا محيص عنها ، ولا مفرّ منها ، في الدفاع عن أمتكم وأمتي » .
بعد هذا لم يكن بدّ من تجديد العناية بإلغاء قانون الحياد الأميركي ، أو نصوصه التي تتعارض وهذه السياسة .

كانت خطبة الرئيس هذه في ١١ سبتمبر . وفي الحال أصدر الأمر إلى السفن الحربية الأميركية بالبحث عن الغواصة التي اعتدت على المدمرة « جرير » « وإزالتها » (eliminate it) أي القضاء عليها . وفي ١٨ سبتمبر أعلن وزير البحرية « نوكس » أن الأسطول الأميركي كان يحمي القوافل إلى جزيرة اسلنדה . وفي ٢٥ سبتمبر قدّم

السناتور ما كلارن مشروعا إلى مجلس الشيوخ بإلغاء قانون الحياد ، قائلاً ما قاله روزفلت عند ما وقع على مضمض : « إنه قد يكون أبعث على الحرب منه على منعها » . وأضاف ما كلارن : إنه خيرٌ للولايات المتحدة أن تشهر الحرب ، وتتخذ خطة الهجوم . وطالت المناقشة في هذا المشروع في المجلسين ولجانها المختصة ، وفي خلالها اعتدى على المدمرة الأميركية « كيرنى » وقتل أحد عشر رجلاً من رجالها . وفي ٣١ أكتوبر أغرقت المدمرة الأميركية « روبين جيمز » ، وفي الأسبوع الأول من نوفمبر عدل قانون الحياد ، فزال العائق التشريعي دون تنفيذ قانون « الإقراض والتأجير » على الوجه الأوفى .

— ٤ —

في شهرى أكتوبر ونوفمبر من سنة ١٩٤١ سارت الحوادث سراعاً في الشرق الأقصى منذرة بأزمة حادة . وأشارت التقارير التي تلقتها حكومة الولايات المتحدة إلى أن اليابان متجهة على الأرجح إلى الحرب . والواقع أن وزير البحرية الأميركية « نوكس » كان قد كتب في ٢٤ يناير من سنة ١٩٤١ مذكرة أثبت فيها بُعد نظره وصدق حديثه ، إذ قال : « إذا نشبت حربٌ مع اليابان ، فالسائد أن القتال يستهل بهجوم مفاجئ على الاسطول أو القاعدة البحرية في بيرل هاربور والأخطار المحتملة بحسب ترتيب شأنها واحتمالها هي : أولاً — هجومٌ جوىٌ بقاذفات قنابل . وثانياً — هجومٌ جوىٌ بقاذفات طوربيد » . فلما تولى الجنرال توجو رئاسة الوزارة في اليابان أنجبى الأميرال كيمل Kimmel والجنرال شورت — وكانا قائدَي القوّات البحرية والبرية في بيرل هاربور — بجواز الهجوم عليها و « بوجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة » ثم تولى الإنذار في إثر الإنذار . ففي ١٤ نوفمبر أمر أبان يتيقظاً « لحركة معادية مفاجئة في كل جهة من قبل اليابان » . وفي ١٧ نوفمبر تلقيا رسالة من واشنطن

جاء فيها « إن هذه الرسالة يجب أن تُعدَّ إنذاراً بالحرب . فالمتوقع أن تُقدِّم اليابان على عملٍ حربي في خلال الأيام القليلة المقبلة » . ولكن اللجنة التي أُلِّفَت للبحث في شهر فبراير ١٩٤٢ وجدت « أن القائدين لم يعقدا اجتماعات غرضها بحث مغزى هذه التحذيرات . . . ولم يتعاونوا في تنسيق أعمال الدفاع » .

خلال ذلك كله ، كانت الولايات المتحدة في مشاورة مستمرة مع بريطانيا ، لأن الحكومة البريطانية نفسها كانت قد تلقت من ممثليها في الشرق الأقصى ما يؤيد الإنذارات التي تلقتها لولايات المتحدة . وأُعلن في يوم ٩ نوفمبر أن روزفلت وتشرشل يُعدَّان العدة لعمل في المحيط الهادي . وفي يوم ١١ نوفمبر — وهو يوم ذكرى هدنة ١٩١٨ — خطب الرئيس روزفلت في مقبرة ارلنغتون حيث دُفن الجندي المجهول ، فقال : « إن الولايات المتحدة مستعدة أن تحارب ، مهما يفتح الثمن ، لتصون حرية الأمة » . ولسنا نعلم الآن ، هل كان روزفلت يعلم ، عند ما فاه بهذه الكلمات ، أن السنة لا تُشرف على ختامها حتى تكون الحرب قد فُرضت على الأمة الأميركية . ولكنه من المحتمل الذي في مرتبة اليقين ، أنه كان يتوقع عملاً من ناحية اليابان بغير أن يكون ضرورة موجَّهاً إلى الولايات المتحدة ، وأنه إذا حدث فروزفلت سيطلب من الكونغرس إعلان الحرب على اليابان . ومن المحتمل الذي في مرتبة اليقين كذلك أن اليابان كانت تعلم هذا العزم من ناحيته ، فضربت الولايات المتحدة أولاً . وفي اليوم الثاني من ديسمبر اجتمع روزفلت بمستشاريه البحريين ، وكان ذلك على أثر رحلة إلى « وارب سبرنغز » في جورجيا بدأها في اليوم السابق ثم قطعها فجأةً ليعود إلى العاصمة . وفي مساء ذلك اليوم (٢ ديسمبر) طلبت الحكومة الأميركية إلى الحكومة اليابانية أن تفسر الباعث على تعزيز قوتها المسلحة في الهند الصينية فوق الحدود المتفق عليها في الاتفاق المعقود مع فرنسا . على أن حدة الأزمة خفت قليلاً يوم ٤ ديسمبر عند ما أُذيع أن سابورو كوروسو ، وهو الرجل الذي أوفدته

الحكومة اليابانية خاصة لمشاركة الأميرال نومورا — السفير الياباني في واشنطن — في المباحثات الدائرة ، تلقى أمراً من طوكيو بالمضى في محادثاته مع روزفلت وهل « قصد الاتفاق » . ولكن تأثير هذا الخبر أبطله خبر آخر ، وهو صدور الأمر إلى المعهد الياباني والأندية اليابانية في نيويورك بإيصاد أبوابها . وروي أن الرئيس قال في حفلة عشاء : « ومن يدرى فمن الممكن أن يكون أبنائنا يحاربون دفاعاً عن المنشآت الأميركية عند ما يحين موعد عيد الشكر المقبل » . وكان يوما ٥ و ٦ ديسمبر يومى انتظار رد على مذكرة الرئيس روزفلت التى طلب فيها معلومات عن تحرك الجيوش اليابانية إلى الهند الصينية . وفى الوقت نفسه تلقت السفن التجارية الأميركية فى المحيط الهادى أمراً بالعودة الى أقرب مرفأ أميركى ، أو الى أقرب مرفأ تابع لدولة صديقة . وكانت السلطات الأميركية المسؤولة عن الدفاع عن الساحل الغربى متاهبة ، وظلت المصاييح مضيئة فى وزارتى الحربية والبحرية طوال الليل .

وفى ساعة متأخرة من ليل ٦ ديسمبر ، وصل الاميرال نومورا وسابورو كوروسو إلى وزارة الخارجية حاملين رد طوكيو الرسمى على مذكرة الرئيس روزفلت فأخذ الوزير يقرأها ، ولم ينبز قراءتها إلا بعد منتصف الليل ، وعندئذ التفت إلى اليابانيين وقال : « فى جميع محادثاتى معك ، يا أميرال ، خلال أشهر ، لم أنطق بكلمة كذب واحدة . ولكن ، فى كل حياتى العامة ، لم أر وثيقة أجمع للأكاذيب والأقوال المشوّهة من هذه الوثيقة ، حتى لأجدنى عاجزاً عن أن أتصور حكومة على سطح هذا السيار ، قادرة على التفوه بها » .

فوقف اليابانيان ، وظل هلّ جالساً فى مقعده بغير أن يمد يده لمصافحتهما ، ثم أخذ قبعته ، واتجه إلى البيت الأبيض . وفى تلك الدقيقة ، كانت القاذفات اليابانية على سطح حاملة طائرات يابانية ، تدفىء محرقاتها للهجوم على بيرل هاربور .

وفى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين سقطت القنابل الأولى ، وإذا الولايات المتحدة دولة محاربة .

فاتجهت الأنظار إلى فرنكلن دلانو روزفلت ، كما اتجهت إليه يوم ٤ مارس من سنة ١٩٣٣ عندما شُلت حياة الأمة الاقتصادية والمالية ، واثقة بأنه الرجل الذى لا يجزع في المُلمات . فلم يَحِبْ أملها عند ما سمعته يقول : « إننا الآن في هذه الحرب . ونحن فيها إلى مداها . كلُّ رجلٍ ، وكلُّ امرأة ، وكلُّ طفل ، شريكٌ في أعظم عمل واجهته هذه الأمة في تاريخها . وعلينا أن نشارك بعضنا بعضاً الأنباء السارة والأنباء السيئة على السواء . والأنباء إلى الآن كانت جميعها سيئة . والحكومة تضع ثقتها في قدرة هذه الأمة على مصابرة أعدائها . . . إننا سنربح هذه الحرب ، وسنربح كذلك ، السلام الذى يليها »

وقد انقضت سنة — عند كتابة هذه السطور — على قول روزفلت « سنربح الحرب » فما هو سجله ، وسجلُ حكومته وأُمته خلالها ؟ نعم إن تاريخ الحرب ليست المهمة الأولى التى اتخذها مؤلف هذا الكتاب على عاتقه ، ولكن أهم حوادثها خلال سنة ١٩٤٢ لا ينفصل عن قيادة روزفلت الحازمة الرشيدة للأمة الأمريكية . ولعلَّ خير تلخيص لهذه الحوادث مُنطَو في رسالته التى وجهها إلى مجلسى الكونغرس الأمريكى بعيد ظهر السابع من يناير سنة ١٩٤٣ . قال :

« إن أهمَّ وجوه التطوُّر الحربى في سنة ١٩٤٢ كانت حوادث الميادين الشاسعة في روسيا . فأولاً الدفاع المجيد عن ستالينجراد . وثانياً هجوم الجيوش الروسية في مواقع مختلفة ، وقد بدأ في نوفمبر ، وما فتئ مندفعاً إلى الأمام في قوَّة عظيمة ونجاح . أما الحوادث الأخرى الكبيرة خلال السنة الماضية فكانت : سلسلة انتصارات اليابانيين في الفلبين وجزائر الهند الشرقية ومالاي وبورما . وصدَّ اليابانيين في وسط المحيط الهادى وفي جنوبية وفي المحيط الهندى . والدفاع الموفق عن الشرق الأوسط بالهجوم البريطانى في مصر ولوبيا ، والاحتلال الأمريكى البريطانى لشمالي أفريقيا . ومن الأعمال الحربية التى لها شأن خطير مستمرٌّ ، المعارك الدامية المستمرة

في سبيل طُرُق القوافل ، وانتقال التفوق الجوي انتقالاً متدرجاً من المحور إلى الدول المتحدة .

« إن دول المحور كانت تعلم أن عليها أن تكسب الحرب في سنة ١٩٤٢ أو أن تخسر كل شيء بعد ذلك . ولا أراني في حاجة إلى أن أنبئكم بأن أعداءنا لم يكسبوا الحرب في سنة ١٩٤٢

« ففي منطقة المحيط الهادى ، كان أكبر انتصار أحرزناه في سنة ١٩٤٢ انتصارنا في المعركة الجوية البحرية قرب جزيرة مدواى . وهذه المعركة ذات شأن تاريخى خطير ، لأنها أمنت استعمالنا لخطوط مواصلات تمتدُّ ألوفاً من الأميال في كل جهة . وإذا أنا أسندت هذا الشأن الخطير إلى معركة مدواى ، فإننى لست مغفلاً المعارك الموفقة الأخرى التى نشبت في المحيط الهادى في الجوِّ والبحر وعلى اليابسة ، وبوجه خاص معارك بحر المرجان وغينية الجديدة وجزائر سليمان . ولكن هذه المعارك كانت دفاعية على الأكثر ، أى أنها كانت أجزاء من خطة حربية غرضها صدُّ العدو وتأخيرها وهى الصفة التى غلبت على هذه المرحلة من الحرب .

« ففي هذه الفترة أنزلنا بالعدو خسارة مطردة — خسارة فادحة في الطائرات وسفن الحرب وسفن النقل والشحن .

« فمن سنة اتفق الرأى على أن مهمتنا الأولى في الحرب في المحيط الهادى ، هى أن ندمر ، يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، من الأسلحة ومواد الحرب اليابانية ما تعجز الصناعة اليابانية عن تعويضه . ومما لا ريب فيه أن سفننا الحربية وطائراتنا نهضت بهذه المهمة على أوفى وجه . وجانب كبير منها تولاه الرجال البُسَل الذين يعمرن غواصاتنا ، فقد كانوا يضربون السفن اليابانية في الجانب الآخر من المحيط حتى مدخل مرفأ يوكوهاما نفسه .

« وإنا لنعلم أن قوّة اليابان في السفن والطائرات ، تنقص يوماً بعد يوم ، وأن

قوّتنا في السفن والطائرات تزداد يوماً بعد يوم . ففي وسعنا أن نضع النتيجة النهائية على أساس رياضي . وسيتجلى هذا للشعب الياباني نفسه عند ما نقذف جزائرهم قذفاً مستمرّاً من الجو .

« وفي هجومنا على اليابان سيشارك معنا الشعب الصيني الباسل ، وهو شعبٌ بين مثله السامية العليا ومثلنا شبه عظيم . ونحن اليوم ننقل بالطائرات إلى الصين من مواد الحرب — بحكم قانون الإقراض والتأجير — مقادير تماثل ما كان يُنقل بطريق بورما . وهو ينقل فوق جبال ارتفاعها سبعة عشر ألف قدم ، وفي عواصف وأعاصير من الصقيع والجمد . وسنتغلب على جميع المشاق في سبيل نقل العتاد الحربي إلى الصين ، اللازم لسحق قوّة عدوّنا المشترك ، وعندئذ تستطيع الصين أن تخرج من هذه الحرب وقد حققت السلامة والرخاء والكرامة التي سعت اليابان إلى القضاء عليها بغير شفقة .

« إن فترة الدفاع المرهق لقوّة اليابان في المحيط الهادي قد أوشكت أن تنتهي . وغرضنا الآن أن نقسر اليابان على المناجزة . ففي السنة الماضية صددنا اليابانيين . ونيتنا في هذه السنة أن نتقدم .

« أما في ميدان الحرب الأوروبي ، فقد كان واضحاً أن مهمتنا الأولى خلال السنة الماضية ، أن نرفع بعض العبء العظيم الواقع على كاهل روسيا بحمل ألمانيا على تحويل جانب من قوّتها في الرجال والسلاح إلى ميدان حربي آخر .

« وبعد انقضاء أشهر من التنظيم والتأهب في الخفاء ، أقلعت حملة برّية بحرية كبيرة إلى شمالي أفريقيا الفرنسية من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة (بريطانيا) في مئات من السفن . وقد بلغت أهدافها ولم تُصب إلا بخسارة يسيرة جدّاً ، وقد كان لها حتى الآن أثر عظيم في الحالة الحربية العامة . فقد كشفت — على حدّ قول المستر تشرشل — « بطن الحور الأسفل » للهجوم ، وأزالت الخطر المائل أبداً

الناشيء عن هجوم المحور من غربي أفريقيا على المحيط الأطلسي الجنوبي وقارة أميركا الجنوبية نفسها .

« أما هجوم الجيش الثامن في مصر ، وهو الهجوم الذي أحكم توقيته ، وبهر تنفيذه ، فيجب أن يُعدَّ جزءاً من الخطة الحربية الكبيرة التي وضعتها الدول المتحدة .

« وقد حال المطر الهطول والوحل وقلة أسباب المواصلات دون نشوب المعارك النهائية في تونس حتى الآن . والمحور يعزّز مواقعه هناك . ولكنني واثقٌ بأنه على رغم شدة القتال المنتظر عند ما نهجم هجومنا الأخير ، ستطرد بقية قوة المحور من السواحل الجنوبية للبحر المتوسط .

« إن كل مراجعة لسنة ١٩٤٢ يجب أن تشمل أعظم الأعمال الحربية التي اشتركت فيها هذه الأمة ، وتعدّد وجوهها . فالقوات الأميركية التي خارج القارة الأميركية الآن ، وأنا أخاطبكم ، تبلغ مليوناً ونصف مليون من الجنود والبحارة والطيارين . وبمخّارة أسطولنا التجاري ينقلون السلاح والعتاد إلى حلفائنا سالكين جميع البحار .

« ويندر بين الأميركيين من يدرك النموّ الباهر في قوّتنا الجوية ، ولكنني واثقٌ بأن عدوّنا يعلم ذلك . فقوّاتنا الجوية تُغيّر يوماً بعد يوم على العدو ، وتقاتله في شتى ساحات الحرب العالمية . وليعلم كلٌّ من ساوره شكٌّ في إتقان طائرتنا وقُدرة طيارينا ، أننا نكبّد العدوّ خسارة طائرتين مقابل كل طائرة نخسرّها ، وأن خسارة العدوّ في المحيط الهادي وجنوبيه الغربي تبلغ أربع طائرات مقابل كل طائرة نخسرّها .

« قبل سنةٍ عينا أهدافاً لإنتاجنا الحربي خلال سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٣ فذهب الظنُّ ببعض الناس ، ومنهم خبراء ، إلى أننا استخرجنا من قبعةٍ (كما يفعل

الحواة) أرقاماً كبيرة لتهوّل بها على المحور . ولكننا كنا واثقين بقدرة شعبنا على الفوز بنتائج لا تُجَارَى . وقد كانت ثقتنا في محلّها .

« وكان من الطبيعي أن يطرأ بعض التغيير على هذه الأهداف فيزاد بعضها ، ويخفّض بعضها ، ويُحذف بعض آخر ، ويحلّ محله أهداف جديدة . ولم يكن مفرّاً من هذا ، وفقاً لما تسفر عنه التجارب في الميادين ، ولارتقاء العلم والصناعة .

» نعم إن ما صنعناه في سنة ١٩٤٢ من الطائرات والدبابات كان أقل عدداً من الأهداف التي رسمناها في أول السنة . ومع ذلك ، هناك أسباب كثيرة تحملنا على الفخار بما صنعنا . فقد صنعنا ٤٨ ألف طائرة حربية ، وهذا يفوق ما صنّع من الطائرات في ألمانيا وإيطاليا واليابان مجتمعة . وفي ديسمبر الماضي (١٩٤٢) صنعنا خمسة آلاف وخمسمائة طائرة حربية ، والمعدل يزداد ازدياداً سريعاً . ويضاف إلى ما تقدم أن الطائرات التي نصنعها تطرد زيادة على المعدل ، في وزنها وقوتها وعدد ساعات العمل اللازمة لصنعها .

» وقد عدلنا برنامج إنتاج الدبابات لأسباب كافية . فتجارب القتال قد حملتنا على تحويل جانب من قدرتنا على إنتاج الدبابات إلى زيادة ما نصنعه من أسلحة الميدان ولاسيما المدافع السيارة .

» وإليك بعض أرقام الإنتاج الحربي غير تقدم :

» صنعنا في سنة ١٩٤٢ ستة وخمسين ألف (٥٦.٠٠٠) مركبة قتال مثل الدبابات والمدافع السيارة . وصنعنا ٦٧.٠٠٠ مدفع رشاش ، وهو يفوق ما صنعناه من المدافع الرشاشة في سنة ١٩٤١ ستة أضعاف ، ويفوق ما صنعناه منها في خلال ثمانية عشر شهراً ، وهي مدة اشتراكنا في الحرب العالمية الأولى ، ثلاثة أضعاف . وصنعنا ٢٠ ألف مدفع مضاد للدبابات ، وهو يفوق ستة أضعاف ما صنعناه منها في سنة ١٩٤١ . وصنعنا عشرة بلايين وربع بليون قذيفة نارية للأسلحة الصغيرة ، وهو خمسة

أضعاف ما صنعناه منها في سنة ونصف سنة خلال الحرب العالمية الأولى . وصنعنا ١٨١ مليون قنبلة للمدافع ، وهو يفوق ما صنعناه منها سنة ١٩٤١ اثني عشر ضعفاً ، وما صنعناه منها في الحرب العالمية الأولى عشرة أضعاف .

« إن ترسانة الديمقراطية أثبتت وجودها .

« ويخيل إلى أن هتلر وتوجو سيشق عليهما أن يفسرا للشعبين الألماني والياباني ، كيف تستطيع الديمقراطيات « المنحطة الخائرة القوى » أن تصنع هذه المقادير الهائلة من السلاح والعتاد والمقاتلين »^(١)

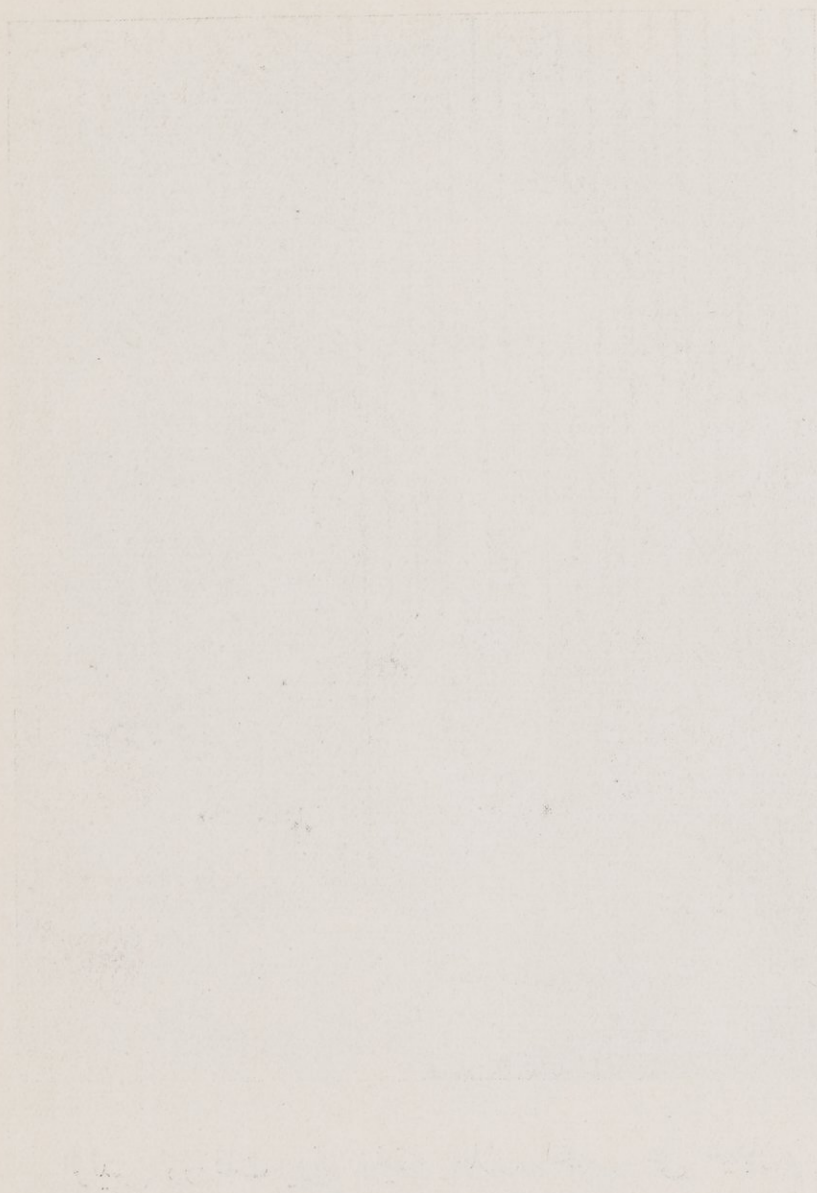
في خلال يوم واحد من أيام شهر مارس سنة ١٩٣٣ حدث حادثان كان لهما أعظم شأن في التاريخ الحديث . فبعيد ظهر الرابع من شهر مارس في تلك السنة نصّب فرنكان دLANO روزفلت رئيساً للولايات المتحدة . وقبل منتصف ليل الخامس من ذلك الشهر أقرّ الريخستاج « قانون التمكين » Enabling Act الذي وضع في يدي المستشار أدولف هتلر زمام السلطان المطلق في ألمانيا . وانقضت ثمانى سنوات ، فإذا الرجلان يقابل أحدهما الآخر ، وكل منهما رمز لطريقة من الحياة والاجتماع . ولكن الطريقتين متناقضتان والعالم لا يتسع لكليهما معاً .

لم يكن في وسع أحد أن يتبين في سنة ١٩٣٣ هذه الصلة بين الرجلين . ولكن ينذر الآن من لا يرى أنه لا بد لأحدهما من أن يقهر الآخر . وقد قال هتلر في إحدى خطبه إن نتيجة الصراع بين النظامين ستقرر مصير العالم مدى ألف سنة من الزمان ، والغالب أنه لم يغال فيما قال

(١) اعترف روزفلت في مؤتمره الصحفي بعيد تلاوة الرسالة بأنه نسي الإشارة إلى ما أنجزته دور الصنعة الأميركية من سفن النقل في سنة ١٩٤٢ وأن حمولتها ثمانية ملايين وتسعون ألفاً من الأطنان . وهذا عدا ما صنع من سفن الحرب .

وإذا كنا قد اخترنا روزفلت ممثلاً لطريقة الحياة التي تؤثرها الشعوب الديمقراطية ، فليس سبب ذلك أنه أراد أن يكون هذا الممثل ، ولا لأنه يفوق غيره من زعماء هذه الشعوب . فالرجل الذي أنقذ بريطانيا في ساعة الخطر والبلوى ، متصف في ذهنه وخلقه بصفات ، تؤهله للصدارة ، ولا يجوز وضعه في مكان دونها . ولكن الموارد التي من وراء روزفلت هي التي تضعه في المقام الأول . فليس في متناول تشرشل خمسة وعشرون مليوناً من الرجال في سن الخدمة العسكرية . ولا دخل قومي سنوى يبلغ مائة ألف مليون من الريالات أو أكثر . ولا صناعة تقرب من صناعة الولايات المتحدة في اتساع نطاقها ومدى انتاجها . ولا ثلاثمائة وتسعة وخمسون مليوناً من الأفدنة المنزرعة . فالاحتياطي الأكبر والأخير الذي تعتمد عليه الشعوب الحرة إنما هو موارد الولايات المتحدة ، وفرنكلن روزفلت هو رئيس جمهوريتها وقائدها العام

ثم هناك صفة أخرى تجعل روزفلت القطب البارز في صفوف الشعوب الديمقراطية . إنه يشارك هتلر في الصفة التي جعلت هتلر قوياً عزيزاً . ذلك بأن اسمه مرادف في أذهان الجماهير للأسلوب الحيّ الفعّال ، دون الأسلوب الجامد المستقرّ ، في نظم الحكم . أن تشرشل محافظ . وهذا لا يعنى أنه أضعف إيماناً بالحرية الإنسانية وأوهى قوة في النضال والكفاح لصونها . ولكنه يعنى أن همه الأكبر كان دائماً الاحتفاظ بخير ما ورثناه من الماضي . يقابل هذا أن الثورة على مساوىء الماضي ، بصرف النظر عما فيه من خير ، هي التي رفعت هتلر في ألمانيا وروزفلت في الولايات المتحدة إلى مقام السلطان . والجماهير التي ثارت لا تقرن انتصار روزفلت في هذا النضال العالمى بالعودة إلى الحالة السابقة (والواقع الذي لا بدّ من الاعتراف به هو أن ظفر تشرشل لا يعنى هذه العودة لأن الحالة القديمة قد انهارت وليس بعشاً بالمستطاع) . ولكن روزفلت مشهورٌ بأنه لا يرغب في بعث من هذا القبيل ،





الرئيس روزفلت يوقع وثيقة إعلان الحرب على اليابان

والعالم قاطبة يدرك هذا . ولذلك لا يستطيع أحد أن يدمغ حركة يتولى قيادتها ،
بأنها حركة رجعية

وإذا كان في شؤون الناس شيء يوثق به ، فهو أن روزفلت لم يتصور عند ما
انتخب سنة ١٩٣٢ ونصب سنة ١٩٣٣ ، الحالة التي يتولى فيها هذه الزعامة العالمية .
نعم كان قد أعد خططاً لأمتة واسعة النطاق بعيدة المرامي . ولكن السلام لا بد منه
لتحقيق خطط من هذا القبيل ، لأن مدارها وغرضها الملاءمة بين النظام الاقتصادي
القائم وحاجة الشعب . وهذا عمل لا تنجزه المدافع ولا الدبابات ولا طائرات القتال
وهذا القول لا يعني أن روزفلت لم يدرك خطر نشوب حرب — قد تكون
عالمية — قبل عشر سنوات . فهو رجل متقد الذهن واسع الاطلاع ، وكل من
كان فوق المتوسط من رجال الفكر والعمل ، كان يدرك احتمال نشوب الحرب .
ولكن الرئيس كالكثره الأميركية ، كان يأبى أن يأخذ بالحرب أداة للسياسة القومية .
فقد كان يعي احتمالها ، ولكنه كان يعدّها شيئاً يجب اجتنابه ، لا فرصة يجب
اغتنامها والتأهب لذلك

ومن المرجح أن هتلر نفسه لم ينو أن يواجه روزفلت في الحالة التي يواجهه فيها
الآن . والغالب أن هتلر كان مقتنعاً بأنه يستطيع هزم بريطانيا ، بالأسلحة
السيكولوجية ، ثم يواجه روزفلت ، أو من يكون رئيساً للولايات المتحدة ، وقد
اجتمعت قوة أوربا بين يديه . لأن القضاء على الحكومة الشعبية الحرة في الولايات
المتحدة أمر لا مفرّ منه لتحقيق كل خطة غرضها السيادة العالمية ، والمرجح أن ذلك
كان قائماً في ذهن هتلر منذ الساعة الأولى

ومع ذلك كان موقف أحد الرجلين في مارس سنة ١٩٣٣ ممثالاً لموقف الآخر .
كلاهما ارتقى على موجة من البرم بالحالة القائمة ، وكلاهما تسلم زمام دولة كانت من
الوجهة الاقتصادية على شفا الانهيار ، ومن الوجهة الاجتماعية في حالة اضطراب . وكلاهما

واجه مشكلة كبيرة معقدة وهى تدبير عمل لملايين من المتعطلين عن العمل و بث روح الحياة والإقدام فى شعب تطرقت اليه معانى التراخى والقنوط . وفى الحالين لم يكن الشعب الاميركى ولا الشعب الألمانى مسيراً بالحاسنة للزعيم الجديد قدر ما هو مسير بالبرم بالحالة القائمة . ولذلك منح كل منهما سلطة مطلقة لتدبير الحال

☆☆☆

إن حق الشيخ أو الملك فى الفوز بولاء القبيلة أو الشعب له ، كان قائماً فى جميع عصور التاريخ على قدرته على حماية رعيته وتجنبيها أخطاراً لا تستطيع أن تتجنبها وحدها . فالطبيعة البشرية لم تتغير على كثر القرون . ولكن ما تغير إنما هو العدو الذى يراد اجتناب خطره . إن خوف الناس قديماً من لصوص مسلحين بأسلحة تُرى وتخشى ، قد تحول فى العصر الحديث ، ولا سيما بعد الثورة الصناعية ، خوفاً من نظم اقتصادية تخشى أساليبها وإن كانت لا ترى . فالموت جوعاً لا يزال الموت جوعاً ، سواء أبالسلب والنهب كان الجوع ، أم بالانهيار الاقتصادى والتعطل عن العمل . والحكومة التى تعجز عن منع الجوع الناشئ عن الاضطراب والانهيار والأزمات الاقتصادية ، هى حكومة لا تستطيع أن تفوز بثقة الشعب وولائه

نعم إن الحكومة ليست ملزمة أن تدبر لكل رجل رزقه ، ولكنها مدينة له بحماية حياته . وهى تعترف ضمناً بهذا الدين عند ما تطلب منه وتتوقع ولاءه لها وتأييده إياها . ولم تنكر حكومة ما هذا الاعتراف . وتاريخ البشر يدل على أن الناس ينطلقون من قيود الولاء للحكومة ما عند ما تعجز هذه الحكومة عن صون حياة الناس . وفى سنة ١٩٣٣ كان فى الولايات المتحدة وألمانيا ملايين من الناس مهددين بالعوز والفاقة لأن الحكومة كانت لا تقدر أو لا تجرؤ على حمايتهم من قوى اقتصادية تطفئ عليهم ، فبدرت بوادى التمرد على الحكومة والنظام القائم فى البلدين . ولم يكن هذا شيئاً جديداً فى تاريخ الاجتماع لا سابقة له . بل كان شيئاً طبيعياً وله سوابق كثيرة

ومع ذلك كان ينطوى على خطر ، لأن الشعب إذا ثار وكان بغير قيادة ترشده أو توجهه سواء السبيل ، أو كانت قيادته لا تقيم وزناً للحقائق الانسانية العليا ، ولا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، بين الوطنية والخيانة ، بين الاحسان والجشع ، فعندئذ قد تطفئ الحركة الشعبية النابعة من قرارة الحياة نفسها ، فيتعذر صدها أو توجيهها . ولا توجه سواء السبيل ، إلا إذا كان المرشد الجديد ، سياسياً حكيماً

ولعل أعظم ظفر أسفرت عنه عبقرية الشعب الأميركي في الحكم الذاتي ، هو أن الشعب التفت في الأزمة التي أناخت عليه ، في العقد الرابع من هذا القرن ، إلى رجل من صميم الحياة الأميركية ، مشبع بروحها ، مؤمن بتقاليدها . أما الشعب الألماني فالتفت إلى أجنبي ، قليلاً ما يعرف عن عظمة ألمانيا الحقيقية ، وما يعرفه عنها مردول عنده ومحتر . ولعل الألمان كانوا أقرب إلى المنطق من الأميركيين ، لأنه ما دام النظام القديم قد انهار ، فالمنطق يقضى بأن يكون الرجل الذي يرشد إلى النظام الجديد ، بعيداً أبعد البعد عن النظام القديم . ومع أن النظام القديم في أميركا كان قد اختلّ وسقطت هيئته ، أصغى الشعب الأميركي إلى صوت القائد الجديد وهو يقول : إن قواعد النظام سليمة ، وتطبيقها تطبيقاً فعالاً مستطاع إذا عمدنا إلى أساليب جديدة

وما إن تقلد الرجلان زمام الحكم حتى بدأ طريق أحدهما ينفرج عن طريق الآخر . ولعل الفرق الأساسي في فلسفتهم السياسية ، هو أن روزفلت يذهب إلى أن الخراب الذي كانت تحيط به أنقاضه مرده إلى الغباوة . بينما هتلر يقول إن مرده إلى الجريمة . فروزفلت كان يعتقد أن الثروة في أميركا بدّرت فضاعت ، وهتلر كان يعتقد أن الثروة في ألمانيا قد نهبت . فلذلك كان « الإنعاش » غرض الأول ، و « الاسترداد بالقوة » غرض الثاني . فقال الأول لشعبه « لننتج » . وقال الثاني لشعبه « لنأخذ »

ولكنهما اتفقا على أن قداسة الملكية الفردية ليست مطلقة مقدسة في ذاتها ، بل هي قائمة على سلامة الأمة . ولذلك لم يحجم أحدهما عن إنفاق مبالغ طائلة في سبيل توطيد سلامة الأمة . فلم تجيء سنة ١٩٣٩ حتى كان روزفلت قد أنفق أربعين الف مليون ريال ، علاوة على نفقات الحكومة والإدارة العادية . أما هتلر فقد أنفق مبالغاً ليس في الوسع معرفته على وجه التحقيق ، لأن الحكومة الألمانية النازية لا تقدم حساباً عن نفقاتها ، ولكن يُظن أنه يبلغ تسعين الف مليون ريال

أما روزفلت فقد أنفق معظم هذا المال على الطرق والجسور والسدود ومحطات توليد الطاقة الكهربائية ونزع البطائح وتحريج الأراضي البور . وأما هتلر فأنفق معظم المال على السلاح . وقد كان الفرق بين وجهي الإنفاق ، نتيجة طبيعية للفرق الأساسي بين أغراض الرجلين . فروزفلت غرضه بسط رواق الرخاء الذي انهدم أو تداعى ، فتوسل إلى ذلك بإنشاء الأسباب التي تلد الثروة . وهتلر غرضه بسط رواق الرخاء بنزع الثروة من الدول الأخرى . ولو أن حكيماً عالماً بالغيب تصوّر ما يكون مصير العالم بعد ثمانى سنوات ، لكان أشار على روزفلت بأن ينفق هذا المال على صنع السلاح !

وليس ثمة ريب في أن هتلر ، بعد ما تمادى في طريقته ، فرضها على سائر العالم . فليس في وسع أمة ، في العالم الحديث ، أن تنفق جانباً كبيراً من نشاطها ومعظم ثروتها في سبيل تحقيق خطط السلام ، بينما تبذل دولة كبيرة أخرى كل ذرة من نشاطها في التأهب للحرب

والرأى الغالب بين جماعات كثيرة من الناس أن ما صنعه روزفلت دليل على ضعف أصيل في النظام الديمقراطي . ولكننا لا نرى أين هو هذا الضعف . إنه في الواقع ضعف كل أمة على الإطلاق ، سواء أدمقراطية كانت أم غير ديمقراطية ،

إذا كانت القاعدة التي تقيم عليها صرح اجتماعها هي قاعدة السعى إلى تحقيق الحياة الوافرة لكل فرد من أفراد الشعب . فالسلام لا بد منه لتوفير العيش الرخى وقدر معقول من الحرية في نطاق القانون ، يتيجان للمرء أن يتمتع بما وصفه روزفلت في إحدى خطبه « بالحريات الأربع »

والدولة التي قاعدتها هذه الرغبة لا تستطيع ولا يجوز لها ، أن تخفض مستوى العيش ، وتنكر على الناس حرية الاجتماع والرأى والعقيدة ، وتجعلهم أصفاراً في حساب الإنسانية ، لكي تكسب السلاح بقصد استعباد الأمم الأخرى

ويذهب فريق من الناس إلى أن هتلر كان في طريقة إنفاقه المال رجلاً آخذاً بأسباب الواقع ، وروزفلت رجلاً متعلقاً بأهداب الوهم والخيال والنزعة الكمالية . فالذين يرون هذا الرأى ، هم دعاة الهزيمة الخلقية في نضال البشر . وقولهم هذا يصح أن يؤخذ حجة عليهم بأنهم نزلوا عن كل مبدأ من مبادئ الفلسفة السياسية الأميركية التي من أجلها قامت حرب الاستقلال وعلى أساسها وضعت نصوص الدستور وفي سبيل صونها نشبت الحرب الأهلية وخاضت أميركا الحرب العالمية الأولى

لأنه إذا كان الناس لا يؤمنون بأنه في وسعهم الآن وفي المستقبل أن يدبروا شؤونهم تدبيراً قائماً على الفهم وخدمة المصلحة العامة — مهما يكن ذلك على وجهه الأكل بعيد المنال — فقد انهارت مبادئ الدستور وهي في صميمها ضمان « حق الحياة والحرية ونشدان السعادة »

وليس في منطق الاجتماع البشرى ما يجعل هذا مستحيلاً . نعم قد تكون الغرائز الوحشية متغلبة على تركيبنا العقلى والأدبى ، وقد يكون الغباء ملازماً للجماعات الانسانية الكبيرة ، وقد تعوزنا دائماً القدرة على الحكم الذاتى ، ولكن قواعد الدستور الأميركي ، وسائر الدساتير الديمقراطية الحديثة ، تنكر هذا العجز ، وكل من يتولى منصباً في دولة ديمقراطية يجب أن يكون مؤمناً بأن الحكم الذاتى ممكن ، وأن الحرية

مثل عال بعيد ولكن الاقتراب منه مستطاع ، وأن رفع المستوى الثقافى للجماهير رفعاً مستمراً فى المتناول ، وأن فى قدرة الناس أن يدنوا ، مهما تطل الطريق وتتوعر ، من العدل فى المجتمع

وإذن فعلى رئيس دولة تسلم بهذه المبادئ ، كرئيس الجمهورية الأمريكية ، أن يبنى سياسته عليها وينسج ثوبها من خيوطها . وإذا بنى سياسته على قواعد مناقضة لهذه القواعد ، فقد أنكر التراث الإنسانى العالى ، ولاريب فى أنه يلقى من مقاومة شعبه ، ما يرده أو يسقطه . ولكن إذا واجهت الأمة الديمقراطية خطراً أصيلاً يهدد كيانها من قبل دولة لا تسلم إلا بالقوة والبطش وتبنى سياستها عليهما ، فعليها حينئذٍ أن تعبى كل قوتها للدفاع عن كيانها

وليس ثمة ريب فى أن روزفلت استشفّ فى سنة ١٩٣٣ احتمال نشوب حرب ولو وجه كل نشاط أميركا إلى التأهب لحرب لم يكن فى وسع الشعب أن يرى احتمالها حينئذٍ ، لما كان أميركياً صمياً ، ولربما — وهو المرجح — عجز عن الفوز بموافقة ممثلى الشعب

وعلى كل حال فالיום الذى اعتدى فيه هتلر على بولندا ، كان حاسماً . فالمسألة التى واجهت الشعب الأمريكى يومها ، لم تكن طريقة روزفلت فى إصلاح النظام الاقتصادى والاجتماعى ، بل المحافظة على الكيان . ذلك بأن خطر الهمجية أصبح مكتوباً فى عرض الفضاء الدولى بحروف كبار . وكان لابد من ذلك اليوم أن يحشد روزفلت فكر الأمة الأمريكية ونشاطها ومالها ، لتعزيز أسباب الدفاع الوطنى . فالتوزيع الجديد خطة تطبق أو يحاول تطبيقها فى أثناء السلام . وهى مثار خلاف عنيف بين الأحزاب والطبقات . والشغل الشاغل للأذهان الآن هو الحرب والدفاع القومى ، وهو فوق الأحزاب والطبقات ، وقد اعترف روزفلت حالاً بهذه الحقيقة

عندما عين — وهو زعيم الحزب الديمقراطي — قطبين من أقطاب الحزب الجمهوري لوزارتي الحربية (هنرى ستمسون) والبحرية (فرنك نوكس) وكذلك رشح للمكتب المشرف على الانتاج الحربى رجالاً لم يكونوا من أنصار التوزيع الجديد بل ولم يكونوا من الديمقراطيين

وقد كسب هتلر الشوط الأول فى هذا النضال ضد خصمه ، أى أنه اضطر خصمه إلى الأخذ ببعض الأساليب الحكومية التى ما فتىء هتلر يطبقها — ولكن بغير هوادة. وحمله على تغيير سيره واتباع المانيا ، أى تحويل نشاط أميركا الفكرى والاقتصادى والعاطفى من السعى وراء تحقيق أغراض السلام إلى السعى وراء انشاء قوة عسكرية لا تضاهى .

وقد يحمل التشاؤم بعضهم على القول بأن روزفلت لم يخسر شوطاً واحداً لاغير ، بل خسر معركة كبيرة . وعندهم أن إنفاق أربعين ألف مليون من الدولارات فى السبل التى أنفقتها فيها ، أضعف الأمة الأمريكية ، ولو أنفقت فى سبيل الحرب لكانت أميركا الآن أعزّ يداً مما هى فى هذا النضال العالمى الرهيب

إن هذا القول يتجاهل ثلاث حقائق : أولاً — ان الأمم الديمقراطية بطبيعة مبادئها ونظرتها وطريقتها فى الحياة لا تستطيع أن تفرض الحرب وتتأهب لها قبل أن يتلبد جو حياتها بغيوم أخطارها ، وثانياً — إن كثرة الشعب الأمريكى ، وافقت مرتين ، مرة سنة ١٩٣٦ ومرة سنة ١٩٤٠ على سياسة روزفلت واتجاهها . وثالثاً — إذا كان القضاء على قوة هتلر المسلحة التى تهدد الكيان الذى تمثله أميركا والأغراض التى تسعى إلى تحقيقها ، أمراً لازماً فالزم منه القضاء على الأفكار والمبادئ التى من وراء قوة هتلر المسلحة ، إذا شئنا أن يتمتع العالم بالسلام عهداً ما . وروزفلت بأسلوبه فى « التوزيع الجديد » حمل كثرة الأميركيين على الاعتقاد ، بأن النظام الديمقراطى يمكن تطبيقه تطبيقاً يقي الرجل المتوسط — سواء أصبح هذا الاعتقاد أم لم يصح — .

وهذا الاعتقاد هو خير واق للشعب من خطر العدوى ، بقول مَنْ يقول إن حياة الشعوب لا تستقيم إلا على أساس «سلطان الزعيم» ومبدأ «عنصر الأسياد» و«حماية الدم» وغيرها من الآراء الفجة التي أغدقتها المانيا على العالم في السنوات الأخيرة إن الملايين الكثيرة التي أيدت روزفلت في الانتخابات المتوالية ، قد يخيب أملها في ما تعلقه بالديمقراطية الأميركية ومستقبلها الاجتماعي والاقتصادي من رجاء . ولكن سياسة الإصلاح التي درج عليها روزفلت في السنوات الست الأولى من رئاسته أنعشت رجاءها وعززت إيمانها بهذا النظام . فهي ، والرجاء يحدوها ، ينبض فيها كل عرق للدفاع عنه . وعلى ذلك يصح أن نقول إن السنوات الست التي أنفق فيها روزفلت ألوف الملايين من الدولارات لبناء الجسور بدلاً من صنع المدافع ، والمدارس ومحطات توليد الطاقة بدلاً من الطائرات والبوارج — كانت سنوات تسليح — ولكنه تسليح أدبي ، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن نجد ملايين كثيرة لا تعتقد أن في أميركا نظاماً وحكومة ، يستحقان سفك الدماء لحفظهما

قد يتعذر على الباحث الآن أن يصف العالم المرتجى بعد ظفر الدول المتحدة . ولكن لا يتعذر عليه أن يشير إلى قواعده كما يريد لها روزفلت أن تكون . أما هل تحقق برمتها ، أو يحقق بعضها ولا يحقق البعض الآخر ، أو لا تحقق مطلقاً ، ففي طي الغيب . على أن الأمر الذي لا ريب فيه ، هو أن روزفلت وضع قواعد خليفة بأن يتكاتف أقطاب الشعوب على تحقيقها . وهذه القواعد تفيض من ينبوع قلبه وفكره معاً ، وتستند إلى منطق حياته السياسية ولا سيما في الخمس عشرة سنة الأخيرة . ثم إنه عهد إلى هيئات من رجال العلم والاقتصاد والاجتماع والسياسة ، في بحث هذه القواعد بحثاً مفصلاً وإعداد الخطط العملية لتطبيقها . وهذا البحث ليس مقتصرًا على أقطاب الأميركيين ، بل يساوقه ويجاريه ويتصل به بحث يتولاه أقطاب بريطانيا ، في نطاق المبادئ العامة المسلم بها على جانبي المحيط الأطلسي .

في الرسالة التي وجهها روزفلت إلى مجلسي الكونغرس يوم ٦ يناير ١٩٤١ قال :
« لنقلُ للأمم الديمقراطية ، إن اهتمامنا بدفاعكم عن الحرية اهتمام حيوى . وإننا
نعبيء قوتنا ومواردنا وقدرتنا على التنظيم لتعزيز قدرتكم على تحرير العالم ، والاحتفاظ
به حرّاً . وسنرسل إليكم ، في أعداد مطردة زيادةً ، سفناً وطائرات ودبابات ومدافع .
هذا هو قصدنا ، وهذا هو عهدنا .

« وفي تحقيق هذا القصد ، لن يرهبننا تهديد الطغاة ، بأنهم سيعدّون معوتتنا
للمدعراطيات التي تجرّو على مقاومة الاعتداء ، انتهاكاً للقانون الدولي وعملاً حربياً .
إن هذه المعونة ليست عملاً حربياً ، حتى ولو أعلن الطاغى ، من جانبه وحده ،
أنها كذلك .

« وعند ما تقتضى الحالة من الطغاة ، أن يشنّوا حرباً علينا ، فإنهم لن ينتظروا
عملاً حربياً من جانبنا . إنهم لم ينتظروا عملاً من هذا القبيل من جانب النرويج أو
بلجيكا أو هولندا .

« وفي الأيام المقبلة ، التي ننوى أن نحيطها بكل ضمان ، نتوقع أن يقوم العالم
على أربع حريات إنسانية أساسية :

أولاً — حرية الكلام والتعبير — في كل بقعة من بقاع الأرض .

ثانياً — حرية كل امرئ في عبادة الله على طريقته الخاصة — في كل بقعة من
بقاع الأرض .

ثالثاً — التحرّر من ربقة العوز ، وهو إذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان
معناه عقد اتفاقات اقتصادية تضمن لأبناء كل أمة عيشةً راضية — في كل بقعة
من بقاع الأرض .

رابعاً — التحرّر من الخوف ، وهو إذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان
معناه خفض السلاح خفضاً عالمياً واسع النطاق حتى يستحيل على أمة ما أن تعتدى
على جارة لها — في كل بقعة من بقاع الأرض .

وختم رسالته بقوله :

« إن هذه الأمة قد وضعت مصيرها في أيدي الملايين من رجالها ونساءها الأحرار وفي عقولهم وقلوبهم ، وفي إيمانها بالحرية وإرشاد الله . إن الحرية تعني سلطان الحقوق الانسانية في كل مكان . فتأييدنا مبذول لأئلك الذين يكافحون في سبيل كسب هذه الحقوق والحفاظة عليها . وإن قوتنا في وحدة قصدنا . ولا سبيل إلى تحقيق هذا المقصد العالى إلا الظفر » .

وفي أوائل أغسطس من سنة ١٩٤١ سرى تسال ملح في دوائر بريطانيا والولايات المتحدة : أين روزقلت ؟ أين تشرشل ؟ أما الأول فقيل إنه ذهب في رحلة قصيرة للصيد ، على سواحل الولايات الشمالية الغربية (نيوانجلاند) . ولكن الصحفيين لم يصحبوه في هذه الرحلة ، وقد جرت العادة بأن يصحبوه في الرحلات السابقة . وأما الثانى فقد انقضت أيام لم يظهر خلالها في مجلس النواب ، وأتلى ينوب عنه في الرد على الأسئلة الخاصة برئيس الوزارة وفي عرض رأى الحكومة . وكان بعض المطلعين في لندن يعلمون أن تشرشل ليس في العاصمة . ولكن الصحافة البريطانية ، تعودت أن تقيم بنفسها على نفسها رقيباً في هذه المسائل الخطيرة . وقد فعلت مثل ذلك أسابيع متوالية قبيل إذاعة الأنباء الخاصة بالملك إدورد الثامن . فامتنعت عن التساؤل عن تشرشل وأين هو ، أما الصحافة الأميركية فلم تمتنع . وقد خلصت من تساؤلها إلى القول بأن روزقلت وتشرشل مجتمعان في مكان ما ، في البحر . وكان هذا القول صحيحاً . هذا الاجتماع هزّ خواطر الأمم الحرّة ، بما تجلى فيه من إقدام الرجلين ومشيريهما وبما رمز إليه — على قول تشرشل — من حشد قوى الخير العالمية ضد قوى الشر ، ثم بما أسفر عنه من وثيقة تاريخية ، أصبحت فيما بعد أساس الاتحاد أو التحالف الذى أنشئ بعد دخول الولايات المتحدة الحرب ، وأطلق عليه اسم الدول المتحدة . هذه الوثيقة هي المعروفة باسم « وثيقة المحيط الأطلسي » ونصوصها كما يلي :

(١) أن بلديهما (بلدَي روزفلت وتشرتشل) لا يسعيان إلى التوسع لا في الممتلكات ولا في غيرها .

(٢) أنهما لا يريدان تبديلاً اقليمياً ما ، لا يطابق رغبة الشعوب صاحبة الشأن .

(٣) أنهما يحترمان حق جميع الشعوب في اختيار نظام الحكومة التي تعيش في ظلها ، وأنهما يرومان إرجاع حقوق السيادة والحكم الذاتي للأمم التي حرمتها بالقوة .

(٤) أنهما يحاولان — مع احترام التزاماتهما القائمة الآن — منح جميع الدول ، صغيرة كانت أو كبيرة ، ظفرة أو مقهورة ، حق الوصول إلى اتفاقات تجارية متساوية ، والحصول على مواد العالم الأولية التي تحتاج إليها لرخائها الاقتصادي .

(٥) أنهما يرغبان فيما يتعلق بالشؤون الاقتصادية ، في الحصول على التعاون التام بين جميع الأمم لضمان تحسين أحوال العمال والتقدم الاقتصادي والسلامة الاجتماعية .

(٦) أنهما يأملان بعد سحق الاستبداد أن تتوطد دعائم السلم الذي يمنح جميع الأمم وسائل العيش بسلام داخل حدودها ، فيتمكن الناس في جميع أنحاء المعمورة من العيش في مأمن من الخوف والعوز .

(٧) أن يتيح هذا السلام للناس اجتياز البحار والمحيطات بغير عائق .

(٨) أنهما يعتقدان أنه يجب على جميع أمم العالم أن تعدل ، لأسباب مادية وروحية ، عن استخدام القوة . ولما كانت المحافظة على السلام في المستقبل مستحيلة ما دامت الأمم تهدد بالسلاح البري والبحري والجوى ، أو تستطيع أن تهدد جيرانها بالاعتداء ، فتجريد هذه الأمم من السلاح من المسائل الجوهرية الآن ، إلى أن يتم إنشاء نظام شامل للسلامة العامة . وعليه فستسعيان إلى تأييد وتشجيع جميع الأساليب التي تخفف أعباء التسليح الساحقة ، عن عائق الشعوب المحبة للسلم .

وفي هذا الاجتماع وضعت القاعدة التي قام عليها عون بريطانيا والولايات المتحدة لروسيا .

ويلوح مما اطلعت عليه من خطب روزفلت (تقرير المبادئ العامة) وخطب ولاس (وكيل الرئاسة الأميركية) وهل (وزير الخارجية) وسمنر ولز (وكيل الخارجية) ومما نشر من فصول لأقطاب الباحثين في نشرة معهد كارنيجي للسلام الدولي أن الدول المتحدة يجب أن تتوخى هدفين اثنين بعد نهاية الحرب :

أما الأول فالمحافظة على سلام العالم بفرض نزع السلاح على دول المحور، وحراسة العالم لحفظ الأمن العام في نصابه ، على أن تتولى بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا والصين في المقام الأول هذه الحراسة .

وأما الثاني فإتاحة مزايا عظيمة الشأن لكل دولة تنتظم في الهيئة الدولية التي تنشأ إحياء لعصبة الأمم أو ما كان من قبيلها .

ومن هذه المزايا ما هو اقتصادي كحرية التجارة بين الأعضاء وحظر التمييز بين دولة وأخرى في العلاقات التجارية ، وتوزيع الخامات على أساس من العدل لكفاية الحاجة المعقولة لكل أمة في أثناء السلام ، وإباحة المعونة المالية الأميركية للبلدان التي لا تملك رأس المال الكافي لتحقيق مشروعات المنشآت العامة ، والتعاون على توسيع نطاق الاتجار بين الأعضاء .

ومنها ما يتعلق بالسلامة من الاعتداء . وفي تفكير هؤلاء الناس وبختم ميل صادق إلى جعل « السلامة المشتركة » حقيقة واقعة ، أي أن تعد سلامة كل أمة من أعضاء هذه الهيئة جزءاً لا يتجزأ من سلامتها جميعاً ، وهذا يعني تعبئة قوة الدول المنتظمة في الهيئة لمقاومة الاعتداء أنى أتى على كل دولة صغيرة أو كبيرة منتظمة فيها .

وينتظر من جميع الدول التي تنتظم في هذه الهيئة ، أن تضمن داخل حدودها الحقوق الانسانية الأصلية لأبنائها وبناتها ، وهي الحقوق التي أفرغها روزفلت في نصوص الحريات الأربع . وأن تقطع عهداً بتسوية كل نزاع دولي بأساليب التحكيم أو عرض النزاع على محكمة دولية ، عند ما تحبط المفاوضات . وأن تخفض تسليحها خفضاً كبيراً وتخضعه لمراقبة دولية .

وليس ثمة ريب في أنَّ الدول المتحدة ستواجه عند نهاية الحرب مشكلات كبيرة مُلحة تقتضى المعالجة السريعة ، ومن هذه المشكلات نزع سلاح ألمانيا وإيطاليا واليابان ، والحيولة دون نشوب الثورات في البلدان المغلوبة ، وإغاثة البلدان التي هوت عليها كفتُ الحرب قاسية مدمرة ، بإرسال الطعام والملبس إليها، واجتناب تسريح الجيوش إلى أن تضمن لرجالها أعمال يرتزقون منها ، ووقف الحرب الاقتصادية حالما ينتهى القتال ، وبذل العون لإنشاء حكومات تنزع إلى المبادئ الشعبية الحرة ، فتتولى حفظ النظام في البلدان المغلوبة وتتعاون مع الدول المتحدة على إنشاء عالم جديد أفضل من العالم الذى دكت الحرب أركانه .

والحكمة تقتضى أن تعالج هذه المشكلات جميعاً وفقاً لخطط أعدت وتمَّ الاتفاق عليها الآن، حتى لا يكون العلاج مرتجلاً . وأن يُرجأ عقد معاهدة الصلح أو معاهدات الصلح خمس سنوات أو عشر سنوات أو أكثر أو أقل . فاللجنة التي عينها معهد كرنيجي للسلم الدولى لبحث هذه الموضوعات ، ترى أن الأمم ستواجه ، حالما تنتهى الحرب ، مهمتين منفصلتين ولكنهما متفاعلتان ، ولا بدَّ من التأهب لهما قبل أن تفاجأ الأمم الظافرة بهما . هاتان المشكلتان هما : أولاً مشكلة التعمير السياسى والمادى والروحى التي تلى الحرب ورزاياها . وثانياً مشكلة إنشاء نظام دولى دائم وهى مشكلة بعيدة الأمد . والرأى الغالب على جميع الذى خصوا هذه الموضوعات بعنايتهم ، أن الأولى تحتاج إلى معالجة مباشرة ولا تحتتمل التأجيل ، فلا بدَّ من إعداد الخطط لها ، وهو ما يصنع الآن . وفترة الانتقال من المرحلة الواحدة إلى الأخرى ، يرتبط أمدها بمدى النجاح فى إنشاء هيئة عالمية دائمة تكون كفؤاً للنهوض بالتبعات والمهام التي لم تنجز فى فترة الانتقال والتي تتصف بصفة دائمة . والضرورة لا تقضى بتعيين حدٍ فاصل تنتهى عنده الأولى وتبدأ الثانية ، بل الرأى أن الواحدة تندمج فى الأولى اندماجاً مطرداً وفقاً لاستكمال إنشاء الهيئة العالمية واطراد تقدمها . فالغرض ليس

إنشاء هيئة عالمية على ورق ، بل نمو هذه الهيئة كالجسم الحي .
أما هل توافق الولايات المتحدة ، على مضيها في المشاركة في تحقيق هذه المشروعات فلا يستطيع الفصل فيه . ولكن الرأي السياسي الغالب ، هو أنه إذا اندمجت فترة الانتقال في مرحلة التنظيم العالمي الدائم ، فالشعب الأميركي لا يواجه مسألة يتعين عليه الفصل فيها — كمسألة الانتظام في عصبة الأمم — وعندئذ يكون المضي في التعاون الدولي هو الأمر الطبيعي ، والانكفاء عنه والتنكُّر له هو الأمر غير المحتمل .
ومن الواضح أن عقد معاهدة صلح أو تنظيم هيئة عالمية ، لا يكفيان في حد ذاتهما لإنشاء العالم المرتجى . وهذا الإنشاء ليس في صميمه إلا تربية خلقية وعقلية دائمة ، فنجاح النظم السياسية والاجتماعية أو خيبتها مردُّها إلى أخلاق الأفراد والشعوب ، ولذلك يعدُّ روزفلت السياسي العظيم معلماً عظيماً .

وقد أفرغ روزفلت روح العالم المرتجى في فقرة جاءت على لسانه في خطبة ألقاها في ١٥ ابريل ١٩٤٠ قال : « إن العالم — في رأيي — يكافح الآن بحثاً عن أساس حياته في القرون المقبلة . وإنني لأعيد أن الحياة يجب أن تبنى على « قيم » إيجابية دائمة .

« فقيمة المحبة ستكون دائماً أعظم من قيمة البغضاء ، لأن كل أمة أو كل جماعة من الناس ، تنتضى سلاح البغضاء ، فإن هذا السلاح سيمزق أوصالها في آخر الأمر .
« وقيمة الإيمان بالإنسانية والعدل أعظم دائماً وفي كل أرض من قيمة الإيمان بالقوة ، لأن القوة تتجه في آخر الأمر إلى داخل الأمة نفسها ، وعندما يحدث ذلك ، يضطرُّ كل رجل أن يقيس قوته بقوة أخيه ، وكل جماعة أن تقيس قوتها بقوة الجماعة الأخرى .

« وقيمة الصدق والإخلاص أعظم دائماً من قيمة الكذب والاستهتار .
« فليس هناك طريقة ما تستطيع أن تفصل فصلاً دائماً ما بين الناس ووحى

قلوبهم وضمائرهم أو تمنعهم من رؤية عواقب آرائهم الفاسدة على كثر الزمان . إنكم لا تستطيعون أن تفرضوا على الناس الايمان بأن أسلوباً ما من أساليب الحياة ، هو أسلوب صالح خير ، إذا كانت الفاقة والمرض والموت من عواقبه .

« والمرء لا يمكن أن يكون صادق الولاء إلا إذا كان حرّاً » .

ولو تكلم روزقلت بلغة الشاعر لقال مع الشاعر اللبناني الأميركي جبران خليل جبران في كتابه « آلهة الأرض » على لسان أحد هذه الآلهة :

« أنهض الآن وأجرّد نفسي من الزمان والمكان . وأرقص في ذلك الحقل الذى لم يوطأ . فتتحرك أقدام الراقصة مع أقدامى . وأنشدُ في ذلك الجوّ الأعلى . فينبض صوت إنسانى في صوتى . إننا سوف نمضى إلى الشفق . وقد نستيقظ في فجر عالمٍ آخر . ولكنّ الحبّ باقى . وآثار أصابعه لن تمحى . الكور المبارك يشتعل . والشرر ينتثر . وكل شرارة شمس . نخير لنا وأحكم ، أن نبحت عن بقعة ظليلة ننام فيها ملتحفين ألوهيتنا الأرضية . وأن ندع للحب ، إنسانياً وضعيفاً ، زمام السلطان على اليوم المقبل » .

UNIVERSITY
OF
TORONTO
LIBRARY

خاتمة

سألت نفسي بعد ما أنجزت كتابة هذا الكتاب : لماذا كتبتُه؟ لم يدعني أحد إليه ولا أغرائي أحد به . ثم أجبت نفسي مطمئناً إلى أنه الجواب الصحيح : إنني كتبتُه لأنني رغبتُ في صحة هذا الرجل في أثناء المطالعة والكتابة . وقد نعمتُ بها ، لأن روزفلت رجل غير عادي — كما يتبين مطالع هذا الكتاب — حتى بين العظماء من رؤساء الولايات المتحدة . فقد نشأ نشأة كريئة مميزة ، لا تفرض النضال في الحياة ولا تعد له . ولكن روزفلت ما فتى منذ ما كان في الثامنة والعشرين من عمره يناضل . ناضل محترق في السياسة ، وناضل المرض ، وناضل طبقة الممولين ، وناضل أصعب أزمة اقتصادية منيت بها أمة صناعية كبيرة ، وهو الآن في غمار نضاله الأعظم ، وبنضاله الأعظم أريد كسب الحرب وكسب السلام الذي يليها . وإذا استثنينا مناضلة المرض فقد كان فرنكلن روزفلت في كل نضال نصير المنسيين والمنسيات في الحياة ، وهم ركن الاجتماع الديمقراطي كما يتصوره ، ولا كيان لهذا الاجتماع في رأيه إلا إذا تحرر السواد من الخوف والفاقة ، وتعلم بالإرشاد ، وهذا لباب حرياته الأربع . والسياسي الكبير في نظره معلم كبير .

وقد تتبعت هذه السيرة ، على تفاوت في الاهتمام بها من عشرين سنة أو تزيد . ففي سنة ١٩٢٠ رشح فرنكلن روزفلت لوكالة الرئاسة عن الحزب الديمقراطي ، وجعل مدار معركة الانتخاب عصبة الأمم . وكان لولسن في ذلك العهد منزلة ، وكان لاسم روزفلت — بعد ثيودور — مكانة ورتة . وهذا شاب وسيم غني من آل روزفلت ومن أتباع ولسن ، تولى مناصب عالية في سن الشباب ، وها هو ذا في الثامنة والثلاثين مرشح لوكالة الرئاسة الأميركية

وأسفت ، كأنما عرفته طوال حياتي ، عند ما قيل إنه أصيب بشلل الأطفال ، وسألت عنه عند ما زرت الولايات المتحدة سنة ١٩٢٤ ثم غاب ذكره عني إلى سنة ١٩٢٨ عند ما عاد إلى حلبة السياسة على عكازين . فلما انتخب حاكماً لولاية نيويورك (نوفمبر ١٩٢٨) تجدد اهتمامي بتتبع أخباره ، ولا سيما بعد ما انتخب رئيساً (نوفمبر ١٩٣٢) وقد ظهرت آثار هذا الاهتمام في غير صحيفة مصرية واحدة .

وقد اعتمدت في كتابة هذا الكتاب على المؤلفات التي أشرت إليها . وعلى مطالعات مستمرة في شتى الكتب والمجلات التي تعالج الحياة السياسية في الولايات المتحدة خلال العشرين سنة الأخيرة ، وأخرى تفصل النظام السياسى في تلك البلاد . ولكن الاعتماد الأكبر في الفصلين الأولين على الكتب المرقومة (٢ و ٣ و ٤ و ٥) . فعناصر الفترة الأولى من حياته — أى إلى سنة ١٩٢٠ — غير متاحة إلا في هذه الكتب وما كان على شاكلتها . وأما الفصول الثلاثة الأخيرة فكان الاعتماد الأول فيها على أوراقه الرسمية وخطبه (١) ولا سنيا المقدمات التي كتبها لها والحواشى التي علقها عليها ، وعلى سلسلة الكتب والرسائل المرقومة (٨) يستثنى من ذلك القسم الأول من الفقرة الخامسة في الفصل الخامس ، فهو تلخيص واف للفصل الأخير من الكتاب المرقوم (٢) وقد نشر في مجلة اتلنتك مثلى ، فاطلعت عليه فيها قبل أن أطلع على الكتاب ولخصته ونشرته في المقتطف .

ويسرنى أن أوجه الشكر هنا إلى المستر ج . ارل جايكوبز ، فقد ساعدنى في استحضار طائفة من الكتب من الولايات المتحدة ، وإلى مكتبة الجامعة الأميركية في القاهرة ، فقد أباحت لى ما عندها في هذا الموضوع وهى الكتب المرقومة (٨ و ١٠ و ١٤) وإلى الأستاذ حسن كامل الصيرفى فقد عاوننى في تحضير الأصول للطبع .

فؤاد صروف

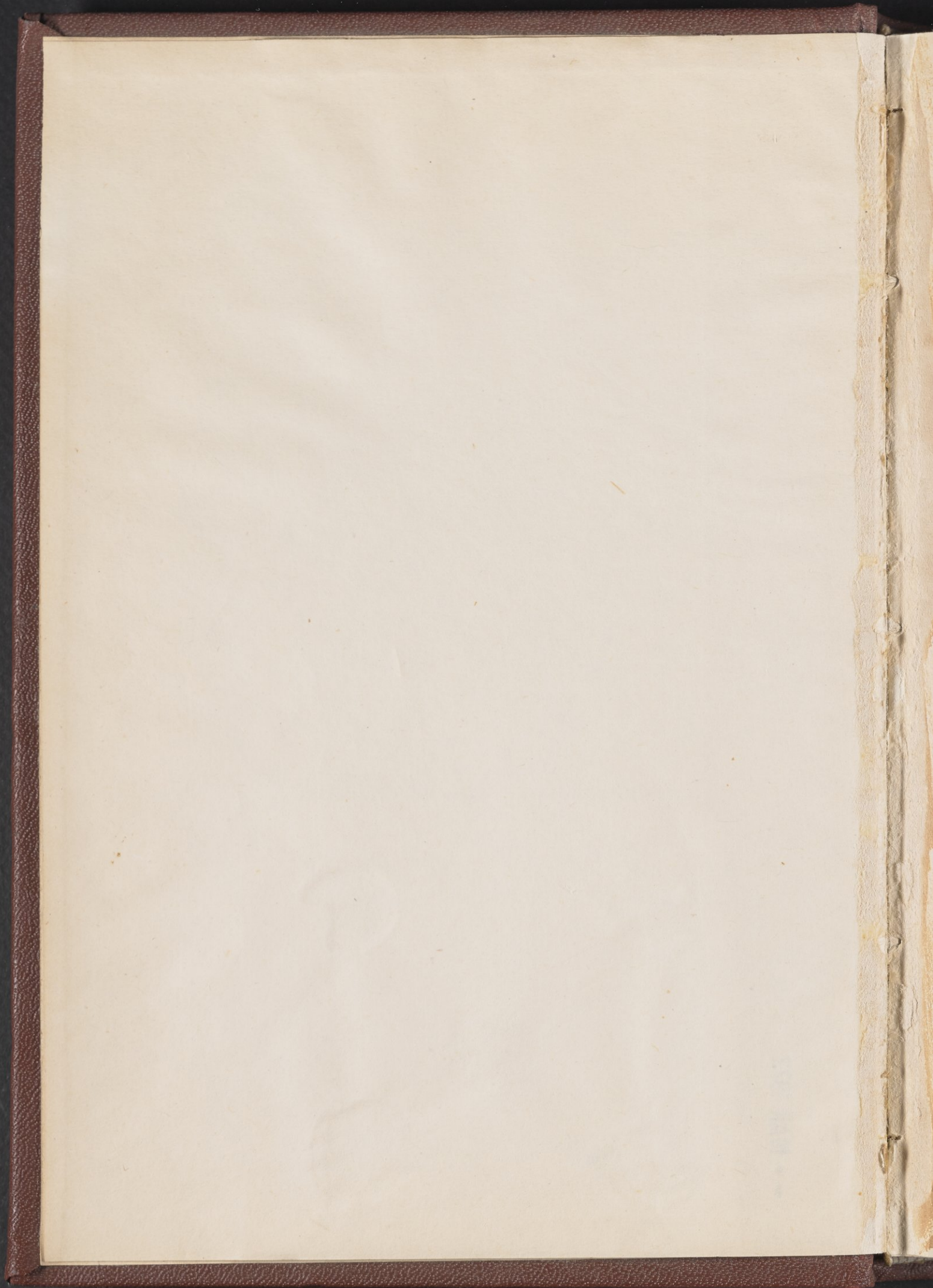
٤ مارس ١٩٤٣

المراجع

1. The Public Papers and Adresses of Franklin Delano Roosevelt.
RANDOM HOUSE, *New York*.
MACMILLAN, *New York*.
2. Roosevelt, Dictator or Democrat.
GERALD W. JOHNSON, *Harper, New York 1941*.
3. Roosevelt.
EMILE LUDWIG, HAMISH HAMILTON, *LONDON 1938*.
4. Roosevelt.
BASIL WOON, PETER DAVIES, *London 1942*.
5. Roosevelt, and Then..?
STANLEY HIGH, *Harper, New York 1937*.
6. Since Yesterday.
FREDERICK HENRY ALLEN, *Harper, New York 1939*.
7. This is My Story.
ELEANOR ROOSEVELT, GARDEN CITY PUB. Co., *New York 1939*
8. International Conciliation.
CARNEGIE ENDOWMENT, Nos. 300, 347, 358, 365, 367, 368, 371, 373, 377, 378.
9. International Politics.
FREDERICK H. SCHUMAN MC GRAW-HILL BOOK Co.
New York 1941.
- 10. American Foreign Relations.
EDITOR, CHARLES P. HOWLAND *Yale Un. Press 1928*.
11. America's Economic Strength.
C. J. HITCH, *Oxford Un. Press London 1941*.
12. America in World Affairs.
ALLAN NEVINS, *Oxford Un. Press 1941*.
13. American Foreign Policy.
D. W. BROGAN, *Oxford Pamphlets No. 50*.
- 14. The American Presidency.
HAROLD LASKI, *Harper, New York 1940*.

1923/3/1/907

1923/3/1/907



DATE DUE

Shirley Koller
74/468

MAY 18 1978

-- MAR 1972

E
807
S27
1943

RECEIVED
MAY 18 1978
LIBRARY

b. 1270040x

T- 14163767

